من يوميات مدرس متمرد

طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

اسم الكتاب: من يوميات مدرس متمرد

المـــــؤلف: طنطاوي عبد الحميد طنطاوي

الناشـــــر: بورصة الكتب للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

التجهيزات الفنية: حسام أنيس

25 شارع شريف- القاهرة

Email: adel.metwaly69@yahoo.com

02/23920369 -01001889363

رقم الإيداع : **2014/1898**

الترقيم الدولي: 4- 58-5016-977-978

طنطاوي،عبد الحميد طنطاوي.

من يوميات مدرس متمرد: قصص قصيرة/ طنطاوي عبد الحميد طنطاوي- ط1.- القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع، 2014 .

214ص؛ 20سم.

تدمك: 4- 58 -5016-977-978

1- القصص العربية القصيرة.

أ- العنوان.

813.01

إهداء

إلى كل أساتذتي العظماء ، وزملائي في حقل التعليم

مَن مات فعليه رحمة الله ، والثاني أمدَّ الله في عمره

وتلاميذي الثوار النجباء . . .

أملاً أن تتغير يوماً منظومة التعليم

طنطاوي

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	7
الذكرى	9
عروسة المولد	11
الباشا راكب رأسه	40
حصة انهزامية	44
ندل المسئول الكبير – عفواً– نجل المسئول الكبير	54
يا كنترول ... يا	64
من يوميات مدرس ... صاحب المقام العالي	73
مطلوب ترحيله فوراً	79
الراقصة والأستاذ	106
إلى بورسعيد الحرة	123
الخطاب	137
ضربة معلم	151
مدرسة خاصة جداً	177
أقسم بالله إنني صادق	196

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال سبحانه وتعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ ﴾ [القلم : 1] .

المعلم الأول هو الله سبحانه وتعالى ، رفع اسمه ، وتقدَّس ذكره ، وتعالى عن الوصف بموصوف ، وأول مَن تلقَّى العلم سيدنا آدم عليه السلام .

– عن رسول الله ﷺ :

" **إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ لَيُصَلُّوْنَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاس الخَيْر ، حَتَّى النَّمْلَة فِي جحرِهَا وَالحُوت فِي البَحْرِ** " صدق رسول الله ﷺ .

– أُطلق لقب المعلم على السيد المسيح عليه السلام في كل الأناجيل ، فيقول عن نفسه عليه السلام :

" أنتم تدعونني معلماً وسيداً ، وحسناً تقولون ؛ لأني أنا كذلك " .

– يقول الربيع بن سليمان – رحمه الله – وهو تلميذ الشافعي – :

" واللهِ ما تجرأت أن أشرب الماء ، والشافعي ينظر إليَّ هيبةً له " .

قال سفيان الثوري رحمه الله :

" لا أعلم من العبادة شيئاً أفضل من أن تعلم الناس العلم " .

وقيل : لا يستخف أحد بمَن تعلم منه علماً ، إلا وضيع خامل أو رفيع جاهل .

وقالوا :

* معلم صبيان ... والمقصود بها تحقير الشخص القائم بهذا العمل ، أي أنه ضعيف في عقله ، وقليل في فعله ، بلا رأي يؤخذ به ، كان العرب يحتقرون بعض الأعمال ، ومنها العمل في التعليم .

ومن كلمات العرب المأثورة في هذا الشأن :

كَيْفَ يُرْجَى العَقْل وَالرَّأْي عِنْدَ مَنْ يَرُوْحُ عَلَى أُنْثَى وَيَغْدُو عَلَى طِفْل

* المستحيلات :

ومن رابع المستحيلات بعد الغول – والعنقاء – والخل الوفي

إصلاح التعليم في مصر .

* فيقول إبراهيم طوقان الشاعر الفلسطيني :

هل يكون مبجلاً ... مَن كان للنشء الصغار خليلاً ؟!

* لا تتعجب أن يصير حال مدارسنا متدنياً ، الجميع شركاء في المسئولية ، الأسرة – المجتمع – المعلم ، وكل منهم يحاول أن يلقي بالتبعية على الآخر ، ولكن لا تحزن ... فنحن أمة اقرأ ، لا نقرأ .

* في تقييم المنظومة التعليمية في مصر في السنوات الثلاث الأخيرة ، وعلى لسان وزير التعليم نفسه ، كان التقييم على مستوى 148 دولة ، حصلنا على الترتيب الأخير ، والعام الماضي كان الترتيب 145 ، والعام السابق له كان الترتيب 126 ... هذا يدل على مدى التدهور في العملية التعليمية في مصر .

الذكرى

كلمة الصباح تلهج بالثناء ، فهذه آيات من القرآن الكريم ، تلاها أحد التلاميذ بصوت يقطر خشوعاً وسكينة ، وتلتها حكمة اليوم بحديث للرسول ﷺ عن الشهيد ودرجته ، وكلمات تقطر شفافية ، وحماساً تمتدح فعل الرجال ، وتتذكر ساعات النصر والعبور العظيم ، وتبارى الجميع ما بين تلاميذ وأساتذة في وصف أيام من أعز الأيام في تاريخ مصر ، صاغوا العبارات والكلمات من القلب ، فنسجت فوق العيون صوراً للحظات فاضت بالبطولة فانتشت القلوب .

تعمَّد اليوم أن يزين صدره بوسام الحرب الذي ناله ، أحسَّ دون سواه أن الاحتفال اليوم خاص به دون سواه ، نشوة يكاد يطير بها عشقاً ، فيمضي بين الصفوف ، كأن الجميع من زملاء وتلاميذ يحسدونه ، مزهواً ، وليس عيباً أن يزهو ، ممتشقاً حساماً في يده عبارة عن عصا يشير بها للتلاميذ ، وكأنَّها عصا قائد الفرقة الموسيقية ، أو عصا المريشالية تحت جناحه .

ألقى بتعليماته بقوة ، وبصوت يسترجع به ذكريات الأبطال ممن جاوروه في اللحظة العظيمة ، وقف شامخاً مرفوع الرأس ، وهو يعطي الأمر لطلاب الفرقة الموسيقية بالسلام الجمهوري ، عُزِفت الموسيقى ، وفي معزوفتها نشوى تخترق كيانه ، تنسيه تلك الشظية التي ما زالت تترك أثراً غائراً في قدمه اليمنى .

اختلط الأمر عليه ما بين طابور الصباح المدرسي ، وطابور الفرقة العسكرية ، خرجت تحية العلم من حناجر الطلاب والمدرسين ، وكأنَّها زلزلة أو صاعقة قوية مرعبة ، بعد الهتاف الأول مباشرة ، والاستعداد للترديد خلف قائد المجموعة بالنداء والهتاف الثاني ، لمحت عينه تلميذاً

في نهاية الصف يبتسم ، ويغمز زميله بحركة من يده في مؤخرته ، كاد يخرج من خشوعه ، أحسَّ وكأن القنبلة التي انفجرت بجواره قد اخترقت رأسه ، ولحظتها تاهت كل الرؤى من أمام عينيه .

تتابع أمام عينيه شريط الصور ، يوم اشتعلت النيران في الماء ، ويوم تاهت الأعضاء ، ولم تجتمع في جسد واحد ، فكان رفات الأبطال أجزاءً ... انتهى النشيد ، فصرخ بأعلى صوته ... لا يدرك ما يقوله جيداً ، ولكنها زمجرة كريحٍ عاصف ، أسرع الخطى في اتجاه التلميذ صارخاً : "يا أولاد الكلاب" ... أحس بعمق الجرح الذي ذهب من زمن ، وكاد يفتك بالتلميذ .

اجتمعوا حوله ، وحالوا بينه وبين التلميذ ، اهتزَّ الطابور ، واختلطت الصفوف ببعضها ، حملوه بين أيديهم ، في حجرة المكتبة وفوق منضدة كبيرة ، فوقها مفرش أخضر طويل ... تمدَّد جسده ، أسرعوا إليه برائحة عطرية من زجاجة إحدى الزميلات ، أخذ يصرخ تحت وطأة جرح الشظية في ساقه ، ويتفوه بكلمات لا يدركها أحدٌ ممن حوله .

على الجانب الآخر وقف مدير المدرسة يحاول أن يحيد بالتلميذ عن الخروج ، ولكن الفتى لم يأبه بكلام المدير ومَن حوله ، يعلمون سطوة وعلو شأن أبيه في السلطة ، هدَّد الفتى بأعلى صوته ، وخرج وانتظر الجميع ما يسفر عنه اليوم من أحداث .

وفي اليوم التالي مباشرة وصلت إشارة تليفونية بتحويل المدرس المذكور للشئون القانونية ، وأعقبها قرار نقله خارج المدرسة ، لم يبلغوه بالأمر ، فهو ما زال طريح الفراش في المستشفى ، واحتمال بتر الساق قائم .

قالوا : في السفر سبع فوائد ، قالوا : في السفر جهاد ، وبحث عن لقمة عيش حلال ، وقد أباح الدين السفر ، فأرض الله واسعة .

لا يخلو السفر من معاناة كما لا يخلو العشق من سهد وجوى وآلام العاشقين سفر وتيه في جمال المحبوب .

ينفرج الباب عن أمنية تراود أحلامه ، فيسجد لله شاكراً حامداً ، تمت الموافقة على السفر ، أسرع وزفَّ الخبر لزوجته ، وطالبها بالكتمان حتى تتضح الرؤيا ، وينهي كافة الأوراق والإجراءات اللازمة .

اتفقا على أن يكون العام الأول بمفرده ؛ حتى يستطيع دراسة الأمور عن قرب ، ومدى إمكانية العيش وفق ما سيتقاضاه من راتب ، كان عاشقاً بطبيعته لزوجته ، مدركاً لمعاناتها الحياتية وفق المتاح لهما ، فلم تَكِل ولم تشكُ يوماً ، كانت ابتسامتها تغلب معاناتها ، فتفيض وتزيح الشكوى ، لم تهتم يوماً بما يُثار من أحاديث حوله ، وأنه لا يجيد اللعب بالبيضة والحجر مثل سائر شباب هذه الأيام .

ففي اليوم الذي أصبح فيه مدرساً رفض فكرة الدروس الخصوصية ، وكان له رأي رفضَ الإفصاح به كثيراً ، ولكن قرأته عيون زملائه في العمل ، فأدركوا علَّته ، عرفوا عنه صديقاً صدوقاً ، قلما يُخطئ في فعل أو عمل ، فيَّاضاً بالعلم في شتى علوم المعرفة ، قارئاً نهماً ومبسطاً لعلم قد تشطح فيه الأفكار ، وتصيغ منه أشكالاً صعبة الفهم .

في عمله ينتظر الأولاد قدومه ، فيتألقون في الحديث ويسارعون في الاستجابة لدرسه ؛ فيرفع عنهم رهبة خطأ قد يقعون فيه بابتسامة تفيض بالعودة إلى الشرح من جديد ، يعشق النظام ، فلا يستمع لاثنين في وقت

واحد ، يرفض أن يقاطع أحدهم حديث زميله أو إجابته ، حتى لو كانت خاطئة ، لا يقلل من شأن مخطئ ، ولا يسرف في مدح مجتهد ، فدائماً يطلب المزيد من الجهد والاجتهاد .

***

وقف متأملاً أطلال الملك السابق ، لعنَ في سريرته الكهنة ، كاد يبكي على ما فات من عمره في الغربة ، أخذ طريقه إلى المعبد الكبير ، حيَّاه تلاميذه ، وردَّ تحيتهم بابتسامته المشرقة دوماً في وجوههم ، وفي الطريق للبهو الملكي مرَّ بطريق الكباش ، وتوقفت العربة الملكية التي تقل الملكة ، ويقودها ولي العرش ، رغم صغر سنه ، إلا إنه كان لماحاً ذكياً سريع البديهة ، كانت الملكة من عامة الشعب ، ولعن الكهنة هذا الزواج ، ولكنهم رضخوا لإرادة الملك يومها .

وقفت العربة بجوار "سنوحي" ، وهبط الملك الصغير مسرعاً ، حيَّت الملكة سنوحي المعلم ، فردَّ تحيتها بانحناءة من رأسه ، تقدَّم الملك الصغير ناحيته ، فانحنى له الملك أكثر ، وبادره قائلاً :

– هل ينحني الأستاذ ؟

– نعم ، ينحني لولي النعم ، ومنزل بركات السماء ، ومصدر الخصوبة والنماء .

وامتداد أوزوريس وحورس ...

قصَّ على زوجته قصصاً عن الكاتب المصري في مصر الفرعونية ومكانته بين كبار رجال الدولة ، وكيف كانت له تماثيل منحوتة من الصخر أو جذوع الشجر ، وما زال الكثير منها باقياً في المتاحف ، كان يقارن بين المدرس الآن ، وما يجب أن يكون عليه ، وما هو حادث بالفعل في المدارس ، وكيف أصبح في ذيل الوظائف الحكومية ، وكيف

أصبح مثار سخرية للتلاميذ ، وكيف صوَّره الإعلام بصور متباينة لا تعكس حقيقة الدور الذي يقوم به ، وفي النهاية كان يؤكد لها أن الظروف لم تكن منصفة للمعلم ، فامتدت يده لتلميذه ؛ ليأخذ مقابل الدرس الخصوصي .

***

سنوات وسنوات يكبر الأبناء ، وتتلون وتتغير ملامح الأشياء ، وكذلك البشر ، فشعر الرأس مال للابيضاض ، والعين استعانت بنظارة طبية للقراءة وأخرى للرؤية ، ذهبت أيام العمر سريعاً ... حقاً كلما زاد عمر الإنسان ، ازدادت أسنان المشط الذي يملكه ... وعندما تكتمل أسنان المشط تكون الرأس فقدت أغلب ، أو كل الشعر ... يعود من جديد ، ويشكر الله على النعمة التي جاد عليه بها ، ويردد "إن دفنت فكرك في أرض العقول ، فإنه يطرح ويثمر خيراً وبركة" .

كانت الكتب رفيق دربه ، فرفعت عنه إحساس الغربة كثيراً ، وعندما عاد بعد طول اغتراب لم يفكر أن يكون جليساً في مجالس القهوة أو النوادي ، كان راضياً بما كان ، فلم يأسف على ما مضى أو تمنَّى شيئاً .

وكان تفوُّق أولاده في الدراسة كفيلاً برفع المعاناة في الذكرى ، كان سعيداً بما مَنَّ الله به عليه ، فلديه منزل ثلاثة طوابق قابل للزيادة بناه بحُرِّ ماله ، وما اكتسبه من غربة ، لم ينسَ في دأبه على تأمين مستقبل أولاده أن يطوف بهم في شتى بقاع مصر .

ففي القاهرة كان يعشق زيارات مسجد سيدنا الحسين –رضي الله عنه– ، ومسجد الرفاعي والأمير حسن والقلعة ، وكذلك الأهرامات ومتاحف العصور المختلفة التي تتألق في القاهرة ، ولم يكن لديه أي

مانع من السفر إن أتت الفرصة المناسبة للجميع ، فقد كان يسافر إلى الأقصر أو أسوان ، وكان يزور المعابد المتعددة مثل هابو ، والدير البحري ، والرامسيوم ، ووادي الملوك والملكات ، فعبق التاريخ ينفث فيه أملاً غريباً محفزاً ، وكأنه في مرحلة الشباب ، وكان يروق له الحديث عن السد العالي والمصانع الحديثة .

لم يكن ثائراً يوماً ، ولم يشارك في حرب ، لكنه كان دائم الحديث عن انتصارات مصر ، وخاصة ملحمة العبور العظيم ، كانت أكثر الأشياء التي تؤرقه هي خوفه على أولاده أن يصاب أي منهم بداء الثورية أو ينضم لفصيل من فصائل المقاومة ، وخاصة التي أنتجتها في البداية السلطة ؛ لتضرب بها آخرين مناهضين لها ، استطاع بذكاء شديد أن يحيد بهم بعيداً عن مسايرة ركب الأفكار الثورية ، وخاصة بعد تدمير العراق وتقسيمه وفق المخططات الموضوعة سلفاً ، مضت أيامه على وتيرة محددة ، وهدفها غد آمن لأولاده .

كان الجميع يشهد بإخلاصه وتفانيه في العمل ، فقد كان مسارعاً في خدمة أي زميل كبير أو صغير ، ورفض أي ترقيات ، وفضَّل أن يظل مدرساً ، فكان يعشق الوقوف أمام التلاميذ ، والشرح على السبورة ، كان يجلس بينهم ، وكانوا ينتظرون قدومه أو أي حصة فارغة له ؛ ليجتمعوا حوله ، ويبادلونه الحديث ويسمعون منه ، فكان موسوعة في الثقافة والمعرفة ، ورغم أنه كان أكبرهم سناً ، إلا إنه لم يتوانَ عن عمل الشاي بنفسه ، وعندما كانوا يحاولون أن يحيدوا به ، كان يبتسم ويقول : "**سَيِدُ القَوْمِ خَادمهُم**" .

وفي إحدى المرات سمع صوتاً مرتفعاً بصورة غير معتادة من الحجرة المقابلة ، هَمَّ بالنهوض ، فطالبوه بالجلوس ، سأل سؤالاً مقتضباً ،

فأسكتوه ... فوافق مضطراً واستسلم ... أنصتوا ... عمَّهم الصمت والذهول .

– سأعلمك الأدب .

– شكراً ... لن أرد عليك ، فأنت حرمة .

– حرمت عليك عيشتك .

– يا وليه عيب .

– الوليه تبقى أمك ... ولا .

– آه ... لو كنت راجل .

– هو أنت فاكر روحك راجل ! ... سلامات .

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... اشهدوا يا ناس ... اشهدوا يا هووووه .

– يشهدوا ... أنت واللي أتخن منك في جزمتي ... في كعب جزمتي .

كعادته ، كان يبتعد عن موطن المشاكل ، ولكن الوضع الآن مختلف ، إنهم يكبرونه ويبجلونه ، وهو أكبرهم سناً ويحاول أن يبدو أمامهم في دور الكبير الواثق من نفسه ... الجدير بحل المشاكل إن وجدت .

فتصنَّع أمامهم بأهمية أن يخرج ويحاول ، أغلقوا الباب مرددين "ودن من طين ، وودن من عجين" .

طلب أن يشرحوا له حقيقة الأمر ، مذكراً إياهم بأنهم في مدرسة ، وأن كثيراً من الأولاد سمعوا بهذه الألفاظ والكلمات الجارحة ، ابتسموا وطالبوه بالنسيان ، فالمدرسة اليوم مجرد سبوبة ، وما نتقاضاه من رواتب عبارة

عن إعانة اجتماعية لنواصل الحياة ، وأخذَ كل منهم يحسب له ماذا يعمل ليكفل لنفسه وأولاده الحياة الكريمة .

أقسم أحدهم أنه يعمل في ثلاثة أعمال منها خباز من قبل الفجر وحتى شروق الشمس ، تشبث بحديثه البعيد كل البعد عن ملامحه الشخصية التي اكتسبها خاصة من الاغتراب ، فأفصح لهم أن ما يفعلونه هو الخطأ ، وأن الله يلعن قوماً ضاع الحق بينهم ، أخذوا كلامه بمحمل الجد ، وخافوا وتخوفوا ، فتحولوا بالحديث من جدية إلى ضحك ، وسخرية من الحق والصدق في هذه الأيام .

وبإصرار سأل :

– طيب لله ... مين الأخت أو الزميلة التي تتجرأ وتقول ...

– يا سيدي ... عروسة المولد .

– عروسة المولد !!!

– أيوه عروسة المولد راكبة حصان .

– مش فاهم .

– يا عمنا أنت في الأصل صعيدي ... وإن فهمت ... يضحكون جميعاً .

– يا سيدي اتعالجت .

– ولو الأصل صعيدي ... اتغيرت يعني لبست بنطلون ماركة مسجلة ، ولا قميص مستورد ، ولا كرافتة من ماركس أند سبنسر ... كله زي قلته ، المهم جوه اتغير ؟ ... أظن مستحيل ...

تبادلوا الحديث بين سائل ، ومجيب ، وعارف يستحي أن يقص ، فيدخل لمنطقة محرمة من حديث يتعلق بالسمعة ، وآخر يبتغي أن يسرد التفاصيل ، حتى لو قام بتأليف نصفها ، ولكن الجلسة تضم أكثر من

رجل يخافون الخوض في أحاديث من شأنها التعرض أو المساس بالشرف .

حاولوا أن يدوروا بالحديث لجهة ثانية ، فألقى أحدهم سؤالاً عما حدث في العراق ، والأسباب الحقيقية التي دفعت المجتمع الدولي لكل هذه الاستعدادات ، ولماذا سرقت المخطوطات القديمة ، ومَن وراء كل هذه الأفعال ؟ ومتى يأتي الدور على مصر ؟

انطلق يرصد ويقص عليهم من التاريخ أن اليهود يهمهم تقزيم وتهميش تلك المنطقة ، والبحث عن أصول لهم مهما كلفهم هذا الفعل ، فإنهم يغيرون التاريخ ويطمسون الحقائق ، ففي الكتابات القديمة ما يفضح أكاذيبهم ، حتى إن التلمود بما يحتويه من أساطير مرجعيتها التاريخية إلى الأساطير ربما الفرعونية أو البابلية أو الفارسية ، حتى من بلاد الشرق الأدنى استعانوا بقصص وحكايات غريبة .

فاض بالحديث شارحاً ومثبتاً بالعديد من المقارنات ، وكان يضحك وهو يقص عليهم متى اكتسب سيدنا يعقوب اسم إسرائيل ، وحكاية أنه قام صراع بين الله وسيدنا يعقوب واستطاع يعقوب- عليه السلام - أن يقبض على رقبته ، ولم يستطع التغلب عليه ، رغم أنه أصاب سيدنا يعقوب في عظام فخذه ، طلب الله المتمثل في صورة كائن من يعقوب أن يفك أسره ، فالنهار على وشك الطلوع ، ولكنه أبى أن يتركه إلا بعد أن يباركه ، فباركه وأطلق عليه اسم إسرائيل ، فأطلق سراح الكائن ، وحتى اليوم لا يأكل اليهود عرق النسا التي بعظام الفخذ ؛ بسبب ما أحدثه من إصابة لسيدنا يعقوب .

ودق الجرس معلناً بدء الحصة القادمة ، فمضى أغلبهم ، أما هو فقد انتهت حصص يومه الدراسي ، جمع دفاتر التلاميذ وبدأ مراجعتها

وتدوين الدرجات ، وكان في داخله يحمد الله أنه لم يسحب من لسانه ، ويشارك أو يذهب لموقع الصراع الذي غزا أذنيه وآذانهم .

عاد إليه وهمس في أذنه بعد أن خرج الجميع "صاحبنا إياه اللي اتمسح بكرامته الأرض ، راجل مؤدب ولو اتكلم حصان العروسة يدهسه ، ويكومه ، ويعيش جربان ويموت حفيان ... عارف العروسة اللي متذوقة ، والأحمر والأخضر هياكل من وشها حته ؟ وخالها بيه وواصل في المجلس إياه ، وإيده طايلة ، وعمها خالي شغل ومندوب عن الكبير ، بيجمع إتاوات ويفرق أدوار في الانتخابات ، وأستاذ ومركب قرنين ، وراكب عربية بيجرها حصانين ... وتوتة توتة خلصت الحدوتة ... حلوة ، ولا ملتوتة ؟" .

حاول أن يستوقفه ليعرف منه مَن هي ؟ وكأنه أطلق لساقيه العنان ، وسارع إلى فصله ، وبعد دقائق معدودة تصنع الذهاب للمكتبة ، فمرَّ من أمام باب حجرة المدير ، فألقى بعينيه للداخل ، امتص ريقه ... إنها الرائعة الجميلة التي تغير ملابسها ، وترتدي كل يوم الملابس الجديدة ... مَن تحضر متى شاءت ، ومتى أرادت .

تقابلت عيونهما ، فأسرع يغير من مجال رؤيته للناحية الأخرى ومضى ، بينه وبين نفسه عندما يهيم شيطانه بعد أن يلمحها غادية أو ذاهبة يمتص لعابه ، ويتمنى لو عاد به العمر قليلاً إلى الوراء ليدرك أنه ما كان يفعل شيئاً ، ولكنها مجرد أماني مكبوته كاذبة .

جلس في المكتبة لدقائق معدودة ، ثم عاد أدراجه لحجرة المدرسين ، حاول أن يبدو منهمكاً في تصحيح الدفاتر ، كان شيء غريب يدفعه للتوقف والنظر صوب الباب فتدفعه الغريزة ... كانت واقفة وكأنها أحد آلهة الأوليمب القديمة تستعرض مفاتنها ، وكأنها تقف على قدم واحدة ،

فالساق الثانية تعانق الأولى من أسفل ، وكانت تستند بذراعها الأيمن على حاجز باب الغرفة ، أما إشعاعات اللؤلؤ ، فلم تكن تستقر ، فكانت تبدو لثانية ، وتختفي لثانية أخرى تباعاً ، وفقاً لمنظومة الحركة ، وهي تلوك بين أسنانها قطعة اللبان .

ابتسم وهي تنظر إليه ، ولا إرادياً وقف ، ونظرت إليه ، لكنه لم يدرك معنى محدداً للنظرة ، ثم حيَّته تحية صغيرة مقتضبة ومضت ، تمايلت وتناغمت حركات شعر رأسها مع دقات حذائها ، وأدرك ساعتها لماذا عشق المرأة للحذاء ذي الكعب ، وهفا على خياله دقات أقدام راقصة الفلامنكو ومواكبتها للحركة الراقصة التي تؤديها ، فكثيرون ادَّعوا أهمية الكعب ، أما الآن فقد تغيرت الدوافع والأسباب ، وأيقن بكذب الأفكار القديمة ، فابتلع ريقه ، واختلس النظر ، وهو يتصنع إشعال سيجارته ، بينما أدركت هي بحاستها تعقب عينيه لها ، فأدارت رأسها ، وابتسمت .

فأشعل سيجارته حتى نصفها ، وحرق عود الكبريت أنامله ، فأفاق ... رأى شفتيها حمراوان ... هل بفعل مقصود أم بطبيعتهما ؟

وكانت وجنتاها متوردتين كعروس يوم عرسها ... وساقاها وفقاً للمقاييس الهندسية والمعايير الفنية ، فإنها تندرج تحت مسمى الشكل المخروطي بلا رأس مدبب ، أو كما يسميه أرباب الرياضيات مخروطاً ناقصاً ، كم كانت ركبتاها عاجيتين بلا عظام .

أطلق سحابة من باقي سيجارته التي ما برحت فمه ، فتشكلت بشكل شيطاني يهيم في لحظة ، فاستغفر الله ، وتذكَّر سنه ، وعاد يصحح الدفاتر بصورة عشوائية ، فقد تداخلت كل الحروف والرموز .

***

طرقات جبلية وعرة ، وجبال عالية ... كانت السيارة تشق طريقها في خطوط متعرجة وانحناءات غير مألوفة عليه ، وتدور في الطريق ، فتدور رأسه بدوران السيارة .

وكانت السحب تتحرك أسفل الطريق ، وعندما يصفو الجو ، وتنظر للخارج من نافذة السيارة ، فلا تدرك العين نهاية ، وتعلم كم ترتفع عن مستوى سطح البحر ، فالسيارة التي تنحرف عن الطريق وتسقط ، فعليها السلام وعلى مَن بداخلها الرحمة ، أدرك لماذا دونوا أسماء المسافرين قبل التحرك من العاصمة ، عرف أنهم لن يبحثوا عن أجساد لأشخاص ، ولكنهم سيكتفون بإرسال برقيات تعازٍ بأسماء المفقودين فحسب .

ابتسم ابتسامة لا تخلو من مرارة ، ولكن الجديد دائماً حافز ودافع للأفضل ، أهل البلاد بأجسامهم النحيلة يقودون سياراتهم بحذق ومهارة فائقين ، الأنفاس تتلاحق مع الدوران ، وكثيرون يغلقون أعينهم وتتمتم شفاههم بالشهادة ، وآخرون يتصنعون النوم ، والسائق بحديثه اللبق وسرعة بديهته يلاحظ ما تردى فيه بعضهم ، فيكسر حاجز الصمت بالحديث ... يهدأ تارة ويعود ، وكأنه يتعمد استثارتهم ... يضحك ثم يواصل الحديث ، ويلومهم على خوفهم .

يسوقون الأسباب تباعاً بأنها المرة الأولى التي يشاهدون فيها هذه الارتفاعات والجبال ، يعاتبهم ثانية ويصفهم بخلفاء عبد الناصر والثورة ... كيف يخافون ؟ أشاد بمصر ... وكان سعيداً وهو يتحدث معهم ، ويتذكر أيامه الأولى ، وخطابات ناصر التي كانت تهز القلوب ، وتفجر الطاقات ، وأغاني عبد الحليم الوطنية ، وتأميم قناة السويس ، والسد العالي ، ومنظمات الشباب ، أُعْجِبَ السَّائِقُ بحديثه ، وردَّدَ كثيراً :

– حيَّاك الله يا أستاذ ، حيَّاك الله ...

كلما سمعها ازداد وهج حديثه ، فتشجَّع وأزال حواجز الغربة من نفوس القادمين ، وشجعتهم أيضاً مهارة السائق ، وافتتانه بمصر ، وما لبث أن دار بحديثه إلى "كامب ديفيد" ، وصاغ عبارات غريبة وجارحة عن الخيانة والعمالة ... استوقفه :

– يا أخي لا تخلط الأوراق ببعضها ... إننا مصريون .

– حيَّاكَ اللهُ يا أستاذ ... ظننتك ناصرياً .

– يا أخي في بلادنا كثيرون يعشقون "جمال عبد الناصر" ، وآخرون يحبون سلفه ، وكلاهما إنسان وليس برسول من قِبَل رب العالمين .

كانت هذه هي البداية ، فانبسطت الأرض من جديد ، وزادت سرعة السيارة ، ثم توقَّف السائق في منعطف قريب من الطريق ، اشترى بضع لفات من نبات أخضر ، دفع فيها ما يقارب من الخمسين جنيهاً مصرياً .

– ما هذا ؟

– قات .

– ما زلتم ؟!!

– إنه تراث يا أخي ... واسترسل في الضحك ، وواصل ... خذ قليلاً منه ، وتجوَّل في دنيا الله الواسعة ، وما أحوجنا للتجوال ... بادله الضحك .

– أي تراث ؟ ... هل سد مأرب ؟ ... أم بقايا عرش بلقيس ؟ ... أم حضارة حمير ؟ ... لا تتجول في دنيا الله ، وعقلك شارد حتى تدرك عظمة الله .

– حيَّاكَ اللهُ ... كلامك وحديثك يمسان القلب .

بطبيعتهم العربية عندما يشعرون بأن محدثهم قريب منهم ، يفصحون عما يدور في جوانبهم بلا تخوف وبلا أكاذيب ، فأخذ السائق يصف حال

البلاد قبل الثورة ، ورغم أنه لا يجيد القراءة والكتابة ، إلا إنه ابتسم ، وقال إن الزبيري شاعرنا الكبير وصف حالنا فقال :

مَا لِلْيَمَانِيِينَ فِي كَلِمَاتِهِم بُؤس وَفِي نَظرَاتِهِم آلامُ
وَالنَّاسُ بَيْنَ مُكَبَّلٍ فِي رِجْلِهِ قَيْدٌ وَفِي فَمِهِ البَلِيغِ لِجَامُ
جَهْلٌ وَأَمْرَاضٌ وَظُلْمٌ فَادِحٌ وَمَجَاعَة وَمَخَافَة وَإِمَامُ

وزاد في الحديث ، وهو يضحك ويصف كيف كانت تمضي بهم الأيام ، وكيف استُعبِدُوا وركعوا وسجدوا ، رغم أنهم كانوا يدركون ما هم فيه ... وصف كيف جاءت الأخبار من الإمام بأن كبير ملائكة الجن مات ، وعلينا أن نشاركهم أحزانهم ، فأمر الناس أن يدهنوا وجوههم بالقار ، وقد كان ... نفى حديثه من اللحظة الأولى بفكرة الغربة ، واستشعر بأن البلاد بلاده ، وليس غريباً عليهم ، حتى مجالس القات ساعة العصاري في القاعات الفسيحة ، وعلى الأرائك والسجاجيد والجلسات العربية على الأرض ، طلبوا منه أن يخزن معهم القات وأن يشاركهم ، ولكنه اعتذر فلم تهفُ نفسه لذلك ، واكتفى بالمشاركة في التدخين وتناول المشروب الغازي ، وشاركهم في أفراحهم وأحزانهم .

***

وقف أمامه متوتر الأعصاب ، يتكلم وشفتاه يابستان ومرتعشتان ، وأطرافه تهتز بصورة غريبة ، حاول تهدئته ، فأشعل سيجارة ، ومدَّها إليه ، فأخذها منه ولم يبدِ شكراً ، استطاع أن يعرف ما يطلبه منه ... الشهادة فحسب بما سمعه ، وأن لا يكتم شهادته ، ماذا يفعل ؟ هل يدَّعِي أنه لم يسمع شيئاً ، ويريح نفسه من عناء الشهادة وغير ذلك ؟ أم يتحدث والجميع حذروه من مغبة التورط في أحاديث مع عروسة المولد التي تحرسها عناية خاصة من أولي الأمر في التربية والتعليم .

كان التحذير واضحاً جلياً من مسئول الأمن بالمدرسة ، فهو ممن يزحفون على بطونهم إرضاءً لخواطر السادة الكبار ، عندما سأل عن دور مدير المدرسة فيما يحدث ، وكيف يسكت عما يدور ، ولماذا لا يجازي المخطئ أيَّاً كانت مكانته أو المقصر في العمل ، همسوا في أذنه أن السيد المدير لا يخضع في ترقياته للتربية والتعليم ، وإنما للجهات الأمنية التي تختار وفق رؤى معينة ، ولأي عائلة ينتمي ، وأسرته ، ودورها في تأصيل الأفكار الحديثة الخاصة بالحكم والحكومة والحزب وأنصاره ، عرف أخيراً أنَّ كلَّ مَن يتقلدون المناصب العليا في العملية التعليمية يدينون بالولاء للأمن والحكومة والحزب ، ومَن دون ذلك معروف مصيره أيَّاً كان ، ويحمد الله على النعمة ... يتمنى أن يتحدث ، لكن لمَن ؟ وكيف ؟ وما السبيل إلى ذلك ؟

ولكن ذلك ليس جديداً عليه ... كان مثل السلحفاة ، يخرج رأسه الرخوة للحظة ، ولا يلبث أن يعود مسرعاً تحت الحجر الصلب محتمياً ، وهذه هي طبيعته ، ثم يقول إنها عادات وتقاليد درجَ عليها ، ولا مفر ، وكما يقولون : "الباب اللي يجيلك منه الريح ، سده واستريح" ، فما يسمعه ، وما تنقله الأجواء حوله مجرد ريح تزكم الأنوف ، والحل الأفضل أن يدس رأسه تحت واقيه الحجري السلحفي ، مجرد أن يتذكر أولاده وبيته ، فتسقط كل الأفكار والواجبات والحقوق ، ويحمد الله على ما جاد به عليه ؛ لذا يجب عليه أن يبعد شمعته عن مسار الريح .

تلقَّى دعوة مدير المدرسة له بالحضور للمكتب بخوف ، وجد عدداً ليس بالقليل من الزملاء جالسين ، منهم ثلاثة ممن كانوا معه بالحجرة أوان المشادة التي حدثت بسبب عروس المولد ... كانت عروسة المولد تجلس بجوار مكتب المدير واضعة ساقاً فوق أخرى ، وتلوك لبانتها

كعادتها ، والزميل إياه في الناحية الثانية من المكتب ، أما مسئول الأمن ، فقد جلس بجوار عروسة المولد ، رغم أن مسئول الأمن بالمدرسة كان يعمل مدرساً لمادة من المواد الأساسية ، إلا إنه لم ينجح في عمله ، وهذا ما أكده كل تلاميذه ، وتناقله الزملاء ، إلا إنه لم يكن حتى يكلف نفسه عناء العمل بالمجموعات المدرسية التي تنظمها المدرسة عنوة ويلتحق بها التلاميذ قسراً ، بل كان يقوم بتوزيع هذه الحصص على الزملاء بدلاً منه ، وهو الذي يقبض في نهاية الشهر ، ومَن يرفض فلينتظر الغد الأسود .

فاض الجميع بالحديث ، وكان أكثرهم مسئول الأمن الذي أخذ يسرد مآثرها ، وملامح شخصيتها ، وكيف خدمت المدرسة في نواحٍ شتى ، فلم ينسَ أن يشير للمركز الذي حصلت عليه المدرسة في الأنشطة المدرسية المصاحبة التي لا يعرف عنها الأشخاص الجالسون شيئاً ، فقد كانت تتم في الخفاء ، وكان يقبض من ورائها أغلب العاملين بالمدرسة ... أقسم المدير بأن عروسة المولد يُشهد لها بكل ما هو جميل وطيب ، وكثيراً ما سارعت في الخير لأي زميل ، كاد ينفجر من الغيظ ، ولكنه احتمى بالدرع الحجري الواقي ، كان أكبرهم سناً بعد المدير لا يعول سوى هم واحدٍ فقط ، وهو إن طالبوه بالشهادة ، أو إن تحدَّث بما سمع ، ماذا يفعل لحظتها ؟ ... فمنهم مَن يناديه بلقب عمي ...

خرج أحد الحضور عن صمته ، وأكَّد أن الأستاذ مخطئ ، فكيف لأستاذ أن يرد على زميلة فاضلة ، وكيف يتطاول عليها ، واهتزت رءوس بعضهم مؤيدة ما ذهب إليه وما قاله ، هو في مأزق حقيقي ، فكيف الخروج منه الآن ، استأذنهم في الكلمة ، وبصورة هادئة طلب من الجميع التريث والهدوء ، لم تخرج كلماته عن المألوف الذي اعتادوه منه ، فكانت

كلماته هادئة رصينة ، واسترشد بآيات من القرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ ، ثم استدعى العامل ، وطلب منه شراباً مثلجاً للجميع على حسابه الخاص ؛ آملاً أن يرفع الله الكرب ، وأن يُترك الموضوع للغد ، أو ما بعد الغد ، لكن مسئول الأمن كعادته طلب طرق الموضوع وهو ساخن ، فابتسم وردَّ عليه بأن أفضل الحلول دائماً تأتي بعيداً عن التوتر ، وأخذ يسوق الأسباب تباعاً .

وجدت كلماته استحساناً من الجميع ، فطلب المدير شرب المشروبات المطلوبة ، على أن تُعقد بعد الغد جلسة هادئة أيضاً ، وتكون طلباتها علي حسابه أيضاً ، فوافق مبتسماً بلا تردد .

اقترب منها ، وبصوت يقترب من الهمس حاول أن يلقي موعظة عليها ، متخذاً من معرفتة بحقيقة الأنساب في البلد ولمَن تنتمي ، تتابعت كلماته الكاذبة ترفع من شأنها وأسرتها ، لم ينسَ بين طيَّات حديثه أن يشير بنوعية الرائحة التي تتعطر بها ، هدأت حدة كلماتها وبادلته الابتسامة ، وأسرفت في ذكر بعض ذكريات الأسرة ، وبعض مقتطفات حياتها ، وهو يصغي جيداً ، ويؤكد صدق الحديث ، وما لبثت أن تحولت لحياتها ، ومصاريف الأولاد ، والمدارس الخاصة ، وسيارتها ، وأزمة الخادمات ، ومعاناتها في المنزل مع الأولاد ، أما العطور المستخدمة فإنها كلها من خارج الحدود ... صناعة فرنسية لا تشوبها شائبة ، اخترق حاجز صمتها ، فانطلقت قائلةً :

– أظنها المرة الأولى التي أتحدث فيها إليك .

– لن تكون الأخيرة .

– أتمنى من كل قلبي .

اهتزت جدران الحجرة لضحكةٍ طروب ، تمنى ألا ينهي حديثه ، وضعت ساقاً فوق أخرى ، بينما أشعل هو سيجارته ، بعد أن لفظت سيجارته السابقة أنفاسها بين أنامله .

– أنت تدخن كثيراً ... همَّ أن يدخل في حديث مقارن بين المرأة والسيجارة ، ولكنه وأد كلماته ، وكل ما كان سيتبعها ... ابتسم ...

أحياناً ... عربد شيطانه وهو يتأملها بوجهها البللوري الصافي الذي رسمت ملامحه يد خبيرة باستخدام أدوات الزينة ، بمخارج ألفاظها ... بإشعاعات تخرج من أسنانها ، وكأنه يسأل نفسه هل هي التي أطلقت سيل الألفاظ الجارحة بالأمس ؟ فهي التي تقطر كلماتها شفافية ، وكأنها همسات ليلية فوق صفحة مياه لبحيرة ساكنة ، التي تشنف الآذان ، وتستقطب الحواس ، وتفيض بأريج عطرها على مَن حولها ، إنسانة أخرى ... ليست هي ... فمستحيل أن يتواجد المتناقضان في صورة واحدة ، عاد بالحديث لمجراه بعد أن استطاع أن يجذب انتباهها لعلو شأنها ، وبعد أن غلف كلماتها بالكذب المباح ، وهو يدرك الثلاثية التي يتوجب فيها الكذب ، وهي امرأة ... نعم ، ولكنها ليست زوجته – ليتها كانت – ، فوصف لها أفلاطون أكبر فلاسفة الدنيا كيف كان يتراجع عن آرائه أحياناً ، بل إنه تراجع عن مبادئ اعتقد أنها صحيحة في بداية حياته ، وبعدها تراجع عنها ، فليس عيباً أن نتراجع ونعفو ونصفح ، رغم إعجابها بكلماته وحديثه إلا إنها استوقفته :

– هل سمعت ما قاله ؟ ... قالتها بهمس يستجدي المؤازرة ، ووقعت في أذنه وكأنها رضخت لرؤيته وأفكاره ، فخرجت الرأس الرخوة من أسفل الحجر .

– أكون كاذباً لو قلت إنني لم أسمع شيئاً ... فقد كان صوتك عالياً وكان سبابك ظاهراً ... لم يستكمل باقي جملته ، فقد تلونت بلون جديد في الكلمات ... في النظرات ، ودقت بيدها المنضدة التي بينهما ، وهبت واقفة وهي تعلن عن خطئها في الجلوس إليه ، ومضت .

في جلستهم المعتادة في حجرة المدرسين ... سألوه عما حدث فابتسم ودعا لها وللجميع بالهداية منهياً حديثه بدعاء : "اللهمَّ قني شر نفسي" .

انفرج الباب بقوة ، حاول أحدهم أن يدعوها للدخول ... أبت ، بعينين تطلقان الشرر ، وإصبع يدها المرفوع والمشير إليه دون سواه ، هددته بأنه سيدفع ثمن تطاوله عليها ، بين ذهول الجميع صنع ابتسامة وذهبت .

– يا أستاذنا حذرناك ... استعد وخد وعدك .

– ليكن ... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

– قلنا لك عروسة حلاوة وراكبه حصان وفي إيده سيف .

– إن شاء الله تركب طيارة .

– هتركب فوق رأسك بلاوي متلتلة .

– مستحيل تحرك شعرة من رأسي .

– اعقل ... حاول تعتذر .

– يسخطوك يا قرد ... هيعملوك مدرس .

انفجروا في الضحك ، ومد أحدهم يده بكوب الشاي .

– يا خوفي تكون الأخيرة يا بدران .

عادوا للضحك وتبادلوا القفشات ، ورغم أنه أكبرهم سناً ، فإنه كان دائماً يصنع من كلماته عقداً فريداً يبهج السامعين ، لم يكملوا حديثهم المرح حتى دخل عليهم معلناً أنه على أتم استعداد للاعتذار للأخت

الفاضلة ؛ نظراً لتطاوله عليها ، ووافق السيد المدير على أن يكون هذا في اجتماع الجمعية العمومية للمدرسة ، يعني أمام كل السادة المدرسين ، قدم اعتذاره له ، وفي عينيه دموع ، وهو يدعو له ألا يصيبه مكروه بسببه ، وكأنه فر خارجاً من الحجرة وسط ذهولهم جميعاً .

عمهم الصمت ، فلم يقطعه أي منهم ، قضوا باقي يومهم في صمت حتى انصرف كلٌّ منهم لمنزله ، أسئلة كثيرة طرحها على نفسه لم يحظ بإجابة واحدة ترضي ... كيف يقف أمام التلاميذ ؟ ماذا يعلمهم ؟ أي كرامة يحسها وهو يرفع رأسه وعيناه ناحية علم الجمهورية في الصباح ، وهو يقف محيياً ... يطلب من التلاميذ ، وكأنهم في الصلاة أثناء تحية العلم .

فالعلم مجرد رمز ... عندما حاول تلميذ أن يخرج عن المعتاد ، وأن يقول أننا بهذه التحية كعبدة الأصنام ، يومها وفي كلمات هادئة ، وكان في مستهل حياته العملية قد صال وجال بحديث الحجر الأسود أو الأسعد كما نطلق عليه ، ونسارع في تقبيله ، ونعلم أنه حجر ، ونتذكر كلمة الفاروق عمر بن الخطاب –رضي الله عنه وأرضاه– وهو يقول : "والله لولا أنني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ، وإنني لأعلم أنك حجر" ، ترحم على أساتذة العصر السابق .

قبيل بداية الحصة الأولى استدعاه المدير ، وسلمه طلب المثول بين يدي السيد المبجل مسئول أمن الدولة ، لم يعر الموضوع اهتماماً ، ومضى لحجرة المدرسين ، فوجد أغلب الوجوه وكأنها تعلم ما حدث ، حاول أن يبدو أمامهم أنه متماسك وقوي ، لكن ما انعكس على وجوههم أطاح بأي ثقةٍ حاولَ أن يتمسك بها ، وفي منتصف الحصة الأولى ... رغم الصمت المطبق على جلستهم ، قطع صمتهم ، وهو يرشف الشاي

بصوت مسموع ، ويطلق دخان سيجارته ، وكأنه يريد أن يصنع ساتراً من الضباب ليحول به دون قراءة الزملاء لملامح وجهه .

تعلمون بعد أن خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية مهزومة ومقهورة ، واستسلامها المادي ، فإنها لم تسقط معنوياً ، وكانت البداية على يد المعلم ، فأطلقت العنان له ، وامتلك من الصلاحيات الكثير ، وكانت النتيجة الطبيعية تقدم ورقي يفوق الوصف ، يحاول أن يجعل من كلماته هادياً ومهدئاً لنفسه ، وأن يلقي في نفوس الزملاء أنه لا يأبه بما حدث ، ولكن حروف كلماته تتعثر في المخارج ، فتفضح معاناته ، لقد تنازل الزميل واعتذر لعروسة المولد ، فيا ترى لماذا الدعوة ... تهديد وإثبات قدراتها وإمكانياتها ... هل صاغت تهمة معينة له ؟ ... لقد هددت أمام الجميع ، جميعهم في كلماتهم دعوة له بالرضوخ لما يقولون ، والاعتذار عما كان ، كلمات غير مباشرة احتراماً لسنه وقيمته ، فحاول إلقاء الطمأنينة إلى قلوبهم .

تناقشوا بصورة غير مباشرة عن كيفية إلصاق التهم بالضحايا إن عزفوا عن الموافقة بما يقولون ، واستعرض أحدهم مسيرة فتى صغير لا يتعدى الثامنة عشرة من العمر ، وكان أبوه قد كتب مقالاً عن ظلم وقع عليه ، وأرسله لجريدة ، فنشرته ... وبعد أسبوع ذهب الولد ؛ ليؤدي صلاة الفجر ، وحتى اليوم لم يعد للمنزل ، واليوم قد مرَّ شهران ، ولا يعلم أحد حتى اليوم ، أين ذهب ، أو متى يعود ، ولم يترك أبوه مكاناً إلا ذهب إليه ، ووصل لحد استعانته بالمشعوذين والسحرة ، علَّه يدرك مكانه ...

ارتعشت أطرافه ، وانقبض صدره ، وهامت به التخوفات ، فلم يضع في حسبانه أن يدخل الأبناء في تلك اللعبة ، استعاذ بالله من الشيطان ،

وصمم أن ينطلق من فوره للمقابلة ، فقد تسرب الخوف حتى وصل كل أنحاء جسده ، لم يعرض أحدهما مجرد التحرك معه ولو حتى باب المدرسة .

في حجرة لا تتعدى ثلاثة في أربعة أمتار ، وأثاث بالٍ ، وصمت مقيم ، طالت جلسته ، وحلقت خفافيش الظلمة في عتمة ليل فكره ، حاول أن يجد الملاذ في ترديد آيات القرآن ، همس كثيراً ، لم تطاوعه ذاكرته ، وعاد من جديد ... رغم أنه يحفظ هذه الآيات عن ظهر قلب ، هل هرب عنه عقله ؟ أم جف حلقه ؟ أم ضاعت معالم الكلمات ؟ ملايين الأفكار الضبابية تسطر حكايات فوق عقله ، ولا يستوعبها ، ولا يدرك معانيها ، أكثر من ساعتين بعد أن أخذ منها اسمه وعنوانه ، ساعتان بما يعادل عمراً بأكمله بالنسبة له ، فلم يتعرض طوال عمره لتلك الجلسة التي تتفتح فيها كل مسام الجسد ، ورغم موسم الشتاء ... إلا كل الأجزاء أفرغت بعضاً من مائها ، والفضل يرجع للملابس القطنية الكثيرة التي ارتداها ، فلم تخرج خارج نطاقها ، ولكنه يشعر بها .

كان يتمنى أن يذهب لدورة المياه ، هل يصرح بذلك أم لا ؟ حبس حاجته ، واحتبست أنفاسه لوقع خطوات الجندي الذي أمسك بيده بعد أن عصب عينيه ، تمنى أن يسأله لماذا ، ولكن لم تخرج الكلمات ، استسلم للقيادة ... أين تلك الروح المرحة التي كانت تأتيه في أصعب ساعات الحياة ؟ ... لماذا نسي غمامة الحمار ، أو الحيوان الذي يعمل في الساقية ؟ ... الفلاحون يخافون على الحمار أن يصاب بالدوار ، فيستسلم ويمضي في طريق واحد ، وهنا لماذا ... هل يخافون عليه أن يرى شيئاً ؟ ربما يذهب بما تبقى له من رجولة ، فيذهب خلفه الذي ذهب ، أو حلقة من الحلقات المتتالية التي تذهب بما تبقى .

سمع صراخاً فكاد يسقط من يد قائده ، اعتذر لتعثر ساقيه ، واستبعد أن يتولى أحدهم تأديبه ... لماذا لم أفعل شيئاً ... تريث لترى النهاية ... صوت كلاب تنبح وتزمجر ... صفعات وآهات وصرخات ... ربما يتعمدون تعصيب عينيه ، ويتركون الحرية لأذنيه لكي تستمع إلى كل شيء ، هل هي تسجيلات صوتية لألقاء الرعب ؟ أعتقد ذلك ، فمستحيل أن يصل الجرم بالإنسان أن يعذب آخر بهذه الصورة ، ولأي فعل ، تحية قوية وقدم ثقيلة بحذاء عسكري ، كادت أن تسقطه أرضاً ، فدفعه باليد الثانية التي يقبض بها الجندي ، تحركت وفقاً ليده الثانية ، فجذبته لحيز الواقع بقوة ، تماسك وترك الجندي ذراعه ، لكنه يحس بأنفاسه قريبة منه ، رفع عن عينيه رباطها ، وانزاحت الغمامة السوداء شيئاً فشيئاً ، ودعك عينيه حتى تعود لسابق عهدها .

نظر إليه ، وبدأت الصورة تتضح رويداً رويداً ، وهو يهتز في كرسيه الوثير ، ويلعب بين أنامله بقلم ، تفحصه بنظرة ثاقبة ، وما لبث أن سحب بطاقته الشخصية من فوق المكتب ، وتأملها ، وأعاد النظر إليه ثانية ...

– بطاقتك .

– نعم ... يا أفندم .

– أنت مدرس ؟

– نعم .

– أبو زيد الهلالي سلامة جنابك ؟ ... ولا ابن بارم ديله ؟

– لا ... لا .

– مصلح زمانه شد ركبه .

تردد ، وبدا على وجهه أنه لم يدرك المطلوب ، فعاد يقول :

– مصطلح جديد لم تسمع به .
– يا باشا ... رفع يده مطالباً إياه بالصمت ، فلزمه .
– مدرس ... بتعلم الأولاد قلة الأدب !
– أرجوك ...
– ترجوني إيه ... فيه أستاذ يعاكس زميلة له في المدرسة ؟
– أنا ... علامات الذهول بادية جلية .
– نعم ... عيوننا لا تكذب .
– م ... م ... مين قال ؟
– هندخل في موال مأمأة ... ونقسم ونحلف وأنا ...
– أرجوك يا باشا ... أنا راجل ، ولي أسرتي وأولادي ، ومدرس ، وهذا الكلام لا شيننني أنا فقط ... أرجوك .
– مشين ... بتعمله ليه ؟ ... ارتفعت نبرة صوته .
– مستحيل ... مين قال ؟ ... لم يكمل عبارته .
– لا تسأل ... أنا فقط أسألك .
– سيدي ، هل هناك شكوى رسمية ؟
– رسمية ... رسمية تبقى ...

سيل جارف من الكلمات التي يعف اللسان عن ذكرها ، ومنذ أمد طال لم يسمعها ، وعاد للحديث من جديد مهدداً ومتوعداً إياه بأن أي خطأ مستقبلاً سيكون مصيبة يتحملها بنفسه ... وبإشارة من يده تقدم الجندي وعصب عينيه ، وقاده بعد أن استلم بطاقته الشخصية .

مضى والبطاقة بين أصابع يده الثانية ، وتذكر كلمات الشاعر صلاح عبد الصبور في إحدى مسرحياته :

في بلد لا يحكم فيه القانون ...

يمضي فيه الناس إلى السجن بمحض الصدفة ...

آه ... كم يتمنى أن يصرخ ، أن يبكي ... هل وصل البغي بالإنسان أن ينصب نفسه مكان الله ، والعياذ بالله ... لا ... لا ... ليست بهذه الصورة ، "نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم" أظنه التعبير الأفضل ، وهو ما يحمله المعنى ... فراعين صغيرة تتنامى ، أم مهووسون بكراسي السلطة ؟ أم نسوا أنهم بشر ؟!

***

حاول أن يبدو كما اعتادوه ، ولكن كم قالوا ... الصب تفضحه عيونه ... بدا جيداً أنه ليس في حالته الطبيعية ، وكما اعتاد البشر في بلادنا مواساة المهموم بالجلوس في سرادقات العزاء صامتين ... ربما قال بعضهم : "للجدران آذان" ، فالصمت من ذهب ، استدعاه المدير ، وسلمه طلب حضور للشئون القانونية ، وطلب آخر مقابلة السيد مدير عام التربية والتعليم ، لم يهتم كثيراً ، فقد أصابه برود غريب واستسلام مبرر ، فما زالت كلمات الفرعون الصغير ترن في أذنيه .

وفي الليلة السابقة ذهب النوم عن عينيه ، وتصنع حاجته للقراءة ، وكما هو معتاد ومعروف عنه يمكنه أن يجلس للصباح أمام كتاب حتى ينهيه ، في الحجرة الخاصة بالمدرسين لا يوجد سواه ، فماذا يفعل ؟ استرعى انتباهه خطاب مكتوب باسمه ... خاص بالأستاذ الفاضل رأفت عبد الدايم ... فضَّ الخطاب ، وجده مكتوباً على آلة كاتبة ، كما العنوان أيضاً ، مقدمة طيبة ، وتحيات خاصة ، وإشارة له أن يحاول التقرب من الشيخ فتحي السني الملتحي ، وهو معروف في مديرية التربية والتعليم ، وأنه رجل أمن الدولة القوي ؛ ليفك له سحرهم ، وكل شيء بثمنه .

كم أشار عليه أن طلب من وكيل الوزارة النقل لمدرسة أخرى ، فلا يعول لذلك الأمر ، ولا يضيق به ، فكلها مدارس بلا عمل ، ولا تفرق بين مكان وآخر ، كان ملخص المكتوب هو الثناء عليه وعلى سلوكياته ، وكأنه عرف ما حدث معه ، وفي نهاية الخطاب يطالبه أن يحرق الخطاب بعد أن يقرأه ، فيشعل سيجارته ، ويسلم الخطاب للنيران أيضاً ، وكأنه يرى كل الزملاء يختبئون وينظرون ما فعلوا ، جاءوا واجتمعوا وشربوا الشاي ، واستأذنهم للذهاب للمديرية في كلمات مقتضبة ، وبأسلوب مبالغ فيه مدحه بكلمات وطلب منه بصورة بهدوء أن يتقدم بطلب نقل من مدرسته ، فاهتزت رأسه بالإيجاب .

وفي الشئون القانونية لم يستغرق من الوقت سوى بضع كلمات بأن هناك خطاب من السيد المدير ، والسيد مسئول الأمن يتهمانه بعدم التعاون مع إدارة المدرسة ، وتقدم بالطلب الخاص بالنقل ، فابتسم المحقق وأثنى عليه ، التزم الجميع الصمت ، واكتفوا بشرب الشاي ، والحديث عن المسلسلات التلفزيونية ، ومباريات كرة القدم ، وأجور اللاعبين والفنانين ، وأسعار اللحوم والخضار والفاكهة ، يخافون ويتماسكون وتظهر على وجوههم بوادر تذمر ، كثيرون يسرعون لتلبية أوامر المدير ، أو القيام بحصص مسئول الأمن ، وقليلون يجيدون حفظ النكات ليصبوها في آذان أصحاب الشأن ، فيضحكون ويضحكون ، وأقل القليل لهم نهج لم يغيروه ، وهم لا يستمرون أكثر من أسبوع ويعاد ترحيلهم من جديد لسجونهم أو معتقلاتهم ، ولكنهم غير متذمرين أو غاضبين ، من أكثرنا عشقا لبلده ... من أكثرنا دفاعاً ، ومَن دفع من عمره ، ومَن استشهد ، ومَن ذهب ولم يعد ، ومَن يعملون في صمت ومَن ومَن ...

ويسأل نفسه ماذا قدمت ؟ تخرجت ، وبعد عام ونصف فقط أسرعت وظفرت بعقد عمل بدأته باليمن السعيد ، ولم تستمر كثيراً حتى عثرت على عقد أفضل ، وبقيمة أكبر في سلطنة عمان ، وتكسبت أنت وأسرتك ... ماذا قدمت لبلدك ؟

***

في اليمن ، وقبيل نهاية العام الدراسي بأيام ، تساقطت الأمطار بشدة ، وازدهرت الجبال ، وتناثرت في السهول الزهور البرية الربانية ، وأشرقت الشمس ، وتوافد طلاب المدرسة من كل بقاع المدينة والقرى المجاورة ، فالمدرسة هي المدرسة الوحيدة الثانوية بالمنطقة ، كثير من طلابها يقاربونه سناً ، وكثيرون أحبوه واحترموه ، وقد كان سعيداً بأيامه بينهم .

انتظم الطلاب في الطابور الصباحي كعادتهم ، وهذا اليوم هو يوم الاثنين ... ومعتاد أن يأتي أحد الأئمة حديث الصباح ، توقف الأساتذة مصريون ويمنيون وسوريون وتونسيون وسودانيون خلف فصولهم ، أقبل الشيخ على الحديث بلهجة مصرية جميلة ، شكر الله ، وأثنى على رسوله الكريم ﷺ ، وهز حديثه الوقوف جميعاً ، وفجأة تحوّل بحديثه لجهة مغايرة تماماً عما ابتدأ به ، انطلقت كلماته متشنجة معلنة التذمر والضيق والمعاناة على وضع تتردى فيه مصر ، فخصوم الإسلام وخصوم القومية العربية يسيطرون على الإعلام والثقافة ، وضرب مثلاً على ذلك بـ "نجيب محفوظ" ، ووصفه بأنه خارج عن الإسلام ، وطه حسين من قبل ، وخاض في أسماء كثيرة ، ارتعش جسد رأفت عبد الدايم ، واهتز ، وهاله ما يسمع وما يرى ، ونظر لوجوه المصريين ، فوجدها كلها متذمرة مناهضة لما يسرف فيه الشيخ ، ذهب بحديثه لكامب ديفيد ... الخيانة ،

والعمالة ، وهبط بالسباب على هؤلاء المصريين المستسلمين القانعين بحكمهم .

لم يدر بنفسه فتقدم مسرعاً ، هو ممنوع أن يخوض في الأحاديث السياسية وفق ما نص عليه العقد الذي يعمل به ، فهذه أساسيات التعاقدات ، لم يدر ماذا يفعل ؟ أسرع فقطع سلك ميكرفون الإذاعة المدرسية ، وأسرع المصريون خلفه ، حاول أن يتحدث للشيخ ، فكبله زملاؤه بأيديهم وأبعدوه ، فقد ظنوا أنه مقدم على فعل ربما يسبب له مشاكل كبيرة ، وظنوا أن يده ستمتد إلى الشيخ بالأذى ، ومن الصعب عليه أن يرفع يده في وجه رجل دين ، ولكن يأبى أن يلطخ اسم بلده بتلك الصورة المشينة التي تحدث بها الشيخ ، اهتزت المدرسة ، وانشطر الطلاب جانبين ... حانق ومشجع ... حاول أن يتحدث ، ولكن ضاعت كلماته ، وسمع إهانته من الشيخ :

"أنت كلب مثلهم ، وتستحق الشنق" ، سحبوه عنوة ، حاول الشيخ أن يكمل حديثه ، ولكن مدير المدرسة أبى ورفض بشدة ، اعوجت الصفوف ، واختلطت ، وخرج الشيخ من المدرسة وهو يلعنه ، طلب المدير إصلاح سلك الإذاعة ، وانتظام الطلاب في صفوفهم ، وأمام الميكرفون تحدث قائلاً :

أيها الأبناء ... كلنا ندين بالفضل للمدرس المصري ، وأنا لا أغفل دور كل الإخوة المدرسين من مختلف البلاد العربية ، فلهم منا كل الشكر والعرفان بالجميل ، ثورتنا المباركة التي قضت على الظلم والفساد ، سالت دماء المصريين ، واختلطت بدماء شهدائنا ، هل يستطيع أي منا نكران الحقيقة ؟ فالحقيقة كالشمس تذهب بالظلمة ، ربما نختلف ، أو تختلف الآراء السياسية لبلادنا ، لكننا عرب ومسلمون ، ودائماً لا تدوم

الخلافات بين الإخوة ، ونعود وكلنا نسجد للواحد القهار لقبلة واحدة ولرب واحد ، قال الشاعر :

بِلادِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيْزَة وَأَهْلِي وَإِنْ ضَنّوا عَلَيَّ كِرَام

طوال عمرنا نحترم إخواننا في مصر العروبة ، واليوم كدت أن أكون في غاية الألم لو صمتوا ... إنني ومن هذا المكان ، أحيي هذا الأستاذ ، وكل زملائه ، وأرفض المساس بسمعة مصر ، أقولها وأكون صادقاً إن لم يتحرك الأستاذ ، لتحركت أنا ومنعت شيخنا الفاضل وللأسف المصري الجنسية ، فهل منكم مَن يقبل أن تهان بلده وموطنه وأهله وعشيرته بهذه الصورة ... تذكر تلك الأيام ، فتسللت نشوة غريبة إلى جسده ، فأحس بالطمأنينة ، وذهب الخوف ، وهبط الودق فأغدق ، كانت يتذكر كيف تجمعوا حوله ، وكان للشيخ مريدوه ، فأوقفوه عن العمل ، ولكن وقف كل مدرسي المدرسة بجانبه ، وعلى رأسهم المدير ، أقسموا أن يجمعوا بدلاً من الراتب الواحد عشرة رواتب ، الجميع من مختلف البلاد العربية آزروه ، وهو لا يستطيع أن ينسى اسم الرجل المسئول يومها عن البعثة التعليمية الأزهرية الشيخ الوقور علي نور الدين ، الذي قطع مسافة تزيد عن ثلاثمائة كيلومتر بين المرتفعات والجبال ؛ ليسانده ويقف مجابهاً للشيخ الذي تمادى في غيه ، وأقسم ألا يستمر في العمل هنا .

ذكريات عبقة أثارت شجونه ، ماذا يفعل اليوم في بلده وموطنه ، ماذا يفعل الجميع ؟ فالقضية أكبر منه ، وليست قضية إنسان وقع ظلم عليه ، إنها قضية مجتمع كامل ، في أحلام اليقظة ... يتفنن الإنسان في حل القضايا ، ويصنع بطولات زائفة ، وبمجرد أن يتخلل الضوء الحجرات ، وتدب الحياة في الأحياء ... تتوارى الأحلام وتلزم ليلها .

أودع يد الشيخ فتحي السني مبلغ مائة جنيه ، وشد على يديه ، وبعد أن انتهى من الحديث ، ألقى الطمأنية في صدره ... لم يحصل الشيخ

فتحي على الشهادة الإعدادية ، وعمل مخبراً في الداخلية بالابتدائية ، ودارت الأيام دورتها ، وأصبح هو المسئول من أمن الدولة ، وعينها في التربية والتعليم ، فيستطيع عمل أي شيء ، حتى إن باب وكيل الوزارة مفتوح أمامه في أي لحظة ، وكل العارفين به يلتمسون النجاة فوق طوق الشيخ ، رغم أنه أعطاه المبلغ ، فلم يتوقع أن يتغير شيء ، وإنما لمجرد التأكد مما يحدث حوله ، بعد أسبوعين قابله الشيخ ، وشد على يديه ، ولكن لم يأمل في شيء ، استمر في عمله ، ولكن وفقاً لكلام الشيخ في حاله ... ومازال رغم مرور عام كامل بالمدرسة القريبة من بيته ويذهب في موعد حصته فقط ، ظهرت كرامات الشيخ بعد أن وهبه مائة جنيه كل ثلاثة شهور كما تم الاتفاق .

***

الباشا راكب رأسه

اعتاد أن يترك مجالاً للتلاميذ للحوار والنقاش ، رغم أنه في يوم من الأيام ، دخل عليه موجه المادة ، وكان حديثه عن كلمة المواطنة التي طرحها أحد التلاميذ ، كانت تستهويه ترسيخ الأعمال الجليلة والجميلة ، راح يعرف معنى الكلمة ، نظر الموجه للسبورة ، ووجد العنوان مواكباً لخطة المنهج ، ووفق الخريطة الزمنية المرسلة من الوزارة ، ولكن ما يتحدث فيه ... خارج عن موضوع الدرس ، واصل تفسير الكلمة بعد أن كتبها فوق السبورة ، قال : "مرَّ شيخ كبير مكفوف البصر ، يسأل الناس الصدقة ، بينما الإمام علي –رضي الله عنه– جالساً ، سأل ما هذا ؟ ... قالوا : نصراني ... قال –رضي الله عنه– : "استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه !!! أنفقوا عليه من بيت مال المسلمين" ، يومها كتب معالي الموجه أنه يتحدث خارج نطاق الدروس ، بينما كان يجب عليه الالتزام بالمنهج .

أما موضوع درس ذلك اليوم ، فقد كان عن أديب مصر الحائز على نوبل "نجيب محفوظ" ، ففاض بالحديث عن معنى الأدب وأهميته للشعوب عامة ، وكيف كانت مصر بلد الحضارة الأول ، وفجر ضمير الإنسانية ، والغريب أن بعض التلاميذ أبدوا استياءهم من الكلمة ، وأعلنوا ذلك صراحة ، وذهب بعضهم يتكلم بأن هذا الأديب كافر ، كانت دائماً ابتسامته تسبقه ، فتحدث في هدوء بالغ ، مطالباً الفتى بأن يعيد قراءة ما يقولونه ، ضحك الفتى معلناً أنه لا يستطيع القراءة ، وليس له طول بال لقراءة كتاب كامل ، وأعلن أن هذا ما قالوه ، حاول أن يعرف

الفتى بأن كل مَن يتكلم للأسف لم يقرأ ، ناور مع التلاميذ ، لكنهم بادروا بالسخط على الموضوع ، تحدَّث عن جائزة نوبل ، ولمَن تمنح ، قائلاً :

على سبيل المثال سنة 1963 كان هناك رجل أمريكي أسود اسمه مارتن لوثر كنج ، قاد ثورة ، أو قل تظاهرة لا تقل عن ربع مليون شخص أسود ، وبينهما ما لا يقل عن ستين ألف من البيض ، تعتبر أكبر مظاهرة للحقوق المدنية أمام نصب لينكولن التذكاري ، وخطب في الناس I have a dream ... إني أحلم ... قائلاً يومها بأن أبنائي سيعيشون في شعب لا يكون الحكم على الناس بألوان جلودهم ، ولكن بما تنطوي عليه أخلاقهم ، هذا الرجل نال جائزة نوبل ، فقد كانت دعوته مطالبته بحق المساواة الذي وهبه الله لكل البشر .

ويذخر القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ بهذا الحق ، ضحك التلاميذ ، وقال أحدهم : "النهاردة فيه خيار وفاقوس ... فيه ابن ناس وابن ..." ، لم يكمل حديثه ، وسمع هرجاً ، ومرجاً كبيراً ، وأصواتاً غريبة ، بل وصل الأمر إلى أن إحدى المدرسات صرخت بصوت هز المدرسة كلها ، واختلطت أصوات التلاميذ بأصوات الأبواب التي توصد بقوة ، والمقاعد التي تسقط على الأرض ، وصرخات التلاميذ ، وخروجهم تباعاً من الفصول ، طالبه أحد الزملاء بأن يخرج التلاميذ من الفصل ، لم يدرك ماذا حدث ؟

هل حدث زلزال ؟ أم تصدَّعت المدرسة ، أو أحد جوانبها ، أو جدرانه ، أو حدث شيء لا يدرك أبعاده ؟ قبل أن يعطي إشارته للتلاميذ بالخروج ، قفزوا من فوق التخوت ، وتزاحموا ، وأسرعوا بالخروج ، قال أحدهم ، وهو يلهث مبتعداً : " ... الباشا الكبير حالف يقتل الأستاذ اللي ضرب ابنه ، وبيلف عليه جوه الفصول ، ومعاه مسدس في إيده ..." ، كانت

هذه هي الحقيقة ، فمعالي الباشا عرف أن المدرس ضرب ابنه ، وسبَّ أبيه ، وهو الرجل الأول ، وممثل القانون كيف يهينه مدرساً ، مدير المدرسة يجري خلفه ، فمضى شاهراً مسدسه ، وبحث عن المدرس ، وكان ممسكاً بابنه في اليد الأخرى .

قالوا إنهم هربوا المدرس من الناحية الثانية للمدرسة ، أخيراً لم يجده ، ولم يجد مناصاً من الجلوس بمكتب المدير ، وهو يهدد ويتوعد ويقسم بأغلظ الأيمان بأنه سيلقن هذا النكرة درساً ، لم يكمل التلاميذ يومهم الدراسي ، حتى حضر السيد مدير عام الإدارة بعد أن عرف معالي وكيل الوزارة بالأمر ، وأمره بالتوجه فوراً للمدرسة ، وسيأتي بعدها ، ليقدموا لمعاليه شراب الليمون المثلج ، ويتقدموا إليه باعتذارات متتالية ، معلنين أن المدرس المذكور لا يعلم مَن هو .

وقرر السيد المدير على الملأ أن يعلن أن هذا المدرس ليس له مكان في المدرسة من اليوم ؛ لذا عليه أن يذهب لمدرسة أخرى ، فاهتزت رءوس الجميع بالموافقة بالإجماع ، طبقاً للعادات المتبعة في مجلس الشعب ، ثم سخروا منه ، وخاصة بعد حضور السيد المدير العام شخصياً ، ومن خلفه جوقة الأفاقين والمجاهرين بالسخط والتذمر مما حدث ، فهم يعرفون عن هذا المعلم النكرة –كما يقولون– بأنه لا يضرب تلميذاً ، ولكنه قد يمسك بالعصا في يوم الإشراف على المدرسة حفاظاً على سير اليوم الدراسي ، وقد كان هذا اليوم الأخير الذي يوقع فيه المدرس النكرة في دفتر الحضور والغياب ، وفي اليوم التالي كان في الإدارة ينتظر أن يُنقل إلى مدرسة أخرى .

ضحك التلميذ ، وهو يسأل الأستاذ "ألم أقل لسيادتكم أن هنا خيار وفقوس ؟" .

لملم أفكاره ، وامتص ألمه ، ورفع رأسه ، وبعد أن كتب عنوان الدرس قال : "هل تعلمون مَن هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... دعوة الرسول ﷺ بأن يكرم الله الإسلام بأحد العمرين ، وقد استجاب الله لدعوة رسوله الكريم ، كان جبلة بن الأيهم من كبار ملوك غسان ، اعتنق الإسلام وقدم إلى مكة يعتمر ، ورداؤه خلفه ، وهو يطوف ، فداسه أحد فقراء المسلمين بقدمه ، وهو فزاري ، فاعتدل ، فلطمه على وجهه ، فشكا الرجل لأمير المؤمنين ، فحكم الفاروق بأن يقتص الفقير منه ، فقال جبلة : أنا ملك ، وهو من السوقة ، رد أمير المؤمنين كلنا بشر ، فهدد جبلة بأنه سيرتد ، لم يهتم الفاروق وصمم على قراره ، فطلب جبلة مهلة لثلاثة أيام ، وهرب مرتداً ..." .

تحدث كثيراً عن الواجب والحق ، وكادت أن تطفر من عينيه الدموع ، وداخله ثورة ... ماذا نعلمهم ؟؟؟ لهم كل الحق ألا يصدقوا مدرسة ، ولا إعلام ولا ثقافة ولا عدل .

* * *

حصة انهزامية

– السلام عليكم ... رددوا جميعاً ، وفي صوت واحد :

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

سمح لهم بالجلوس ، ووضع أوراقه ودفاتره فوق المنضدة الخاصة به ، ودار على عقبيه ، ووجهه للسبورة ، فكتب التاريخ ، ووسط السبورة كتب حصة احتياطي ، واستند بيديه على حاجز المقعد الخلفي متوجهاً للتلاميذ بالحديث ، كان المعروف عنه أنه عاشق للتدريس ، ولا يذكر أحد أنه يوماً ما تغيب عن حصة ، أو لم يشرح درساً ما ، بل كان يستجيب لطلبات التلاميذ ، وكان ينتظر أي حصة ليعود فيها لشرح ما يطلبه التلاميذ ، كانت المدرسة الثانوية مشتركة ، والفصل يجمع بين البنين والبنات ، والمدينة صغيرة ، يكاد يعرف أغلب الناس بعضهم ، وقليلون قادمون من بلاد ، أو مدن قريبة ، ولكنها كعادة متفشية في مجتمعاتنا العربية للعائلات دور وللكبراء قيمة ومكانة ... كان يبدو على شكله أنه ليس في حالته الطبيعية ، وعلى غير المعتاد منه جلس على المقعد مبتسماً قائلاً :

– اليوم أنا متعب قليلاً ... سأحاول أن أجيب على ما تسألونه جالساً .

صاح أحد التلاميذ :

– لتكن حصة سياسية ...

لم يجبه ، واكتفى بإشارة على فمه أن يصمت ، وتبعتها إشارة أخرى تحمل معنى الجلوس ، فطلب أحدهم الكلمة ، وكان مشهوداً له بخفة الظل والابتسامة التي لا تفارق وجهه :

– هدف لا يصد ولا يرد ... جون ... لعبة في المقص ، ابتسم وبسرعة .

– في المقص ... يا واد بطل لغة الحلاقين ... ضج الجميع بالضحك ، ومن ضحكاتهم نسي ما يشعر به من تعب ، وأطلق للسانه العنان ، شارحاً أبعاد لعبة السياسة ... فاللغة السياسية أكاذيبها حقائق ، أو تبدو كالحقائق ، والبعض من الساسة يرونها مسلمات ، أي لا تحتاج لبراهين ، ولكنها وفق منظومة وقواعد معينة ... فاللغة السياسية تستطيع أن تمنح الريح مظهراً صلباً ... وأحياناً تستطيع أن تفسر القتل بأنه تصرف أخلاقي سامٍ كما يقولون .

صفَّقَ الأولاد واستحسنوا الكلمات ، وطالبوه بالمزيد ، ولكنه أشار عليهم بأن يغيروا الموضوع ... فقام أحدهم وقال :

– أقسم بالله ما أنا فاهم حاجة ، بس كلام حلو بيدخل على القلب ... هه يا أستاذ ... كلامك شعر ولا مزيكا !!! ... الله الله ...

– كفاية اوعى تكمل يا نصاب ...

وأيده آخر بجمال كلمات الأستاذ وطالب بالمزيد ... أعلن لهم أنها ليست كلماته ، وإنما هو مردد لها ... ومن جديد طالبهم بالابتعاد عن السياسة ... طلب أحدهم الإذن في الحديث .

– لتكن عن الثقافة ... بين همهمة التلاميذ ، وصياحهم وتعارضهم ... صمت ، ورجع برأسه للخلف ، ناظراً للسقف ... حتى عمهم الصمت .

– أي ثقافة يا بني ... لي رجاء يا أبنائي ، يجب أن نعلم جميعاً أن الثقافة سلوك ، فالرجاء إن تحدث أحدنا صمت الآخرون ... أنا موافق على ما تطلبون ، سواء في السياسة ، أو في الثقافة ، وما لا أعرفه سأقول أنني لا أعرفه بلا خجل ، وبشرط ألا نتجاوز حدودنا ، وبدون الخوض في محاذير قد أدفع أنا ثمنها ، فيكفي ما دفعت ... ونظر إليهم متسائلاً ... موافقون ، صاحوا جميعاً وبصوت واحد .

– موافقون ... ضحك بصوت مرتفع مردداً .

– الموافقة بالإجماع ... شكراً للسادة النواب ، لننتقل لجدول الأعمال ... مَن المتحدث ؟ استأذن أحدهم ، فأوما له مستجيباً ، ولكنه لم يسأل ، وإنما تحرك لنهاية الفصل ، وفتح مكتبة صغيرة ، وأخرج منها شاكوشاً حديدياً ، وطرق به مرتين على أحد الأدراج ، وأسرع مسلماً إياه للأستاذ ، معلناً أنها المطرقة لزوم الجلسة ... تسلمها منه وسط ضحكات ... طرق طرقات متتابعة ، وسأل عمن يكون صاحب السؤال ، فارتفعت يد إحدى الطالبات .

– تفضلي سيادة النائبة ... لم يعتد منه طلابه التذمر ، فأقبلوا يتساءلون ويتضاحكون ويتبادلون الحديث وفق قواعده التي أبرمها معهم ، فابتسمت الطالبة بدورها ، وقالت بلا تردد :

– أظن كلمة نائبة هي مفردة لكلمة نوائب ... صفق بيديه .

– اللهمَّ أعنا على نوائب الدهر ... نلغيها من المضبطة ، طبعاً كلكم عارفين معنى المضبطة ... الكلمة اللي نحس فيها خروجاً عن النص نلغيها ، والأفضل أن نقول اتفضلي يا ممثلة الطالبات بالفصل .

– مطلبنا الوحيد أن نتكلم براحتنا في كل حاجة ، وتعاملوننا على أننا كلنا أولادكم .

– مَن منعكم من الكلام ؟ ... مَن فرق بينكم ؟

– إذا وجدت بيننا طالبة والدها من ذوي السلطة والجاه ، وأطلقت علينا شتائمها ، وسبابها ، ولم نستطع أن نردها ، وإن شكوناها لإدارة المدرسة ، فلا تستجيب لنا ، وقد تلقي علينا بالمسئولية ... فنصمت ونخاف ... ما رأيك ؟

– نحمد الله على النعمة ...

ثارت الطالبة ، وقالت بصوت متهدج :

– نحمد الله !! نُسَب ، ونحمد الله ... وأين ؟ في قاعة علم ؟ ... يا أستاذ ، أحياناً تقولون أن قاعة العلم مثل المسجد ودور العبادة ... وفيهما الجميع سواسية أمام رب العالمين .

– يا فتاتي ... تقولين أمام رب العالمين ، وهو مَن خلق الغني والفقير ، وخلق العاجز والسليم والضعيف البنية وقويها ... وزي ما بيقولوا الكبير كبير ، والنص نص ... واللي ... ضج التلاميذ بالضحك ، وأكملوا باقي عبارة الأستاذ ... لم تبتسم ، ولكن طفح فوق وجهها ألم بدا جلياً ، فأشار عليهم بالصمت ، ودعاها أن تكمل حديثها .

– هذه ليست كلماتك يا أستاذ ... أنت معلمنا ، لا نجهلك ، لماذا تغيرت ؟ أكون أكثر صراحة معك ... بعد خروجك من المعتقل أو السجن ... أشار عليها بالتوقف عن الحديث ، واغتصب ابتسامة ، ووقف مستنداً بيديه على المنضدة ، وقال بنبرة فيها مزيج من الألم والأسى :

– دعكِ مني يا ابنتي ... في وسط الضجيج والضوضاء لا تستمع الأذن لكلمات الحق ، ونحن في زمن الضجيج ... الحق أن يعيش أولادي في سلام ، وأمان ، وحياتي يا بنيتي مرهونة براتب أتقاضاه ، ولو ذهب الراتب لذهبتُ بدوري أمام أي مسجد ، ألتمس العون ، وليبحث الأبناء عن ملجأ يأويهم ، ويسد عوزهم ومعهم أمهم ... خضنا في حديث بعيد عما أردت ، نعود لحديثك ... تقولين رفعتم الموضوع لإدارة المدرسة ...

– إدارة المدرسة لم تستمع إلينا ، وألقت بالمسئولية علينا .

– ليس أمامك إلا الدعوة لله العلي القدير أن يكسب أباك ورقة يناصيب ، أو شهادة استثمار ، ويمكن جائزة من جوائز الفوازير إياها .

– يا أستاذ ... أرجوك .

– لا تغضبي ، سيادة النائبة ، فكل ما سبق غير مضمون ، لكن هناك شيئاً مضموناً ... فلتدعي الله أن يهبط عليكِ ، أو عليهم خادم مصباح علاء الدين ، ويسألك سؤاله المعتاد ، فتطلبين ما تشائين من أموال وذهب ، فتتنعمي وتترفعي وتضربي ، ولا يهمك أي إنسان .

– يا أستاذ ، هذا ليس زمن الجن والعفاريت ... هذه خرافة عفا عليها الزمن .

– دعي الخرافة يا فتاتي تعيش داخلنا ، أظنها أفضل من مرارة الواقع الذي نعيشه ... فالواقع والحق ثورة إن جهرنا بها ذهبت بنا .

– لكن ليس هذا من العدل .

– يا فتاتي أنا مجرد مدرس .

– لتعلِّمنا ، ولتكن لنا ... أشار عليها فصمتت .

– مرهون عملي بكتاب كتبَهُ مَن هو أفضل مني علماً .

– إن لم يرتبط العلم بالحياة ، فلا نفع منه .

– الثقافة والعلم في متناول الجميع ...

– ليست في متناول الجميع ... جامعات أجنبية ، ومدارس لها فروع متعددة بألوف الجنيهات لا يقدر عليها أمثالنا ... فعلى مَن ينظرون إلينا بالتعالي أن يتركوا هذا التعليم المجاني ، وليذهبوا إليها ... بدلاً من إذلالنا والتكبر والترفع علينا ... وأنتم تساعدونهم في ذلك .

– احمدوا الله ... أدعوا أن تهبط عليكم الأموال من السماء مثل المطر ، فما لبث أن رفع يده لأعلى ... اللهمَّ املأ جيوبنا بالمال ... وردَّد كل التلاميذ في صوت واحد خلفه :

– آميـــــــن .

– اللهم أهلك المنافقين .

– آميـــــــن .

– انصر الغلابة المساكين ذوي الحاجة .

– آميـــــن .

– إن شاء الله ... هروح في داهية .

– أميـــــن .

ردَّدوها لا إرادياً ... ضحكوا ، وبدوره ضحك وضرب كفاً بكفٍ ، سأله أحدهم :

– أستاذ ...

– نعم .

– هل تحب الحلاوة الطحينية .

– يعني .

– لا تخف ، سنزورك ، والحمد لله الحلاوة الطحينية رخيصة .

توقف الحديث ، فقد جلست الفتاة ، وأخفت وجهها بيديها ، وصوت نحيبها طغى على الحديث ، وعمَّ الصمت الفصل ، وتحرك بهدوء نحوها ... دعاها باسمها ، فتماسكت ، ووقفت وهي تمسح دموعها بكفيها ...

– لا تبكِ يا بنتي ... إنها الحياة ، فالدنيا طابعها أن تبتلع كل أحلامنا ، فلتكن أحلامنا صغيرة ، ولتكن أحلامك صغيرة ، لا تجعليها أكبر من واقع نعيشه ، ويعيشونه من حولك ... ردت بصوت متهدج متقطع النبرات متأثر ...

– لكنني طلبت منكَ ... لم تكمل عبارتها ، طلب منها أن تجلس ، وعاد لمكانه .

– انظري إليَّ جيداً ... هل ترين إنساناً سوياً ، أنا مجرد إنسان عادي لا أستطيع أن أخترق حدودي ، وكما يُقال : "إن اخترقت احترقت" .

– أنت المعلم .

– ولكل زمان معلم ... وبسرعة أسرع أحدهم قائلاً

– قِفْ لِلْمُعَلِم وَفهِ التَّبْجِيلا ... فأكمل الأستاذ :

– كاد المعلم أن يكون شاويشاً ... عموماً لا أقصد أن ننظر للشاويش نظرة دونية ، فالشاويش يدافع ويحافظ على أمن وأمان الوطن ... أما الأستاذ ، فيكفي أن يرفع إصبع الطباشير ...

لم يُخرج الطالبة من آلامها ، فقد فهم المعاتبة من نظراتها له ، فكل التلاميذ يبدو على وجوههم البِشر والسرور ما عدا هي فصامتة ، كانت ممن يجتهدون في دروسهم ، ومحل إعجاب مدرسيها ، ولكن يبدو أن شيئاً ما أثر عليها ، وهي على غير عادتها ، فهي ممتازة خلقاً وعلماً ، لا يستطيع أمام حزنها البادي أن يتركها تلعق همومها بمفردها ، طرق بالمطرقة ثلاثاً ، فالتزموا الصمت ، بل شبكوا أيديهم فوق صدورهم ... ابتسم وأشار عليها .

- سيادة النائبة المبجلة ... سأقص عليكِ حكاية من حكايات جدتي –رحمها الله– ... صمت بعض الشيء ، ثم استطرد حاكياً

كان ياما كان يا سادة يا كرام ، وما يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام ... رددوا جميعاً بالصلاة والتسليم على نبي الرحمة ، واستطرد :

كان فيه ملك وما ملك إلا الله ، لم يرزق هذا الملك بطفل يورثه عرشه وملكه ، دعا الله ساجداً متضرعاً أن يهبه ، ويرزقه بطفل أياً كان شكله ، وكأن أبواب السماء مفتوحة يومها ، فاستجاب الله لدعائه ، وحملت الملكة بالطفل ، فعمَّت الأفراح كل المملكة ، ووهب الملك عطاياه للفقراء والمساكين ، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح ، وسهر الشعب يستمتع بالأغاني وحفلات السمر .

وتمضي الأيام ، وتضع الملكة مولودها ، فكانت الفرحة فوق الخيال ، فالمولود ذكر ، ووريث للعرش ، فوزعت الهدايا وزفت البشرى ، وتعالت الدعوات ، وأقيمت الأفراح ، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد ، عندما نظر الملك لوجه مولوده ... وجده بلا أنف ، فتغير لون وجه الملك ، وتبدلت ملامحه ، وأعلن عن استيائه ، وذهب من فوره لقاعة العرش ، واستدعى مستشاريه ، وقص عليهم ما كان ...

وريث العرش سيكون مشوه الوجه ، إنه الملك القادم ، فما الحل ؟ كهنة الملك كعاداتهم في كل زمان ومكان يسبحون بحمده ، فاتفقوا فيما بينهم أن يتم قطع أنف كل مولود بدءاً من اليوم ، ومَن لم يكمل عامين أيضاً ، وعرضوا الموضوع على الملك ، فسمع حديثهم ، سيصبح كل أطفال المملكة بلا أنوف ... سيصبح هذا الشكل العام لكل الأطفال اليوم وغداً رجال بلا أنوف ... أعلن جرس الحصة عن انتهائها ، فهمَّ بالمضي ، وصمم الأبناء أن يكمل باقي حكايته ، استأذن أستاذ الحصة التالية في خمس دقائق ، فأذن له ...

تمضي الأيام والسنوات ، ويكبر الأولاد ، ويصل الوريث لمبلغ الرجال ، فيلقي عليه الملك بمسئولية الجيش ، وأصبح كل جنوده بلا أنوف ، فلا يستغرب أحد الوضع ، هبط لعاصمة المملكة شاب غريب ، كان يعيش في منطقة نائية من المملكة ، ولكن ما زال أنفه في موضعه ، فمضى والناس تضحك عليه ، وتشير عليه بصورة غريبة ، قبض العسكر عليه ، وألقوه في السجن ؛ لأن شكله غريب ، وأمر مفتي مملكتهم بإعدامه ، أخذ الغريب يبكي ، ويسألهم عن سبب لإعدامه ، فعرف الحقيقة ، فطلب منهم أن يقطعوا أنفه ويعيش ... وتوتة توتة خلصت الحدوتة حلوة ... ولا ... نظر للفتاة مبتسماً ، فابتسمت ، ولما همَّ بالمضي استوقفه أحدهم قائلاً

- اللي يجوز أمي أقول له يا عمي .
- صح ... صح ... سلام .

***

ندل المسئول الكبير
عفواً المقصود
نجل المسئول الكبير

أعلنت الساعة التاسعة تماماً ، نظر في ساعة يده ، ودق جرس المدرسة معلناً البداية ، اهتزت الأدراج ، وأسبل بعض التلاميذ عيونهم ، وانطلق بعضهم متمتماً بآيات من القرآن الكريم ، بعضهم يتحسس أقلامه ، وآخر يتحرك بعصبية ، وزع صاحبنا أوراق الإجابة وطالبهم بكتابة أسمائهم وأرقام جلوسهم أولاً ، والتأكد من رقم استمارة ورقة الإجابة ، ثم عاد من جديد يطالبهم بالكتابة بخط واضح ، وجلس أمام التلاميذ في مقدمة الفصل ، وزميله الثاني في نهاية الحجرة .

أصبحت الثانوية العامة وامتحاناتها كأيام تترقبها كل الأسر المصرية ، وتتمنى أن تنقضي أيامها في سرعة ويسر ، بل قاربت أن تكون أشبه بأوجاع الحمل المحببة والمتمنية المخاض بسرعة ؛ حتى تتعرف على نوع الجنين ، وأي كلية سيلتحق بها الابن أو الابنة ، يصاحب أيام الاختبارات حكايات وأقاصيص كان يسمعها ، ولكنه يعتبرها مجرد حكاوي وأقاصيص للتسالي وقضاء الوقت ، لم ينجُ من تلك الأقاصيص رئيس اللجنة التي يعمل بها ، وهو أساساً مدير معه ويرأسه بمدرسته الأساسية

في المحافظة التي قدما منها ، وأغلب الملاحظين والمراقبين من المدرسة نفسها إلا القليل منهم .

في الصباح ، وقبل بداية اليوم مال عليه أحد الزملاء ، وحكى له أن السيد المدير تم الحجز له بفندق فاخر بالمدينة ، وكذلك المراقب الأول للجنة ، أما الطعام وكل مستلزمات الإقامة فرهن إشارته ، وأن المسئول الكبير بالمحافظة سيؤدي ابنه الامتحان بهذه اللجنة ، بل إن سيارة خاصة تحت تصرف السيد المدير ، والمراقب الأول ، وهذا على غير المعتاد ، فالرجل مشهود له بمراعاة الله دائماً في عمله ، وليس ذلك غريباً عليه ، فهو يعمل معه في المدرسة نفسها ، ولم يرَ يوماً فعلاً سيئاً من هذا الرجل .

لم يهتم بما قيل كثيراً ، قام من مكانه ، وأخذ بالمرور على التلاميذ ؛ للتأكد من كتابتهم لبياناتهم الصحيحة ، رصدت عيناه أحد التلاميذ موقعه يتوسط القاعة يتحرك في مكانه بعصبية غريبة ، نظر للتلميذ الذي اصطدم بنظراته المقابلة وكأنها نظرات متحدية له ، فتحرك ناحيته ووقف بجواره ومال عليه ، وقال له بكلمات حانية : "ماذا تريد يا بني" ؟

نظر إليه الفتى مستخفاً بسؤاله فيما يبدو ، لم يعبأ بنظراته ، وابتسم له وربت على كتفه في حنو "إذا أردتَ أي شيء ... ؟" توقف الأستاذ عن الحديث ، وأخرج التلميذ علبة سجائره الأجنبية الصنع ، وأخرج منها

سيجارة وأشعلها ، وامتدت يده بعلبة السجائر للأستاذ ، ابتسم وهزَّ رأسه قائلاً : "لست متعوداً عليها يا بني" ، ابتسم التلميذ ونظر إليه وتمتم بكلمات لم يفقه منها شيئاً ، لم يعره اهتماماً ، ومضى حتى وصل لمكانه ، فجلس وأشار عليه الزميل في نهاية القاعة بإشارة لم يفهم منها شيئاً ، فتحرك إليه ، ومال عليه ، وهمس في أذنه بكلمات ، فعاد يرد على حديثه بصوت هامس "ولايهمك حتى لو كان ابن ..." ، فهز زميله رأسه ، وعاد لمكانه في نهاية القاعة ، فهو يعرفه جيداً ، رفع التلميذ إياه يده مشيراً إليه ، فتحرك إليه مباشرة ، سأله التلميذ "إنني في حاجة لفنجان من الشاي" ، وبصوت خافتٍ مال عليه مشيراً بأن هذا ممنوع داخل اللجان ، وإذا كان ضرورياً ، فلا مانع أن يخرجه خارج اللجنة ، فامتنع التلميذ عن الخروج ، وبدت علامات التذمر واضحة على وجهه ، لكن لم يحاول أن يعطيه اهتماماً أكثر ، بل ربت على كتفه وعاد لمكانه ، ما كاد يصل لمكانه حتى طالعه وجه رئيس اللجنة ومديره بمدرسته الأساسية ، فاعتدل في جلسته ، ووقف مسرعاً ببشاشة وجه ، فبادله الرجل التحية ، وشد على يديه ، وجذبه ناحية الباب وهمس في أذنه بكلمات ، وأشار للتلميذ إياه ، فكان الرد الجاهز لديه :

" يا ريس إنه ولد غير مهذب " ...

كاد أن يضع يده علي فمه ، رغم أن الحديث كان هامساً ، وفي صوت خافت عرفه بأن هذا الفتى ابن أكبر مسئول في البلد ، حاول أن يتحدث ، فأوقفه المدير قائلاً : "أرجوك يا أستاذ ، كلها ساعتان وتنتهي ... حاول بقدر إمكانك أن تكون مرناً" ، اهتزت رأسه ، وأومأ مستجيباً للحديث وداخله يغلي ، ولكن استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، رغم أن التلاميذ كانوا مشغولين في إجاباتهم ، واللجنة هادئة تماماً ما عدا التلميذ إياه ، تصنع المدير المرور داخل اللجنة ، وتقدم صوب التلميذ إياه ، وبادله التحية ، بينما كان التلميذ يضع ساقاً فوق أخرى ، وسيجارته لا تفارق شفتيه ، وكسر الحاجز بطلب فنجان من الشاي ، حاول المدير أن يلفت نظره بأن هذا ممنوع داخل اللجنة ، ولكن بدا أنه كان مصمماً على طلبه ، تغير وجه التلميذ ، وأخذ رئيس المدير في تهدئته ، وطالبه أن يتناول الشاي خارج اللجنة ، فرفض التلميذ ، أسرع المدير مستدعياً العامل وأمره بالإسراع بكوب من الشاي وقطعة من الحلوى معها ، فشكره التلميذ وهو ينظر لصاحبنا بعين ساخرة ، توجه رئيس اللجنة بالحديث للتلاميذ مشجعاً مخفياً هزيمته بين طيات حديثه ، قائلاً : "شدوا حيلكم يا أولاد ، ربنا يوفقكم ... احنا هنا لراحتكم" ، وانصرف ، وما هي إلا ثوانٍ معددوة ، حتى دخل العامل بالشاي بلا تردد أو استئذان ، داعياً الفتى بلقب الباشا ، وكأنه يصر على أن يسمع كل الملاحظين .

أخذ الفتى يرشف الشاي بصوت مسموع ، فذهب إليه وبلهجة آمرة طالبه بأن يشرب بدون صوت مراعاة لزملائه ، فأذعن لرغبته هذه المرة ، وعم القاعة الهدوء ، تململ في نهاية القاعة أحد الطلاب ، فذهب إليه ، كان فتى دقيق الملامح أسمر الوجه أجعد الشعر أسود العينين ، فسأله إن كان به حاجة ، فشكره الفتى ، وبصوت لا يكاد يسمع : "أشكرك يا أستاذ ... لكن ولا يهمك ... فكل يوم على هذا الحال ، فهو ابن ... وليس عيباً في هذا الزمان ..." ، قاطع حديثه ، وطالبه بالصمت ، والعودة لورقة إجابته حرصاً على الوقت ، أحس بضيق وألم ، فماذا يفعل ؟ لا يستطيع أن يصمت ، هل يتكلم ؟ مع من ؟ رئيس اللجنة ... مدير المدرسة ، لقد سمع ما قاله الرجل ، من الممكن أن يحرم ، أو أن يرسل تقرير شامل وافٍ عنه ، والنتيجة معروفة مسبقاً ، حرمان من الإشراف على الامتحانات ، أو الندب لأعمالها ، وسيجازى بطبيعة الحال ، لقد حرم من الدرجة ، وكل زملائه نالوها ، وهو قضى اليوم خمسة عشر عاماً على الدرجة نفسها ، تذكر ابنه وابنتيه واحتياجاتهما ، كيف ينتظرون قدومه ، فتحسس جيبه وتذكر النقود والحاجة إليها ولعنها وامتص لعابه وتجمد لسانه ونظر إلى الأرض ، لاحظ ثمة رتقاً ظاهراً في جوربه ، فشد بنطلونه لأسفل محاولاً إخفاءه عن العيون ، نظر حوله ، وحمد الله فالجميع مشغولون عنه .

استأذنه العامل في أخذ الكأس الفارغ ، فسمح له ، لاحظ أن يد العامل امتدت بورقة لابن المسئول إياه ، تحرك مسرعاً وبهدوء سحب الورقة من الفتى ، وطالب العامل بالخروج فوراً ، أسرع العامل بالخروج

والفتى ينظر إليه ويكاد يهجم عليه ، وهو لا يعيره أدنى اهتمام ، مزق الورقة لقطع صغيرة جداً ، وفركها بقوة وعصبية بين أصابعه ، وألقي بها من النافذة ، والفتى ينظر إليه بضيق واضح ، أما الفتى ذو الشعر الأجعد في نهاية القاعة ، فإنه ينظر إليه مبتسماً ، وكأنه يشجعه على فعلته ، وأحس أن الطالب يكاد يثني على فعلته ، أحس بشيء من القوة والثقة يغمر وجدانه ... بطل ... شجاع ... جلس على مقعده ، ثم عاد يعنف نفسه على فعلته ... ما الذي فعلته الآن ؟ من المؤكد أنك ستخرج من اللجنة الآن بأمر السيد المدير ، لو علم بالأمر ، سيأتون بمن هو أفضل منك ممن يسهلون الأمور ، ويساعدون الطلاب ... ستحرم من كل شيء ، ومؤكد ستضيع عليك الدرجة هذا العام أيضاً ... !!!

اقترب منه زميله ، ومال عليه ، وجعل فمه في أذنه قائلاً :

"فوت وهون ، الله يرضى عليك ، وافتكر أننا في بلد تانية ، وأنا وأنت مجرد مدرسين ، وهم أساس البلد وكل حاجة بأيديهم ، ارجع لعيالك وبيتك أحسن ، الله يرضى عليك ، اسمع كلامي ، وافتكر عيالك ... يا حبيبي أشجار الشط دايماً لينة بتمشي مع الموجه ؛ لأجل تعيش ... أرجوك" ، وبمجرد أن قال له "لكن" ، رد بسرعة "ما لكنش ... اسمع كلامي" .

تركه ومضى إلى مكانه في نهاية القاعة ، أحس في كلماته خوفاً عليه ، زوجته ... أولاده ... حياته ... أين الحق ... أين هو ؟ مَن سيحميه ؟ مَن سيدافع عنه ؟ تاه في دوامة متصلة من الأفكار ، ضاجعته أحلام اليقظة ، تناشده جميعها التريث وعدم التسرع ، إنها سمة من سمات عصرنا وأيامنا وهذه الدنيا ، قطع حبل أفكاره حركة غير عادية في الممر الطويل أمام الفصول ، انفصلت عقدة لسانه بسؤال

للعامل ، فأجابه أن مساعد المسئول الأول إياه يمر باللجنة ، تساءل في نفسه ... ليس له الحق في المرور باللجنة ، إنه اختبار الثانوية العامة ، وغير مسموح بالمرور ... لماذا هو بالذات ؟ وأين دور رئيس اللجنة ؟ هل يتحدث ؟

جلس على كرسيه ، رعشة خفيفة تأخذ أوصاله ، تحركت يداه لا إرادياً بعصبية عسى أن تعطي شيئاً من الدفء لأطرافه ، أحسَّ وكأن أطرافه باردة ، رغم حرارة الجو ، أعلن مراقب الدور عن حضوره ، لا شعورياً جلس واضعاً ساقاً فوق أخرى ، فكانت ثمة إشارات من زميله بأن يجلس بصورة أفضل ، فامتثل لطلبه وأنزل ساقه ، أسرع العامل يحمل المياه المثلجة ، ويمر بين اللجان ، ويسأل مَن يريد ؟ ويستجيب مسرعاً ، ومراقب الدور يتحرك هنا وهناك ويعطي تعليمات متتالية ، وكأن فرعون مصر قادم ، حقاً نحن نصنع الفراعين في هذا الزمان ، وما الفرق بيننا ، وبين مَن صنعوا قديماً التماثيل وعبدوها وأقاموا لها المعابد .

طالعه وجه نائب المسئول الأول متحركاً كطاووس في ذيله الحلقات الذهبية التي سقطت من السماء عليه ، كما تقول الأساطير القديمة ، ابتسامته العريضة تبرهن على ثقته ، وعلو شأنه ، امتدت يده بالتحية وشد بقوة على يده ، وما لبث أن سأله عن أحواله ، وعن الاستراحة التي يبيتون فيها ، وهل ينقصها أي شيء ، وأن أي شيء رهن يديه هو والزملاء ، شكره ممتناً ، ثم عاد يسأله أي خدمة في أي مجال ، وشكره من جديد وأثنى عليه مبتسماً ، فنظر للأرض ليخفي ضحكة ساخرة من قرينه الذي يركب رأسه .

وبينما كان النائب يتوجه بالحديث للطلاب مشجعاً ، أخذ الرجل يتجول بين مقاعد الطلاب ، ويتصنع الابتسامة لكل منهم ، وقد يربت

على كتف أحدهم ، أو يمسح بأبوية فوق رأس آخر ، لكن نظرته لابن المسئول الأول اختلفت ، التزم رئيس اللجنة بالوقوف خارج اللجنة متتبعاً بعينيه أحياناً ، ثم اتجه ببصره لجهة مغايرة ، وكانت عينا صاحبنا تراقبانه ، وتلاحظان كل أفعاله وردودها ، فكان هناك تقريباً شبه اتفاق مع ابن المسئول ، في نهاية القاعة ، وامتدت يده لجيب بنطلونه ، ولم تعبث كثيراً ، فقد سحبت للخارج ورقتين وجعلهما خارجتين بعض الشيء ، كانت وقفته بجوار الطالب الأسمر مجعد الشعر ، الذي نظر للأستاذ ، وابتسم ، وغمز بعينيه ، فاهتزت رأس الأستاذ ، وكأنها تبادله التحية ، وامتدت يد الفتى في هدوء ، وسحبت ورقة من جيب الزائر بدون أن يحس .

كاد الأستاذ أن يضحك ، ولكنه حبس ضحكته التي حوَّلها بفعله لسعالٍ شديد ، وتحرك الزائر مقترباً من ابن المسئول ، وابتسم لابن سيده ، فامتدت يد الفتي تسحب ما بقي في جيبه ، شاهد كل شيء ، ومن المؤكد أن زميله شاهد أيضاً ذلك ، أما المدير ، فيظن أنه يعلم بالموضوع مسبقاً ، وتحرك الطاووس بين التلاميذ ، ونظر لرئيس اللجنة ، وتوقف بجوار الأستاذ مع ابتسامة فياضة مرحة ، وشد على يده ثانية آملاً أن يقابله ثانية ، أوصاه بالتلاميذ خيراً ، كاد أن يقول أن لحم أكتافنا من خير ذويهم ، مال عليه وهمس بكلمات ، فاهتزت رأس الأستاذ ملبية ، فقد أخبره أنه اتفق مع الأستاذ رئيس اللجنة أن كل الزملاء سيشرفوننا الليلة ، وأنه في انتظاره آملا في قضاء وقت ممتع ، لم ينسَ بطبيعة الحال أن يترك الأمر لمشئية الله ، شكره ، ومضى ، ونجل المسئول ينقل من الورقة في ورقة الإجابة الحلول .

تحرك لنهاية القاعة ، واقترب من أجعد الشعر مبتسماً ، فابتسم الفتى بدوره ، وسلمه الورقة مخبراً إياه بأنها تحتوي على إجابة سؤالين من مجموع الأسئلة ، أي ما يوازي نصف الامتحان ، طالبه بالصمت ووصلت إلى أذنيه كلمة الفتى "كله بيسرق كله واحنا بندفع التمن ... عمري ما سرقت ، سحبت ورقة ، وتركت التانية" ، ابتسم له واصفاً إياه باللص ، وأن يده خفيفة حقاً ، وابتعد وهو يفرك الورقة بين أصابعه ، ولا يملك نفسه من الضحك .

***

كانت جلسة المساء رائعة ممتعة ، تقدم إليه ابن المسئول الكبير ، وشكره ، وصافحه بقوة ، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد ، وما لبث أن تذكر شيئاً ، فسأله :

"أنا لم آخذ سوى ورقة واحدة ، وهو أقسم أنهما ورقتان كاملتان ، وفيهما حل الامتحان كله" ، تصنَّع عدم الإدراك ، ودار بالحديث لجهة مغايرة ، أو حاول ، وقد أفلح ، فكان يحس بضيق في نفسه .

بعد عشاءٍ لم يشهد له مثيلاً في قاعة لم تطأ قدماه مثيلتها من قبل ، وقفوا صفاً يتقدمهم مدير المدرسة رئيس اللجنة ليصافحوا المسئول الأول الواحد تلو الآخر ، وينالوا البركة والرضا .

اختلى به رئيس اللجنة مدير مدرسته ، محاولاً أن يسوق أسباب ومعاذير ، وقال أنه مجبر على السكوت ، وإلا سيناله أذى ، ضحك بصوت مرتفع ، وطلب من المدير أن يشعل له سيجارة ، وهو لا يدخن أبداً ، رغم الذهول البادي على وجه المدير ، امتدت يده بالسيجارة ، وأشعلها له بنفسه ، وكأنه يجيبه على السؤال الذي طرحته ملامح وجهه ...

"يا عم ، بدل الإحراج قدام العيال التلامذة والغرباء عنا ، نعمل لجنة خاصة للولد ، ويا دار ما دخلك شر" ، لم يصدق المدير ما يقوله ، لكن اهتزت رأسه في سعادة بادية ، وأخبره لحظتها أنه سيفعل ذلك من الغد ، وأنه سيكون هو ملاحظ اللجنة ، حاول الاعتراض ، أو التملص فلم يستطع ، ولم يتحمل ما طلبه المدير ، ولعن أفكاره ... لم يجد مفراً ... سافر وأرسل تلغرافاً ... مريض وملازم الفراش ... برجاء تحويله للكومسيون الطبي .

لم يعرف الطريق للكومسيون من قبل ... وجاء التقرير بالتمارض ، والامتناع عن أداء الواجب ... ولم يحصل على الدرجة حتى تاريخه .

***

يا كنترول ... يا

أن تلتحق بكنترول ، فهذا يا سيدي يوم المنى ... يومها أستطيع أن أؤكد لك أن الله استجاب لدعوة أمك ساعة المغربية ، أولاً دعني ألقي الضوء على المقصود بالكلمة ، فالكنترولات أنواع تبدأ من كنترول الصف الثالث الابتدائي ، فالسادس الابتدائي ، فالثالث الإعدادي ، أما أفضلها وأكثرها ربحاً ، فهي الخاصة بالثالث الثانوي ، سواء العام أو الفني ، جملة ما يحصل عليه المحظوظ وابن الناس المرضي عنهم يفوق راتبه في خلال عام كامل ، لك أن تحسب وبلا حرج ، فجملة عدد أيام المكافأة تقترب من الخمسمائة يوم ، وهذا بخلاف الدور الثاني ، ويأتي بعدها مكافأة السيد الوزير ، وتقترب من نفس القيمة التي حصل عليها مسبقاً ، أما عن كيفية الوصول لعضوية أحد هذه اللجان ، فحدث ولا حرج ، فليس كل البشر سواء ، ومَن له ظهر يأخذ حقه ، وحق الناس بقوة سلسلة ظهره ، وقيمته ، ومقام أهله ، والذي ينظر للأعلى يعمى ... وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد ، ويحمد الله ...

صديقي رجل يحمل لساناً يجلد كلَّ مَن حوله ، وهو لا ينكر ذلك وكثيراً ما يفتخر بأنه ليس له غالٍ ، أو عزيز ، فرغم أنه يعمل بالتربية والتعليم ، وأنه دخلها مُكرهاً ، إلا إنه لم يجد مفراً من الرضا بما قسمه الله له ، ولكن كثيراً ما يطفح هذا على أفعاله ، ومَن يعرفه يلتمس له العذر ، الغريب أنه أصبح عضواً في كنترول دبلوم الشهادة التجارية ويقتصر عمله على الجلوس أمام الباب الخارجي كمسئول أمني ، وهو راضٍ عن هذا العمل ، عندما سألته كيف وصلت لهذا المكان ؟ هل لك أقرباء في

أي جهاز رقابي ، أو ... لم يدعني أكمل ، أو أسأل ، وضحك ، وطلب مني سيجارة ، وهو يعرف أنني أقلعت عن التدخين منذ فترة .

أنا أعلم أنه لا ينتمي بأي صلة لأي مسئول من الكبراء ، فهو ممن يدفعون مثلنا ، وهو راضٍ بما قسم الله له ، أو كما يقولون هو ممن يمشون بجوار الحائط ، لم أجد مفراً سوى أن أدعوه لفنجان من القهوة على أقرب مقهى ، فتقبل الدعوة مبتسماً ، لم يكتفِ بالقهوة ، وإنما أسرع وألقى أوامره للفتى بطلب الشيشة المعتادة له ، جلس منتشياً ، وهو يدفع بالدخان من فمه ومنخاره ، أقسم بالله أنه كان يستطيع أن يدخلهم جميعاً السجن ، ولكنه ارتضى أن يشاركهم ، ويأخذ نصيبه مثلهم ، "يا بخت من نفع واستنفع" ، لم أفهم شيئاً مما يقول ، فطالبته بالشرح عسى أن أفهم ما عجز عقلي عن فهمه من قبل .

قال أن أحد معارفنا همس في أذنه سائلاً ... هل قبضت فلوس الكنترول ؟ تصنع عدم الإدراك ، وسأله متى تم صرفها ، أخبره بأن الصرف منذ ثلاثة أيام ، وأن اسمه فوق اسمه مباشرة ، ولكن المبلغ المرصود له يزيد عنه بما يوازي ألفاً ونصفاً من الجنيهات ، لم يصدق ما يسمعه ، ولكن سأل ، فعرف أن الصرف بخزينة المديرية ، ودائماً بعد صلاة المغرب ، خلاصة ما عرفته منه بعد أن تجرع فنجانين من القهوة ، وما يقارب من خمس أحجار من المعسل المخصوص ، أن المغفور لهم العاملين بالكنترول يضيفون عدداً من الأسماء الوهمية التي لا تعمل بالكنترول ، ولكنها حقيقية تعمل بالتربية والتعليم ، وفي النهاية يأخذون هذه المبالغ ، لا يأخذونها لأنفسهم كما يقولون ، ولكن تصل للسادة في الوزارة والقائمين على توزيع اللجان ، حتى يكون للبلد نصيب في الأعوام

القادمة ، هو يضحك ويغمز بعينه ، وأنا لا أدرك المغزى ، ولكن أهز رأسي مدعياً المعرفة ...

المهم أنه ذهب إلى خزينة المديرية ، وقبض متأكداً أن المرصود في الكشف هو اسمه ، ضحك ومال للخلف قائلاً إنهم استدعوه ، وسألوه أن ما أخذه عن طريق الخطأ ، ويجب أن يرده ، أبدى استعداده لدفع المبلغ ، ولكن بالتقسيط ، وادعى أنه لم يصدق عينيه ، فأخذ كشوف الصرف ، وصورها وتأكد من صحة اسمه ، والمدرسة التابع لها ، والإدارة أيضاً ، وحتى خانة مرتبه الأساسي ... تأكد منها ، ووظيفته ، وكل شيء صحيح مائة بالمائة .

تركهم ، ومضى ، وبعضهم يعرفه ، فلسانه لا يسكن داخل فمه ، ويتحدث في كل شيء وعن أي شيء ، فتحدث مع واحد من المسئولين الأساسيين في الكنترول ، فما أخذه حلال عليه ؛ لذا يجب عليه أن ينسى ما حدث تماماً ، وإلا سيلاقي المتاعب مستقبلاً ، كان رده جاهزاً ... وماذا يأخذ الريح من البلاط ؟ ... أمسك بيديه وأسنانه في هذا الحبل الذي مد إليه لينقذه من الغرق ، حدد مطالبه ، وكانت في متناول أيديهم وبسيطة ، وهو أن يكون عضواً عاملاً في الكنترول ، من يومها أصبح مسئولاً أمنياً يجلس طوال أيام الكنترول ، يشرب الشاي ، ويقرأ الجرائد ، ويساعدهم في اختيار أسماء غير معروفة وبعيدة في أماكنها ، فيسجلونها في عضوية الكنترول ؛ حتى يستطيعون أن يسددوا ما عليهم للزملاء في الوزارة .

أصبح عضواً أساسياً يعمل في الدور الأول والثاني ، ويحصل على مكافأة الوزير مرتين ، وأحياناً يكون هناك فائض يصرف له فيه نصيب أيضاً ، وعلى غير المتوقع سألني مباشرة ... هل في نيتك التقدم

للحصول على عضوية أحد الكنترولات ؟ لم يترك لي فرصة للإجابة ، ولكن شرع في وصف إمكانيات كل منها على حدة ، ومقدار الكسب المادي العائد من ورائها ، قبلها ، وإن لم يكن لديك معارف ، فعليك بالطرق الأخرى وما أكثرها ، وراح يسرد الطرق ، وكلها والعياذ بالله تدخل تحت مسمى الرشوة ، وحديث الرسول ﷺ موثوق ومعروف ، أن الراشي والمرتشي كلاهما في النار ، قطعت عليه حبل تألقه في الحديث ، عندما سألته : "أنت أكبر مني سناً ، وما رأيتك إلا مصلياً ، ومراعياً لحدود الله ، رغم كل ما يخرج من لسانك من حديث كثيراً ما يجرح الناس ، وقليلاً ما يحمل الحقيقة ، ألم تفكر للحظة أن هناك حرمانية فيما تتقاضاه من وراء هذا العمل ؟" ، صمت وأسرع بالنداء من جديد على صبي القهوة ، وأعلن أنه سيدفع الحساب ، وأقسمت أنني سأدفع ، فرضخ لطلبي ، ولكنه طاب من الفتى طلبات جديدة ، وسط تحول غريب في ملامح وجهه وذهاب الابتسامة المرسومة على وجهه ، لقد أصبح اليوم في موضع مرموق بين كبراء الكنترولات وأثريائه .

قال : كثيرون شيدوا بيوتاً واشتروا شققاً سكنية ، أو شاركوا في مشروعات تجارية من وراء هذا العمل في الكنترولات ، فالمكاسب غير المعلنة تفوق المعلنة ، ثم وصف جلسة السمر التي يترددون عليها ، وما يقدم فيها من مأكل ومشرب حلال ومحرم ، وكيف يبدأ بالسيجارة ، وينتهي بأشهى أنواع المخدرات والمقويات الجنسية ، وكل هذا تحت رعاية الرئيس المبجل ، ويموج بالضحك طالباً مني ألا أفسر هذا الموضوع بصورة خاطئة ، فيكفي أن تعلم أن هذا الفعل غالباً بعد أن ننتهي من صلاة العشاء ، ويستثنى من القاعدة ثلاثة من الإخوة المسيحيين .

وتابع كلامه وهو يضحك : إنهم يكتفون بالفرجة علينا ويدعون لنا ، وليس هذا في كل الأيام ، فهي أيام محددة ، عندما لا يكون بالكنترول سوى الأعضاء الأساسيين ، وهم أعضاء الغرفة السرية ، وعندما حاولت أن أتأكد منه أن كل الأعضاء من المرضِي عنهم وأصحاب المعارف ، ولا يوجد أي حالات تستثنى من تلك الشروط ، كاد أن يقع من فوق مقعده من الضحك ، وألقى بخرطوم الشيشة ، وأخذ يضرب كفاً بكف ، انتظرت ريثما ينتهي من ضحكاته التي أثارت فضول الناس حولنا ، قائلاً : تعرف الأستاذ رجب ؟ ...

اهتزت رأسي ، فهناك أكثر من رجب في رأسي ، عمي رجب الفيل صاحب أشهر ضحكة ، ومسئول الحسابات بالمدرسة الثانوية بنات الذي لا تفارق السيجارة فمه ، صاحب أشهر أسنان سوداء متنافرة ، ولا يكف عن الضحك طوال يومه ، فعلاً هو في أوائل الخمسينيات ، لكن مَن يراه لا يتخيل أبداً أنه يقل عن السبعين عاماً ، وطوله لا يتعدى متراً ونصف وبضع سنتيمترات ، والكل يعرف أن زوجته تفصِّل منه ما لا يقل عن سبعة أمثال حجمه ...

ضحكنا ونحن نصفه وزوجته وهما في الشارع ، لا يهتم بما يثار حوله ، ويتمتع بخفة ظل عالية ، ويستطيع أن يرد مشاكساتهم ، يقسمون أن له من الأولاد عشرة ، وهو مصمم أن يكملهم لدستة ، عندما يقابلونه وهم يضحكون ويسألونه لماذا توقفت عن الإنجاب ... فهل سلمت النمر ؟!! يردهم بمقولات تخرج عن المعتاد واصفاً إياهم بجيل الفراخ البيضاء واللحمة المضروبة والستات الممصوصة الخالية من الدسم ، ويذهب في وصف الستات قائلاً : "عمر الست ما تبقى ست إلا من ظهرت عليها النعمة ، بلا موضة بلا قلة أدب يا نص رجالة ، قبل ما تكملوا تلاتين

سنة تبلبعوا فياجرا ومقويات ، إلهي يخرب بيت أبوكم وبيت اللي يعرفوكم" .

تبادلنا الأحاديث ، وخاصة التي يرددها عم رجب ، فيقال أن عم رجب عرف بما يتقاضاه العاملين في الكنترول ، وصمم أن يصبح عضواً ، وقالوا : إنه ملَّ من كثرة الطلبات التي قدمها متبعاً الطرق التقليدية ، ليس لديه ما يفيض عن حاجته وحاجة الأسرة الكبيرة التي يعولها حتى يقدم هدية تتناسب وصاحب المقام العالي ، لم يستسلم ، وزاد من تمسكه شيئان لا ثالث لهما ... أن زوجته عرفت من زوجة صاحبه كم يتقاضى في السنة الواحدة من وراء العمل بالكنترول ، رغم أنه يعمل آخر النهار في محل بيع أحذية ، ولكن هناك فرق كبير ، وأما الأمر الثاني الذي أشعل النيران في بدنه فهو أن الحاج أحمد قريب السيد وكيل الوزارة التحق بالكنترول ، وهو ليس في حاجة لمزيد من الأموال ، فهو يمتلك اثنى عشر فداناً من أجود الأراضي الزراعية ، وأملاك أخرى وعقارات ، وعندما يحدثه يضحك ويقول له : "البحر يحب الزيادة" ... تنهش الغيرة قلبه ، وليس الحسد ، فهو راضٍ بما قسمه الله له .

فيوم طلب من وكيل الوزارة قريب الحاج أحمد أن يوافق فلم يوافق ، ويوم انتقل وكيل الوزارة ، وجاء القادم الجديد والجميع يهنئونه صمم أن يدخل عليه المكتب ، وأقسم بأنه لن يتحرك إلا بعد مقابلته ، وأغلب الموظفين بمكتب خدمات وكيل الوزارة يعرفونه ، فرغم ثورته لم تفارق الضحكة وجهه ، حتى عندما دخل على وكيل الوزارة قائلاً : "أنا مش جاي أقولك مبروك ... أنا جاي أقولك أنا عندي اتناشر عيل ، ومن تلات سنين أقدم للكنترول وأترفض .... تصدق يا باشا ... خدوا اللي عنده اتناشر فدان ، وابن عم وكيل الوزارة ، وسابوا أبو اتناشر عيل ...

مصيبة سودة ، وأنا والله إن ما دخلت الكنترول وسيادتك ما وفقتش ليا هروح أجيب العيال وأمهم ونحتل مكتب سيادتك" .

كانت كلماته تخرج ، وتقطر منها رائحة السخرية والمرح ، فلم يتمالك وكيل الوزارة نفسه من الضحك ، وأمره بالجلوس واستمع إليه ، وابتسامته لا تفارق محياه ، والتحق بالكنترول ، فكان دائماً وكيل الوزارة يسأل عنه ويستدعيه ، أشار إلى أنها الحالة الوحيدة التي يعرفها ، والتي كان من نصيبها الكنترول دون معارف ، تبادلا حديثاً طويلاً عن الفساد ، ولكنهما غلفاه بالنصيب والحمد لله ، تحدثا عن المفروض وألقى بتبعية كل ما يحدث لضعف المرتبات التي يتقاضاها العاملون بالتربية والتعليم ، تسلل حديثهم إلى الجهات الرقابية ، وألقى كل منهم بما يعرفه عن دور هذه الجهات في فساد منظومة التعليم والأوامر التي لا تنتهي بطلبات معارفهم وذويهم حتى ترقياتهم بلا أحقية .

سحب من "الشيشة" نفساً عميقاً ... "من يتجرأ ويتقدم بشكوى ضد القائمين على رأس التربية والتعليم معلوم مسبقاً وقبل إجراء أي تحقيق سيكون نصيبه الجزاء الرادع ... فخدمات مقابل خدمات ، والعدالة مقصوف ظهرها ، ومنحنية ليركب أولو الأمر والسادة ... وفي يوم طلبوا مني أن أذهب للسيد وكيل الوزارة بالمبلغ المستحق عن فترة محددة ، وكان المظروف منتفخاً بصورة رائعة ، يومها همس أحدهم بأنه لا يوازي عشر ما يتقاضاه في المرحلة الأولى فحسب ... يومها تكرم معاليه ، وبعد أن سلمته المظروف صمم أن آخذ واجب الضيافة وأشرب من الينسون الخاص به .

جلست قبالته وبينما كان يوقع على الأوراق التي تتطلب توقيعه ، وسكرتيره الخاص يقوم بتبديلها ، وهو واقف بجواره يتحدث إليَّ بمودة

بالغة ، فانتشيت وتمنيت أن تدخل كل المديرية لتراني وأنا أشرب الينسون وأتجاذب الحديث مع معاليه ليعرفوا مكانتي ، وجاءت مكالمة غريبة فعرفت مما طرأ على وجه معاليه بأنها جهة من أحد الجهات الرقابية ، استمع وتحدث بلهجة أحسستها بأنها متذللة متوسلة وموافقة بما يتحدث به الآخر ، انتهت المكالمة وتنهد تنهيدة عميقة ، وطلب مني أن أحمل سيارة المديرية بما لا يقل عن مئة رزمة من الأوراق البيضاء والمساطر والأقلام وأوراق الكربون والكتب ، وعدد من الأشياء المطلوبة التي طلبت منه في التو ... أشياء كثيرة ، وصاحبنا يفرك يديه ويدَّعي بأنه مجبر على الموافقة .

نعرف جميعاً أن أساس تعيينه موافقة هذه الجهات ، وليست الكفاءة ، وهو يدَّعي أنه مضطر ، أشياء كثيرة من هذا القبيل تحدث والجميع يسعون لإرضاء السادة ... "تعليم إيه يا سيدنا ..." ، كانت ليلة طويلة ، انتهت مع خروج عامل المقهى الذي أعلن أنه قد حان موعد الإغلاق ، مضينا وكلٌّ منا محمل بأفكار لا تنطبق معالمها إلا في شيء واحد ... أن فساد المنظومة التعليمية له مرجعية أساسية ، نحن السبب الحقيقي وراءها .

مَن عنده الجراءة ليتحدث ، ويقول الحقيقة المرة ؟ فلا وجود لاستراتيجية ثابتة للتعليم ، وكل وزير ينتقي مجموعة من العاملين ، فيصيغون قانوناً جديداً وأفكاراً مغايرة للسابقين ، ضارباً بما مضى عرض الحائط ، وعلى الجرائد ووسائل الإعلام أن تهلل لمعالي الوزير وأفكاره التي ستنقل البلاد لعصر النانوتكنولوجي ، في مفترق الطرق وكل منا لطريقه امتدت أيدينا بالوداع ، وهو يشد على يدي ، وما لبث أن قال هامساً ... : "أنا لا أشتغل في كنترول واحد ، لي مكان في كنترول

الثالث الابتدائي ، والثالث الإعدادي ، وكنترول دبلوم التجارة الثانوية" ... فتمنيت له التوفيق .

من يوميات مدرس ... مؤدب صاحب المقام العالي

استدعاه لحجرته ، فسقط قلبه بين قدميه ، وتسارعت الدقات ، وتواردت الأسئلة تباعاً ، هل يستبعدونه من لجنة النظام والمراقبة ؟

لكنه قدم المطلوب ، فقد استوفى الأوراق والشروط ، ودفع المبلغ المعلوم ، وحُدد المبلغ بمائة جنيه ، دفعها مقابل الموافقة على أن يناط بهذا العمل ، نعم ... هناك آخرون دفعوا أكثر لكنهم سيقبضون أكثر ، نعم ... هناك هدايا تنوعت ما بين خروف ثمين ، وحمل صغير ، وديوك رومية ، وخلافه ...

وهناك آخرون تسعى هذه الأعمال إليهم ، ويكلفون بالعمل إرضاء لذوي قربى لهم ، أسماؤهم كفيلة بأن تُلقي الرعب تارة ، وبعضهم أسماؤهم لها رنين خاص في دهاليز السلطة ، والآخرون ممن تهتز أذيالهم وأذنابهم تملقاً للرئيس وزُمرته ومَن بيدهم الأمر ، لا يتورع أحدهم أن يحتفظ في ذاكرته ببعض النكات الخارجة عن المألوف ليدخل البهجة في قلب زمرة أصحاب الشأن ، ومنهم المسرع لاهثاً معداً للمشروبات ، أو منظفاً لنرجيلة الرئيس كصبي القهوة ، كلهم ممن يعملون في حقل التعلم والتعليم ، ترصد عيونهم تربية الأبناء ، من تحت أيديهم يشب الفتية ممن يحملون علماً .

لم يستطع النهوض مباشرة من مجلسه ، دعا الله في سريرته أن تكون الدعوة خيراً ، لم يكن يوماً يهوى الدروس الخصوصية ، كم تأزمت

حياته العائلية بأفكاره التي تمنعه أن يجري وراء أي كسب ، لم يتألف مع المجموع ، منَّ الله عليه بأبناء ، يحسده ذويه وأقاربه عليهم ، حازوا مراكز متقدمة في العلم والأدب والرياضة ، لم يعد راتبه يكفي لسد حاجتهم ، عرف الطريق بعد أن عرف الجميع أخباره عن كيفية الوصول للجنة النظام والمراقبة ، كان منذ أعوام ليست كثيرة يتحدث بصوت تنحني له هامات الآخرين .

مضت الأيام ، وتتابعت الأعوام ، واهتز الساق ، واشتعل الرأس بالبياض ... سهر الليل لا ليقرأ كعادته سلفاً ، أو ليستجلب فكرة ليحل مشكلة في مجال العلم ... لكنه سهر يحسب نفقات المنزل والأبناء ... يقتطع من هنا ليكفل لهذا ، يقتص من مصروف تعوده بضع جنيهات ؛ ليوفر لأحدهم مطلباً ، أحس أن ثروته في هذه الدنيا أولاده من صلبه وأولاده من فكره تلاميذه .

لقد دفع مرغماً ، دفع المبلغ زميل يعلم معاناته وآماله ، جلس طوال الليل يحاور الأرقام ويناورها ، حتى يحظى بميزانية تكفل لهم الحياة ، تتابع العجز وكادت تتراكم الديون وهو ممن يخاف غلبة الدين وقهر الرجال ، لا مفر فالتنازل عن المبدأ لن يفسد كل المبادئ دفعة واحدة .

استقام من جلسته ، وامتص لعابه ، ودعا الله من جديد ، أشياء كثيرة ، ورؤى متعددة هامت بفؤاده المثقل ، ارتج فؤاده وهو يلج الحجرة الكبيرة المترامية الأطراف الثرية الأثاث ذات الجو المنعش من آثار جهاز التكييف ، جلس الرئيس على كرسيه أمام مكتبه ، وكان شخص غريب يجلس في تلك الحجرة ، ما إن دخل حتى استقام له الغريب وحياه في

حرارة ، حاول أن يشحذ ذاكرته عله يتذكره ، لكن لم يسعده الحظ يوماً أن يراه ، يبدو في مكانة مرموقة تعكسها ثيابه الأنيقة ، ووجاهة تؤكدها ثقته في كلمته وضحكته وابتسامته الواسعة ، لم تخنه ذاكرته من قبل بسهولة ...

ابتسم الرئيس ، وقلما ابتسم لإنسان أو معلم من مرءوسيه ، فابتسامته أشاعت في جسده الهدوء والراحة ، طلب منه الرئيس أن يجلس ، وما لبث أن قدم إليه الزائر سيجارة ، فامتنع وشكره ، وبلهجة آمرة ومتوددة طلب منه أن يأخذها ، ورغم أنه لا يحب مجرد الرائحة أخذها ، أخذ يقلبها بين أنامله ، وأشعلها له بقداحته الذهبية ، فنفث منها بتريث ، لكنه أخذ يسعل ... ضحك كلاهما بدون تردد ، وأخذ كوب الماء ، وبعد أن فرك السيجارة في المطفأة ... قال له الرئيس أن الأستاذ في حاجة ماسة إليه ، وقف الزائر ، فوقف بدوره ، كان في عينيه سؤال ، عاد الرئيس مكرراً أن يذهب معه ، فقال له أنه ربما يعترضه الأمن ، ابتسم بابتسامة مقتضبة وطالبه بالذهاب ، أذعن لمشيئته ومطلبه ، ومضى خلفه دون أن يلفظ كلمة واحدة ، وخرج من الباب الرئيسي ، وفتح باب سيارة فاخرة مما يتحدثون عنها ، ويطلقون عليها أسماء متباينة ، دخل السيارة ، وطالبه أن يدخل ، امتثل لأمره ، وفتح الباب وجلس بجواره ، وفي كلمات قليلة توجه إليه بالحديث قائلاً :

. بعد نصف ساعة ستأتيك أوراق إجابات الطلاب .

. نعم ، يا أفندم ... !!!

. ستقوم بالفحص ...

. بمساعدة زميل آخر ...

. لا يهمني الزميل الآخر ... ما يهمني هو أنت ...

. لماذا ... ؟

. رشحك سيادة الرئيس دون سواك للقيام بهذا المهمة ...

. أي مهمة ؟!!

. أخرج الزائر ورقتي إجابة .

. هاتان الورقتان ...

. ماذا ؟؟

. هذه الورقة خاصة بابن الأستاذ ... وهذه الورقة خاصة بابن

السيد ... ستضعها في مكانها المعتاد ... عقدت الدهشة لسانه ، لم يستطع السؤال ... تردد ... أغرق رذاذ الماء جبهته ... فقال مسرعاً بكلمات كأنها أمر ... ستدفع هاتين الورقتين بعد أن ترفع الأخريين دون أن يلحظك إنسان ...

. ولكن ... !

. لا تخف ...

أشياء كثيرة تدور في ذهنه ، وأفكار قديمة تعبث في ذاكرته ، وتدفعه حاجات ملحة ، عامان متتاليان وهو يقدم فروض الطاعة والولاء ؛ ليحظَ بثقة الكبراء ممن بيدهم الأمر ، ولم يتعد ما يتقاضاه أسوة بزملائه الربع ، وتتقدم يده بمبلغ لمن يسطر الأسماء برشوة قسراً عنه ، حتى يضعه في مكان يرتفع به بعض الشيء ، ربما يزيد من مكافأته ، الآن يطلبه الرئيس ويكلفه دون غيره أن ينفذ طلبات السيد المحترم .

عمله لا يتعدى الكشف عن الأوراق القادمة من اللجان المختلفة ، وإعادة ترتيبها وفقاً لأرقامها المتسلسلة ، والكشف عنها ، والتأكد من أرقام الاستمارة ، وعدم وجود أي علامات داخل الأوراق ، كثيرون يقومون بهذا العمل ، وهم أدنى المجموعات ، ومَن يرتضون بالقليل ويصمتون ، هل حظه السيئ الذي أوقعه في هذا العمل ؟ واليوم يطالبه بفعل لا يرتضيه ضميره ، هل يرفض ؟ ما النتيجة ؟ هل يقول ؟ ولمن ؟ فالقادم من يطالبه بالفعل الشائن يقوم باستجواب حتى وكيل الوزارة ، وهيئته تتربع بسطوتها فوق الجميع ، فهو ينتمي لأكبر جهاز رقابي في البلد ، إنه يستطيع أن يجازيه بما يشاء ، ويريد مَن ينصره ، فلا طريق آخر ، ولا مورد رزق آخر منه يكفل لأولاده الحياة ، عاد للحديث في قلق ظاهر ...

. لو عرف الرئيس !!؟

. هو الذي استدعاك ...

. لماذا أنا ... ؟

. أنت مصدر ثقة له ...

. ولماذا لا يفعلها ... ؟ لم يستطع أن يكمل عبارته ...

. أنت مجنون ... إنه الرئيس ، بيده كل شيء ، وفي العام القادم ستضمن مكانك في اللجنة أيضاً ... ابتسم ، وصنع ابتسامة تفيض بالمرارة والألم ، رسمها رغماً عنه ، ودسَّ في يده ورقة من فئة المائة جنيه ، وأخبره أن الرئيس لا يعرف عنها شيئاً .

وبين قبول وإحجام ... بين ضمير يئن ، ومعدة تشتهي طيب الطعام، بين فكر معلمٍ ، وسائل يبغي الحياة ، كانت تنزل من عينيه دمعة ، فوأد

الدمع ، وأخفى الأوراق بين طيات ملابسه ، ودخل مرتجف الأوصال ، وقابله الرئيس في الطريق ، فابتسامته الواسعة أشاعت الهدوء والتقزز معاً ، وتأكد أن غداً سيكون أفضل .

***

مطلوب ترحيله فوراً

لم يشأ أن يتحدث إليها ، ألقت بتحية الصباح بوجه ينذر بسحب قاتمة ، بدت على ملامحها علامات التذمر ، رد تحيتها باقتضاب ، فتحركت بتثاقل ، آثار الحمل بدت واضحة ، تحركت ويدها خلف ظهرها ، تحاملت ، نظر إليها باشتياق ، وتخوف إن حاول مساعدتها أن تنهره ، مضت شهور خمسة منذ باعت أساورها الذهبية ، كم تمنت أن يحصل مقابلها على عقد عمل في بلد عربي ، يومها كانت تغمرها السعادة والفرحة .

تمضى الأيام ولكن لا جديد ، الأيام القادمة تثير الخوف والقلق معاً ، والحاجة إلى النقود أصبحت ماسة ، شهور قليلة وتضع مولودها الأول ، كيف الطريق ؟ أسئلة كثيرة تتابع في رأسه ، هل يذهب للرجل الذي اتفق معه ، ويسحب المبلغ الذي دفعه مقابل العقد ؟ ربما يندم بعدها ، لن تؤيده في فكرته ، فهي مثال للصبر والتحمل ، راضية برغم الصعوبات ، أما اليوم فشكلها أثار خوفه عليها ، كم مرة حاول أن يسحب النقود ، ولكنه في طريقه إلى منزل صاحبه ، كان الخوف يكبل أقدامه ، والآمال تتداعى في صور متتابعة ، عقد العمل ، السفر ، الفَرَج ، الأماني ، الابن أو الابنة القادمة ، المدرسة الخاصة ، السيارة، أحلام تتعانق ، تتشابك خيوطها في عرض الشارع ، تمرق السيارة بجواره ، ينطلق نفيرها ، فتذهب الفكرة وتتبخر في الطريق ، ثم تعود الأفكار فتتسابق ، ولكنها هذه المرة تهبط لحيز الواقع ، هل يمضي إلى الجزار ؟ تتهافت نفسه لكيلو من اللحم .

زوجته في حملها تحتاج لما يعينها ، فالطفل يشاركها طعامها ، يحسبها بسرعة دون أن تخترق يداه جيبي بنطلونه ، لا يكفي ، الفواكه تتعانق ... فهذا موز مستورد يتدلى في شكل مبهج يدعو مَن يمتلك أن يقطف ويدفع ، والتفاح بلونه الأحمر القاني يلوح له من بعيد ، فيحجم وتحجم معدته عن التفكير ، ويسترد وعيه وهو ينظر إليها بحالتها وبقلبها الطيب ... وعندما يقترب منه سائل يدفع له بابتسامة من وجهه يقابلها السائل ببرود وتجهم ويعرض عنه مباشرة ، فيبتسم أكثر ، أمانٍ كثيرة تتداعى ، وأحلام تتوارد ... يعود لحيز بيته الصغير ...

ينظر إليها ، الإفطار لم يعد بعد ، ينظر لساعة الحائط التي تجاوزت السابعة ، لم يبقَ من وقته المتاح سوى ربع الساعة حتى يصل للمدرسة في موعده المحدد ، حاول أن ينهض من مجلسه لمساعدتها ، ثم استبعد تلك الفكرة ، فربما تستفزها فعلته ، هو بها مشفق وهي تتحامل ، فتذهب إلى العمل ومن العمل تأتي للمنزل ، فكر أن يأتي بأمها لتشاركه وتخفف عنها ، إنه الحمل الأول لها ، نظرت إليه ساخرة ، فاستبعد الفكرة ، وفهم المضمون فهي تمسك بحذر مصروف البيت ، إيجار ، وأقساط ، وكهرباء ، ومأكل ، ومشرب ، وخلافه ، كان يجد لها عذراً فهي تحبه ، ولا تود أن تظهر أمام أمها باحتياجها ، كثيراً ما تظهر أمام أهلها بأنها في عيشة راضية ، هو يدرك أنها تحبه وتشاركه بقلبها ، ولكن ظروف الحياة وتقلباتها تجعلها في بعض الأحيان ثائرة ...

تقدمت بالطعام ، بسمل وانطلق في طعامه لا ينظر إليها ، لقيمات معدودات وحمد الله ، وأخذ يرشف الشاي بصوت مسموع ، ثم شكرها واستحسن الطعام والشراب ، لم تأبه بكلامه ، لم تصنع حتى ابتسامتها المعهودة ... أكمل ملابسه ، وانطلق ، قبل أن يفتح الباب ، سألها

حاجته لجنيه أو جنيهين ، همت أن تتحدث بحديث بدت بوادره في تجهم وجهها ، وضع يده فوق شفتيها ، رفع يده وقبلها ، هم بالمضي ، فأمسكت به ، استدار ، فابتسمت وامتدت يدها في صدرها ، أخرجت جنيهين دفعتهما إليه ، قبلها ثانية .

***

سمع طرقاتها على الباب ، فأسرع يفتح الباب ووجه تكسوه ابتسامة واسعة ، رائحة البصل المبشور ما زالت في يده ، نظرت باستغراب ، أغلق الباب ، وأخذها في حضنه ، ودار بها ، حاولت أن تبعده ، فلم يطع أمرها ، أجلسها على أقرب مقعد هاتفاً "مولاتي" وبصورة تمثيلية مسرحية ... "مولاتي إن السماء لا تأسَ على القلوب العاشقة" ... ابتسمت وعلامات التساؤل والدهشة بادية على وجهها ... استطرد ... إن القلوب العاشقة تذهب بأصحابها في جنات النعيم ، ترفل في ثياب الحب والزهو ، تستنشق عبير الحياة ، فتتمادى وتحلم وتحلم وتحلم .

وأمام العيون التي تحب الحياة ، تبدو غابة الأشجار في الخريف مغرقة في الاخضرار والزهور ... مولاتي ... أظن اليوم ميلاد جديد لحياة جديدة ... هيا مولاتي اخلعي عن نفسك أي ألم تعانين منه واخلعي ثيابك حتى ..." ، همت واقفة ، وبدت آثار الضيق فوق وجهها ، ألقت بحقيبة يدها بعيداً وهتفت به ...

– الله يرضى عليك ... أنا في عرضك ... أنا تعبانة ...

قفز عالياً راقصاً ... دائراً حول نفسه مغنياً ...

– أنا تعبان ... يقولوا ... تعبان ليه يا روح أمك ... لا أنا مش تعبان ... وهتعب ليه ... الدنيا حلوة ... حلوة ...

- حلاوتها ظاهرة وباينة ... أنا في عرضك ... أنت النهاردة فايق ورايق .

. فايق ... يكونش قصدك حسن فايق ؟ ... (يضحك بصوت ويقلده) ...

للأسف أنا مسطول ... أنا مش مصدق ... أنا جدع ... أنا ...

يقترب منها ، يحاول أن يطبع فوق جبينها قبلة ... تدفعه للخلف ... يتسمر ...

. يا أخي حرام عليك ريحة البصل ... ريحتك كلها بصل ... يتوقفان عن الحديث ... رائحة تفوح ، شحذا حاستي شمهما ، استدرك الموقف ، صرخ وأخذ يعدو للمطبخ ... خلفه أسرعت ... أخذ يقلب

البصل ... نظرت إليه متعجبة ...

. إية ده ؟

- شوية كباب حلة صنعة إديا وحياة عنيا ، وكمان حبة مكرونة اسباجتي معتبرة وارد إيطاليا ... وحبة سلطة متحوجة ...

. يا حبيبي ... خربتها ...

. ولا يهمك ...

. ولا يهمني خربت ميزانية الشهر ... يا رب أعمل إيه ؟

. سيدتي لم تخرب الميزانية بعد ... بيت مال المسلمين مكدس ... هيا .

مولاتي الفاضلة ... هيا سأنهي الطعام بسرعة ... ها هي التقلية احمرت ... وها هي المكرونة اتسلقت ، والطماطم متصفية والكباب قرب يستوي ... هيا ... اخلعي الملابس ، وارتدي اللباس الأسود الشفاف

، لا ... ليكن أحمر شفاف ... يظهر معالم الـ ... ما أحلى اللحوم البيضاء .

. أنت بتخرف ... أنت اتجننت ...

. لا ... لا ليس بعد يا مولاتي ... أقسم لن تتناولين قطعة من الطعام إلا تحت شروطي ... هيا اصنعي ابتسامة ، ضعي في جهاز التسجيل شريط رقص ، ليكن شريط لأغنية لا ندرك معانيها من أغاني الموضة ؛ حتى نأكل ونرقص ويرقص جنيننا ...

. والله العظيم ، أنت جرى لمخك حاجة النهاردة ، أنا هسيب لك البيت وأمشي ...

. لا ... لا أرجوك (يركع على قدمية ويعقد يده فوق صدره)

مولاتي أرجوكِ ... لا تخافي ، لقد فتحت أبواب السماء على مصرعيها ... لقد نفحوني اليوم نفحة مباركة ، وهبوا كل مدرس منا ... سبعة عشر جنيهاً إلا قروشاً قليلة ... حوافز ... ماذا أفعل بهذا المبلغ العظيم ... ؟؟؟

. يا أخي حرام ... تدفع فاتورة الكهرباء ... ولا قسط البوتاجاز ... والأكل عندنا من امبارح ...

. هكذا يا مولاتي فكرت في بادئ الأمر ... لكنني استبعدت الفكرة تماماً ... جنيننا القادم سمعته في المساء ، وأنت نائمة يئن ويتوجع ، سألته عما به ، فعزف عن الإجابة أول الأمر وأبى ، ألححتُ عليه في السؤال ، وأخيراً استجاب قائلاً ... لقد ضاق صدري بالفول والطعمية وما شابههما ، ونوعية الأكل تصعب عليَّ التنفس ... سألته عن حاجته ، فأجابني بأن المطلوب أن أغير رائحة الطعام ولو لأربع وعشرين ساعة

فحسب ... الملاك القادم يطلب مني ، فهل أرد له طلبه ؟ هل أدير له ظهري يا مولاتي ... هل ... (قاطعته بحدة وبقوة) ...

– كل براحتك ... بدل ما تفكر في الأكل فكر في بكرة ... النهاردة ، لا نملك شيئاً ... نعمل إيه ؟ بكرة وضع وبعده سبوع ، سبحان الله يا أخي ... حرام عليك ... احنا عاملين جمعية بعشرين جنيهاً في الشهر لأجل الولادة والسبوع ، وأنت فرحان ومبسوط ... الله يساعدك ويسامحك ... تركته وأسرعت إلى حجرة النوم باكية وكلماتها تقطر حزناً وتشكو آلاماً تعانيها ... ذهب خلفها ، وابتسامته لم تفارق وجهه ...

. الآن يا مولاتي سأزف لكِ البشرى ...

. الكتاب يبان من عنوانه ...

. كتاب حياتي يا عين ... (صاحت ووحاولت أن توقفه ... استطرد) ...

شوفي يا هانم ... (أخذ يعدل من هندامه ، وما زالت مريلة المطبخ عالقة برقبته ... ثم انتفخ قائلاً ...) شوفي يا هانم ... أنا الليلة سأحصل على عقد عمل ... هـ ... هـ ... ما رأيك ؟ ... جلست فوق المقعد ، وارتفع حاجباها بدهشة ، فأغمض عينيه وأخذ يحرك حاجبيه ، تغيرت ملامح وجهها ... بكت أول الأمر ، ثم أخذت تضحك بهستيرية غير مصدقة ...

. حقيقي ... حقيقي ... ؟

. أقسم لكِ ... نهضت متثاقلة ، وطوقت رقبته بذراعيها ، وقبلته ، هم أن يرفعها بين ذراعيه ، فصرخت ، ضحكا وانتشيا في حلم جميل ، وصاغا الأحلام ... ارتفع صوت جهاز التسجيل بأغنية راقصة الأنغام لا يدركان من كلماتها شيئاً ، تراقص جسده أمام مائدة الغذاء ، كلما همت

بأن تنتهي من أكلها أرغمها على العودة ثانية ، وهي بين إحجام ورغبة ترغب في المزيد ، تبادلا الأحاديث الجميلة ، اتسعت الشفاه بالابتسامات الفياضة بشاشة وشكوراً ، لم يستنفذا ما عندهما على مائدة الغذاء ، انفجرا فوق المخدع الطري في قبلات ورشفات ... وأمنيات ، وتداولا الموضوعات ، ولم يسغرقا في النوم كعادتهما وقت الظهيرة ...

كانت الابتسامة تغمر وجهه ، والدنيا أمام عينيه مغرقة في الأفراح ، وغبطة العصافير الشادية تراها عيناه لأول مرة ، والأفكار تتوارد ، لا يكبح جماحها ، فعقد العمل في جيبه ، والطريق أمامه ممهد ، وفي الطريق إلى المدرسة لم يرصد أي حركة ، ولم يتفحص وجهاً يعرفه ، ولم يلقِ بتحية ، كان يهدهد قلبه كل لحظة ، سابحاً مفكراً آملاً في الغد ، تمتد يده إلى جيب جاكت بدلته ... يداعب العقد بأنامله ، اتسعت ابتسامته ، فسألوه ، أجابهم ، توالت التهاني من زملائه ، واختلفت وتباينت مشاعرهم ، بين مهنئ له ، وآخر قانط من حظه العاثر .

توالت الأسئلة تباعاً ، من أين ؟ وكم دفع ؟ وكيف الطريق ؟ انطلق لسانه بالحديث مغايراً للحقيقة ، فقد كان وعده للرجل ألا يتحدث أمام أحد عنه ، إجابته كانت غير مقنعة أحياناً ، ومقنعة في أحيان أخرى ، كانت الحصة الأولى أمام التلاميذ ، كلها مرح وسعادة ، استشعر الأبناء بأن في الأمر شيئاً سألوه فأجابهم ، وأظهر لهم عقد العمل ، وتوالت الأسئلة ، وتدفق حديثه متفجراً ضاحكاً ، واستطاع ذهنه الولوج لنواحٍ شتى ، فاستلهم ذهنه النكتة الطريفة والموقف اللاذع ، سعد الأبناء بالحصة ، سعادة لا توصف .

انطلق لمكتب المدير ، ومدير المدرسة يبدو في مظهره شيخاً هرماً يتوكأ على عصاه ، ضليع في أعماله وخاصة الإدارية ، لا يفلت من

تحت يده الخطأ ، يراجع أعمال مرءوسيه بدقة ، ويجنح في تقاريره السرية لمن يقدر أهميته ، عمال المدرسة تحت إمرته ، فهم وسيلة نقل كل معلومات المدرسة إليه ، نسبته في الدروس الخصوصية لا يقدرها بنفسه ، يتركها لتقدير كل مدرس ، لسانه رغم شيخوخته المبكرة لا يلزم مكانه ، وعيناه قابعتان خلف نظارة سميكة ترصدان جيداً ، ساعياً للاستفادة بكل ما تملك يداه ، وكثيرون مقربون يقدر ظروفهم المزمنة ، وساعات عملهم الخارجية بقدر عطائهم له ...

تقدم ونفسه تتوجس منه خيفة ، فهو في عمله مجتهد وعطاؤه داخل المدرسة لا حدود له ، يشارك في كل شيء ، لكنه لا يجيد عبارات الغزل في مرءوسيه ، لا يجيد الأعمال الخارجية ، تقدَّم وصنع ابتسامة فوق وجهه ، كانت دهشتة عظيمة ، استقبله فاتحاً ذراعيه ، مباركاً ، وداعياً له بدوام التوفيق ، وكانت مفاجأته الكبرى دعوته للعامل ، وطلب منه مشروباً ساخناً ، لم يصدق عينيه ، أسرع العامل يلبي أمر السيد المدير ، فهو يعرف أنه وقبل أن يمضي يجب أن يدفع مثلاً تبرعات لمجلس الآباء ، ويدفع له بإيصال لا حقيقة له ، حاول أن يبدو هادئاً رصيناً ، توالت الأسئلة ، وهو يرشف الشاي .

والمدير يشرح له ، ويستفيض في الشرح ، الطريق إلى الإدارة أولاً ، ثم المديرية ، وأهمها بالطبع التوجيه ، صورة من عقد العمل الموثق ، وقبل أن ينصرف ، ابتسم له وغمز وسأله إن كان يعرف مقاس جلبابه ؟ ضحك وأوما برأسه مستجيباً لمطلبه ، وأشار عليه بنوع الجلباب الحريري والصوفي ، فابتسم له ، وشد على يديه ، واستأذنه في الانصراف للتوجه إلى الإدارة التعليمية ، أذن له ، ودعا له بالتوفيق ...

لليوم الرابع على التوالي ، لم يكل أو يتكاسل ، ذهبت الابتسامة ، وكأن تجاعيد جبهته بدأت تظهر ، كانت الإدارة ترسله إلى التوجيه ، والتوجيه بدوره يرسله إلى المديرية ، والمديرية تطالبه بالتريث ؛ لأن السيد وكيل الوزارة مزاجه ليس على ما يرام .... انفرج الباب أمامه ، وكيل الوزارة ينظر إليه بتقزز ظاهر ، هو رجل قانون له باع طويل ، من أسرة سطرت منها أسماء كثيرة ، لا يضيره شيء ، نظر إليه من جديد ، وبعد أن ألقى بنظرة متفحصة على عقد العمل ، رفع حاجبيه ... وتساءل ...

. يا بني ... يا أستاذ ... هذا العقد سابق لأوانه .

. نعم ... !! نعم ، يا سعادة الباشا ... !

. العقد ده تبله وتشرب ميته ...

. ليه ؟

. يا أستاذ ... احنا عندنا نقص في المادة دي ...

. يا باشا فيه فائض لدرجة إن أي مدرس لا يكمل نصيبه من الحصص .

. أنت هتفهمني شغلي يا أستاذ ... ؟

. آسف يا باشا ... بس ...

. بس إيه ... الواحد فيكم ما يكملش سنة ، ولا سنتين وعايز يهج ... فين قوميتك ... فين مصريتك ... البلد اللي دفعت دم قلبها عليكم ... استفادت إيه منكم ؟ ... انتظر شويه يا أخي ... احتمال سنتين تلاتة ، وتجيلك إعارة ، وتسافر براحتك ... الله يرحم أيام زمان ... الشباب كل همه يلم الفلوس ويجري ...

وأخذ يلقي بمحاضرة فوق رأسه ، فلم يسمع منها شيئاً ؛ لأنه سرح بفكره بعيداً ، تذكر زميلاً له على الدرجة نفسها ، وفي العمل نفسه ،

بمجرد أن حصل على عقد عمل ، فتحت له الأبواب ، وتذكر أن خاله عضو بمجلس الشعب ، امتص لعابه وصمت ، فاق من طوفان فكره الشارد ، وهو يسأله ...

. أنت متأكد أن العقد ده حقيقي ؟ ممكن يكون مزوراً ...

. إنه موثق يا سيدي ...

قطع الحديث الدائر دخول سكرتيرة السيد وكيل الوزارة ، زاغت عينه بعيداً عنه ، وذهبت تراقب الخطوات القادمة من نهاية الحجرة المهيبة الجمال والأثاث ، اتسعت ابتسامة السيد لا إرادياً ، ونظر خلفه ، فوجدها فائقة الجمال ، مزركشة الثياب ، في وجهها فتنة زادتها الألوان بهاءً ، كانت متفجرة الأنوثة ، باسمة الثغر ، متحركة في خيلاء كطاووس في حديقة التربية والتعليم ، تأملها بدقة ، فلم يكد ينتهي ، تغيرت ملامح وجهه ، فقد تجهم الوجه وعبس ، طالبه بالخروج ، والانتظار ريثما يأذن له ، ويطلب السيد الموجه العام للمادة ... مضت حوالي ساعة منذ دخلت السكرتيرة ، تململ في مجلسه ، ولم يجد شيئاً يشغل به وقت فراغه ، وعندما خرجت ، هم بالدخول ، فمنعته .

انتظر حتى يحضر السيد الموجه العام ، لم يحضر ، ساعتان وخرج السيد وكيل الوزارة ، سأله ، فطالبه أن ينتظر للغد ... تسرب الخوف في قلبه ، وبدا أمام زوجته واثقاً ، لم يشأ أن يعكر صفو ابتسامتها ، وجمال حديثها ، وأغرقها في الأحلام ، لقد علم الجميع أنه مسافر ، كثيرون يعرضون خدماتهم عليه ، أم زوجته التي دائماً تنهر ابنتها وتؤنبها على زواجها منه ، قدمت وابتسامتها تملأ وجهها ، وعرضت عليه ما يريد ويطلب من مال ، كان يبتسم أمام الجميع ويشكرهم ، وتصر الأم

وتدفع لبنتها المال ، فتأخذه زوجته وتعلم أنه سيرده ، تتجاوز أحلام زوجته الواقع .

كان يصمت ، والخوف يتملكه ، والآمال الكبيرة تتوارى أمام صورة السيد وكيل الوزارة ... كان يصلي وزوجته غارقة في النوم حالمة ، فيدعو ويتقلب في فراشه حتى الساعات الأولى من الصباح ، وينتظر الصباح بكل الصبر ، ويحدد خطاه ، وموعده في الجوازات لاستلام جواز سفره ، وموعده عند السيد المدير العام ، وأوراق كثيرة تعتمد ، وأختام ... كادت دموعه تتفجر ، وتماسك ، وحاول أن يبدو أمامها قوياً ، أجمعوا أنه لا يوجد اكتفاء في المادة التي يدرِّسها ، وأنه من الصعب الاستغناء عنه في هذه الفترة ، فحاول معهم ، فعزموا أمرهم على شيء واحد ...

. يا سعادة الباشا أنا دفعت كل ما أملكه في مقابل العقد ...

. يا أخي اسأل قبل ما تدفع فلوس ...

. أسأل مين ... ؟ الأستاذ ... نفس التخصص ، ونفس دفعتي ، ويوم ما أخذ العقد في خلال أسبوعين سافر ...

تململ الموجه العام في مجلسه ، وحاول أن يبدو هادئاً ...

. يا بني كان في أيامها زيادة في المادة ...

. يا أستاذي الفاضل نفس المادة ...

. إيه يا أستاذ ... إيه اللي جرالك ، هتعلمنا شغلنا ؟ ... يا سيدى تعالى اقعد مكاني ...

. سعادة الموجه ... أنا آسف ... أنت رجل خبرة وأستاذنا ، واحنا إن رحنا ولا جينا تلاميذك ... بدا وكيل الوزارة مستاءً من الحديث الدائر ، نظر إليه ، وهو واقف كالخادم يستجدي ، والموجه العام يجلس واضعاً ساقاً فوق ساق ، وتوجه بالحديث إليه ...

. شوف يا بني ... رجع العقد ، وخذ الفلوس خسارة ...

. يا سعادة الباشا دي فرصة عمري ... أرجوك يا سعادة الباشا ... اسمعني ...

. أنا سامعك ... اتفضل ... خلص ...

. يا سعادة الباشا نصيب المدرس أسبوعياً ستاشر حصة ... كل مدرس منا يا دوب بيأخذ تمن حصص فقط ، يبقى إزاي في عجز يا سعادة الباشا ... انفجر الموجه العام قائلاً :

. أنا عارفك ... طول عمرك بتاع مشاكل ، وغاوي قلق من بكرة إن شاء الله هنقل تلت مدرسين من المدرسة علشان تستريح ... غاوي تعب ... احنا بنقول نريحهم ...

. أرجوك يا سيادة الموجه افهمني ... أنا واقع في عرضك ... أنا بعت مصاغ مراتي ... واستلفت وادينت علشان أجمع المبلغ ... ولسه عليَّ مبلغ باقي ، وظروفي ما تسمحش .

. وأنت حد ضربك على إيدك ؟ ... توقف وكيل الوزارة عن حركة كرسيه الدائرية ... وامتدت يده إلى القلم الأحمر ، وبخط جميل سطر كلماته (حاجة العمل لا تسمح) ، وامتدت يده بالورقة إليه ، نظر إليها ، وقرأ ...

. يا سعادة الباشا ده حرام ... انتفض الموجه العام ...

. أنت مجنون ... "حرام" ... حرمت عليك عيشتك ... أنت نسيت نفسك ولا إيه ... أنت عارف أنت بتكلم مين ؟!! ...

- يا فندم عارف .

. عارف إيه ... مدرسين آخر زمن ... أنتم مدرسين أنتم ؟ لما تعرف أنت بتكلم مين ... وتعرف إزاي تتكلم ...

. يا فندم عارف ... قدروا ظروفي ...

. ظروفك أنك تتطاول على السيد وكيل أول وزارة في التربية والتعليم ؟ ... سامع ؟ التربية ... التربية يا أستاذ ... الباشا اللي قاعد قدامك ده احتمال في الحركة الوزارية الجديدة يبقى وزير للتربية والتعليم ، أنت إيه ؟ ... أنت في الوظيفة اسمك مكتوب بالرصاص يا دوب مدرس ...

(لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فصاح) :

. سيادة الموجة أنا لم أخطأ بعد ...

. يعني ممكن ...

. لا مش ممكن ...

. براحتك ... أصله زمن غريب ... الواحد فيكم يتمسكن لغاية ما يتمكن ... نسعدكم ، ونسفركم ، والواحد منكم يجي راكب عربية طولها ستة متر ، ومفكر إنه مالك الدنيا واللي فيها ...

. يا سيادة الموجه أرجوك ... أنا لا راكب عربية ، ولا عايز عربية ، أنا عايز أعيش ... ظروفي تعبانة ...

. كل الناس تعبانة ، كلها تهج يعني ... ؟

. يا فندم أنا مش مسافر أمد إيدي أتسول في الشوارع ، أنا مسافر أشتغل ... وكله خير للبلد ، وبدي فرصة لناس تانية تشتغل ...

ضحك وكيل الوزارة بصوت عالٍ ، ثم سعل بشدة ... قائلاً ...

. برافو ... برافو ... أنت يا بني مدرس عظيم ... إن شاء الله هرشحك تكون من المدرسين المثاليين ...

. شكراً يا سعادة الباشا ... أنا مش طالب وسام ، ولا طالب مثالية ... كل اللي أن طالبه أن أسافر (نظرا إلى بعضهما ... وتوجه وكيل الوزارة بالحديث للموجه ...) :

. إيه رأي سيادتك ...

. لا يا سعادة الباشا ... مفيش سفر ، ظروف الإدارة لا تسمح ، ولا يوجد فائض ...

نظر إليه ... وصاح بصوت فيه حدة ...

. ما تضيعش وقتك يا بني ولا وقتنا ... انتهى هذا الموضوع ...

. يا سعادة الباشا ... أنا ...

. قلت انتهى ...

. يا سعادة الباشا ... أرجوك اسمعني ...

. يا أستاذ السيد وكيل الوزارة وراه أعمال غيرك ...

. قلت انتهى ... اتفضل ...

. طبعاً أتفضل ... لو أنا ابن واحد من إياهم ... لو خالي عضو في مجلس الشعب ... لو أعرف الطريق زي الناس التانية ... أقل شيء كان اتقال لي اتفضل اقعد ... نص ساعة وأنا واقف ، ولا خادم ، نص ساعة ، وأنا أستجدي في حق من حقوقي ... نص ساعة ... وأنا قربت أبوس إيد كل واحد فيكم ... قاطعه الموجه العام ، وقد وقف وحاول أن يكتم فيه ... أزاح يده ... واستطرد ... الزميل اللي سافر بنفس الطريقة ... كل واحد فيكم وافق له ... كل واحد فيكم يتمنى يخدمه ... كل واحد يجري وراه ، أنا للأسف أبويا الله يرحمه كان راجل عامل بسيط ، لا احنا من الناس الكبار ، ولا من الناس إياهم ... الله يسامحكم ... الله المستعان ...

انفجر وكيل الوزارة :

. اخرج ... اخرج بره ... أنت متطرف ... أنت إرهابي ... أنت مش أستاذ ... انفرج الباب ، واندفع كل الراقصين والراقصات ... اندفعوا جميعاً وأخرجوه عنوة ...

انزوت الآمال ، وتشابكت الآلام كخيوط عنكبوتية أول الأمر ، بمرور ساعات ، تصلبت خيوط العنكبوت ، فصنعت شبكة دقيقة من سلك صلب ، من بين براثنها يستطيع أن يتحدث ... حاولوا أن يخرجوه بصور متعددة ، لم تفلح المحاولات ، كانت آخر الصفعات ذهابه للوزارة ، لم يستطع مقابلة أي مسئول من أولي الأمر ، واحد فقط لا يعلو كثيراً في رتبته عن مديره العام نصحه بالعودة والتريث ، وأشار عليه بصعوبة مقابلة الوزير ، أو أي من معاونيه ، لم يسترد صوابه من يومها ...

أسبوع وبضع أيام مضت ، كلت يداه ، وتثاقلت قدماه ، وتجاوزت محنته آفاق خيالاته ، وعاد لمدرسته مقضب الجبين ، آثار المأساة واضحة جلية ، شاركه بعض زملائه قلباً وقالباً ، والبعض أظهر ضيقه وألمه ظاهرياً ، وتناثرت الأقوال من حوله ، ووصلت الإشارة إلى المدرسة بضرورة حضوره لمبنى الإدارة ؛ لإجراء التحقيق القانوني معه ، لم يشأ مدير المدرسة أن يبلغه الأمر ، همَّ بالمضي في نهاية اليوم الدراسي ، فطالبه بأن يجلس معه ، ومضى الجميع ، فأبلغه بالأمر ، ورسم ابتسامة حزينة فوق وجهه ، وأومأ برأسه مستجيباً وشاكراً ، ثم امتدت يده مصافحاً ومضى ...

حاولت زوجته أن تبدو في صورة طبيعية أمامه ، وحاولت أن تتصنع الابتسامة لكنها كانت باهتة ، وكان الحديث مملاً متكرراً ، كما كان الحديث عن الأمل والمولود القادم فاتراً لا يحرك فيه بهجة ، كانت دقات ساعة الحائط ناقوساً ضخماً ، وصوتها يكاد يصيبه بالصمم ، وبدت هالة

سوداء تحت عينيها ، وساعات النوم محددة قبلات الصباح والمساء على شفتي زوجته يتناساها كثيراً ، وفي كثير من الأحيان تطبعها فوق شفتيه ، أحاديث تتردد في آذانه ... حاول أن يفكر في طريق ، لكن سُدت كل الطرق ، حاول أن يعقد أملاً على إنسان يساعده ، ويفرج عن كربه فاستبعد الفكرة .

تألمت بجواره ، جنينها يعربد ، حاول أن يرفع عنها ألماً بكلمة طيبة ، فتثاقل لسانه ، فما خرجت كلمته لحيز الوجود ، أغمض عينيه ثانية ، فتسربت دموعه قسراً فوق مخدعه ، نهض مسرعاً ماسحاً دموعه أول الأمر ، وارتدى ثيابه على عجل ، فأسرع الخطى للخارج ، سمعت صوت غلق الباب ، فانفجرت في البكاء ...

كان صديق عمره وصفي روحه أيام الشقاوة والصبا ، انفرج الباب بعد طرقات ، طالعه وجه زوجة صديقه ، وانفجرت شفتاها بابتسامتها الطيبة ، وانطلق صوتها منادياً لزوجها ، فهرول مسرعاً ، فاستقبله في شوق ، وكأنه لم يره منذ أمد طال ، رغم أنه في الصباح كان معه في المدرسة ، أراد منه أن يخرجا مباشرة ، وأمام إصرار زوجة صديقه أذعن لشرب الشاي في البيت ، كان صديقه يعلم ما به ... دار الحديث دورات متشعبة في العمل تارة ، وفي الحياة تارة أخرى ، هو يتحدث عن الموت والحياة ، وهو يفكر في الظلم ، ويحاول أن يغوص به في قضية ما ، وقضيته ، وأمانيه وحدها هي كل أفكاره وطموحاته .

كان الصديق يواصل حديثه بين رشفات الشاي ، بينما كانت عينه معلقة بصورة في الجدار لطفل صغير فوق وجنتيه الناعمتين دمعة ...

جالا على شاطئ النيل ، ولم يشأ صديقه أن يحدد وجهة ما لطريقيهما ، ترك له حرية التجوال ، وحرية الجلوس ، وحرية الحديث ، كانت كلماته

قليلة جداً ، كان مألوف عنه لياقته في الحديث ، وجاذبية الكلام ، وجمال النكتة ، وضحكاته المجلجلة ، انطلق لسانه قائلاً :

. أعمل إيه ؟

. سلمها لله ...

. الحمد لله على كل شيء

. يمكن تتعدل خلال شهرين ويوافقوا لك ... أمامك ستة شهور والعقد في جيبك ...

. إمتى ؟

. النهاردة ... المدير بلغني إن االشئون القانونية هتحقق معايا ...

. إمتى ؟

. النهاردة .... آخر النهار بلغنى المدير ...

. ليه ؟

. يا سيدي ، سيادة وكيل الوزارة والموجه العام وأنا باطالب بحقي كان صوتي عالياً ...

. ولا يهمك ...

. تعرف ... أظرف حاجة إن سيادة وكيل الوزارة اتهمني بإني إرهابي .

. فرصة ... رُبَّ ضارة نافعة ... في تحقيق الشئون القانونية احتمال أن تأخذ حقك ... وربنا علام الغيوب .

. أنت جرى لمخك إيه ؟ الشئون القانونية خاضعة لقرارات السيد وكيل الوزارة ... يعني بصريح العبارة إن قرر سيادة وكيل الوزارة إنني تطاولت عليه ، فكلامه صواب ... إن قال إن أنا إرهابي يبقى أنا إرهابي ... ربنا يستر ... يقاطعه ضاحكاً ...

. يا سلام !!! بالسهولة دي ... يا أخي حرام عليك ... إرهابي يا عم دي فيها أمن دولة ومصايب متلتلة ... انسى الموضوع فكَّر في حاجة أفضل ... (قاطعة غاضباً) :

. يا حبيبي أنا وأنت ناس يطبق عليهم القانون ، والقانون طبعاً خادم لأسيادنا أسياد اللي خلفونا ...

. أنا ألتمس لك العذر ...

. نعم ... تقصد إيه ... مجنون ...

. العفو يا سيدى ... لازم تتأكد ، القانون قانون يطبق على كل الناس ... لكن ظروفك عاملة غشاوة على عينك ، وأنا متأكد إن الشئون القانونية لا يمكن ...

. متكملش ... يمكن ومؤكد ...

. يعني خايف ؟

. طبعاً ... أنا خايف ، وخايف من نفسي أكثر ... الخوف قرب يسيطر على كل حتة في جتتي ... ساعات بيتهيألي ...

. سيبك من خيالات الأطفال ...

. أقسم لك إني بفكر أعمل أي حاجة ... آخذ حقي من أولاد الـ ...

. سلمها لله ، ونصيبك يصيبك ...

. يا أخي ما أنت عارف ، طول عمري ماشي جنب الحيط ، سأله عن مدير مدرسته ، ولماذا لم يعرض عليه الموضوع ، وإن كان عرضه عليه ، فليلتمس منه المعونة في حل المشكلة ، وأخذ يضرب له الأمثلة في قدرات الرجل ، وإمكانياته المتعددة في حل ما استعصى من مشكلات ، وحاول أن يبتعد عن دائرة المدير ، ولكن صاحبه صمم على رؤيته .

– أنا معايا أربعين جنيهاً زيادة (وأخرج يده من جيبه ...) ... خدها واشتري علبة شيكولاتة شيك ، وعلى بيته على طول ، وأنا متأكد حتلاقى معه أكتر من حل .

حاول أن يتردد فصمم على رؤيته واشترى ما أراد ، ودعه عند بداية الشارع ، كان الاستقبال حافلاً ، شدَّ على يديه بقوة ، وقاده لحجرة الاستقبال ، وتناثرت عبارات الترحيب به ، كانت هديته جديرة بالحفاوة ، بين رشفات القهوة ، استمع إليه ... قص عليه كل شيء ، فتفاعلت تجاعيد وجهه مع حكايته ... أنصت إليه مفكراً ، وهو ينظر إليه ... ينتظر منه مشورة ، ومستجدياً أملاً ، ربما يستطيع تحقيقه ، ارتفع بصره ... ثم استقام من مجلسه ، وأشعل سيجارة ، فابتسم له ، عاد للجلوس ، وهم بالسؤال ، فلم تسعفه قريحته ، تريث ثانية ، وحك رأسه بيده ، وأطرق طرقات متتابعة بيده ، فاتسعت ابتسامته ، واعتدل قائلاً ...

– قال إنك إرهابي ... ؟

– أيوه ...

– جميل ... أنت إرهابي فعلاً ...

– إيه ؟

– حل المشكلة ...

– مشكلة إيه ؟! سيادة المدير !! "إرهابي إيه" ... أنت ناوي أروح الليمان ... ؟

– لأ ... تروح بره وتسافر تعملك قرشين ... (ضحك بشدة ، وأكمل) ومتنساش المقاس ... حط إيدك في إيدي ... وتشابكت الأيادي ، وقرآ الفاتحة ... أصبح الأمر بينهما سراً ، مَن يقص ما حدث تقتص منه فاتحة الكتاب ، اقترب الصوت من الهمس ، لم يصدق أذنيه ، حاول أن

يوقف استطراده في الحديث ، أسكته ، وأمسك بالورقة والقلم ، وخط كل الخطوات التي عليه اتباعها ، تخوف ، وارتعشت أطرافه ، واهتزت أنامله ، وتناثرت حبيبات العرق فوق جبهته ، وملأ الخوف قلبه هلعاً .

مدير المدرسة ينظر إليه ، ويواصل الشرح ، قسم الخطة إلى نصفين ، نصف مكلف هو به ، والنصف الآخر خاص بمدير المدرسة .

***

استقبله متسائلاً ، وطالبه بالجلوس ، وأمسك بيده ، وطالبه أن يدفع الحساب ؛ ليذهبا إلى البيت ، وأكثرَ من أسئلته ، فلم يجبه ، جذبه بقوة ، فتوقفا ، وسأله ...

. عملت إيه ؟

. سيبها لله ...

. قال لك إيه ... ؟

. سيبها لله .

. أنت بقيت درويش ... ؟

. يسمع منك ربنا ...

. مفعول الهدية ...

. استقبال حافل ... وقهوة مضبوطة ...

. والحل ... ؟

. ربك يسترها ... طابت يا اتنين عور ...

حاول من جديد ، لكن كانت إجاباته مقتضبة ، فحاول أن يخرجه لحيز آخر دون جدوى ، وودعه ، ومضى كل منهما لسبيله .

***

كانت الظروف مواتية ، اليوم هو المكلف بالإذاعة المدرسية ، انطلق في حديثه ، لم يحجم ، ولم يأبه لشيء ، تحدث بكلمات حق يُراد بها باطل ، هتف وإسلاماه ، وندد بالحكومات الإسلامية ، ودعا للجهاد ، المسلمون في البوسنة والهرسك يُقتلون كالكلاب ، ونساؤهم تُغتصب على ملأ من العالم ... أمريكا والعالم الغربي ودعاة الإنسانية يتركونهم ، الحكومات العربية والإسلامية لا تملك سوى الشجب والاستنكار ، رأس الأفعى أمريكا ، والغرب يمارس عادته القديمة .

قديماً استأصلوا الشعوب المسلمة في الأندلس ، وكان لهم ما أرادوا ، ونادى بالجهاد ، ونادى ... كانت كلاماته مثيرة ، الجميع مشدوهون ... كيف يتجرأ ، ويتحدث بهذه الصورة ، هل أصابه الجنون ؟ هل عدم حصوله على موافقة السفر أخرجته عن شعوره ؟ هاج الطلاب ... ردَّد أمامهم الله أكبر ، وردد الطلاب خلفه الله أكبر ، الموت لأمريكا ... اهتزت الجدران لهتافات الطلاب خلفه ... الموت للتابعين لأمريكا ...

أسرع مدير المدرسة ، وخطف ميكروفون الإذاعة المدرسية من يده ، فاختل طابور الصباح ، امتص بكلماته حماس الطلاب ، فالطلاب في سن حرجة ، والمدرسة أكبر مدرسة ثانوية في المدينة ، داوى بكلماته الرقيقة عواطف الطلاب الجياشة ... استتب الهدوء بعد العاصفة ، وارتفعت سحب السخط من فوق وجوه الطلاب ، وتفاعل المدرسون مع كلماته ، لكن خافت ألسنتهم البوح بما يعتل في صدورهم ...

أما صديقه وزميل دربه ودراسته فلم يصدق أذنيه ، ظن أن به مساً من الجن ، وأرجع ذلك لما يعانيه من ألم وضيق ، فأسرع إليه وحاول أن يهدئ من روعه ، واقتاده إلى حجرة المدرسين ، وألقى بأسئلته المتتابعة ، فلم يحظَ بإجابة واحدة ، حاول أن يشرح له أنه ملقٍ بنفسه لمصائب لا

يدركها ... لم يستمع لكلماته ، اجتمعوا من حوله ، ولم يشجعه أحد ... ألقوا عليه باللوم ، انطلق أغلبهم للفصول ، واستدعاه مدير المدرسة ، كان في حجرة المدير العديد من المدرسين ، أمامهم وعلى مرأى منهم جميعاً أخذ يكيل له الاتهامات ... الدعوة للتجمهر ، وإثارة الشغب بين الطلاب ، وإثارة الفتنة ، أمر وكيل المدرسة لشئون العاملين بإجراء تحقيق فوري عن ملابسات كلماته ، وماذا يريد من ورائها ؟ خرج خلف وكيل المدرسة ، وكان الجميع صامتين ، ماذا يفعلون ؟ هل يدافعون عنه ؟ حاول صديقه أن يتحدث ... لكن تملكه الخوف .

نظر مدير المدرسة لكل الوجوه ، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، فأسرعت يده إلى قرص التليفون :

. صباح الخير يا سعادة الباشا ...

. مدير المدرسة الثانوية يا باشا ...

. .....

. أهلا بجنابك يا باشا ...

. .....

– خير ياسعادة الباشا عندنا مدرس أصابه الهوس والجنون و... من كام يوم ساب دقنه وعمل فيها درويش ، والنهاردة في إذاعة الصباح أثار الطلاب بكلمات ...

. .....

. مطلوب اسمه ... المادة التي يدرسها ... عمره ... تمام يا فندم

. .....

. أيوه يا باشا أنا عملت من كام يوم تقرير ، والنهاردة يوصلك .....

. .....

. ماشي يا باشا ... همنعه من دخول الحصص ، وعموماً أنا أمرت بإجراء تحقيق عاجل معه ...

. .....

. طلباتك يا باشا ، سأوقف التحقيق معه ، في انتظار أوامرك ، وأنا سأحضر بنفسي .

***

انسحب المدرسون الواحد تلو الآخر ، لم تتحرك شفاه أي منهم ... ظل صديقه واقفاً كالصنم لا يدرك ماذا يفعل ؟ أمره مدير المدرسة أن يذهب ويستدعيه ويغلق التحقيق ، أسرع إليه ، فأتى معه ، وطالبه المدير بالخروج ... طلب المدير من الوكيل أيضاً الخروج ، وأغلقا الباب خلفهما ، ابتسم المدير في خبث ...

. تحمل ... ولا يهمك كلها أسبوع على الأكثر ...

. أنا خايف ...

. ولا يهمك ... أهم حاجة أوعى تنسى المقاس ...

. أنا جسمي بيترعش ...

. زمانهم جايين ...

. أنا صحتي على قدي ... أنا عمري ما

. اثبت يارجل علقة تفوت ولا يحد يموت ...

. دي بقيت عيشة مرة ...

. شوية مرارة ولا حنضل ... يوم ما تسافر هتأكل فواكه عمرك ما حلمت بيها ... إشي تفاح ، وإشي كريز ، وإشي ...

. يا سيادة المدير أنا هترفد ... وياريت على كده أنا خايف أترمي في معتقل ...

. اوعى تنسى هتقول إيه في التحقيق ، وأنا كلها ساعة ولا ساعتين وهكون وراك ...

. يقولوا الواحد بيتنفخ ...
. ما تبقاش خرع واللي يلعب بالسح ما يقولشي أح ...
. مراتي حامل ...
. ابنك هايجي الدنيا وفي بقه معلقة دهب ...
. يا خوفي ما شوفهوش ...
. اطمن ... هتشبع بيه بس افتكر ...
. سيادة المدير أستأذنك ...
. ممنوع ... أنت مطلوب ... هتروح فين ... ؟
. دورة المياه ...
. طب بسرعة ... بسرعة ...

أربعة أيام متتالية ، أسئلة تتعاقب ، حفظ كلمات المدير جيداً ، أجاب عليهم وفق ما أملاه عليه ، كان تقرير مدير المدرسة يوحي بأنه لم يتحرك في هذا الاتجاه إلا من فترة وجيزة لا تتعدى الشهر الواحد ، وأثبتت التحريات صدق تقرير المدير ، لم ينضم بعد لخلايا محددة ، وتميزت إجاباته بالسطحية المطلقة ... وعيونهم الخبيرة استطاعت إثبات تورطه في الحديث تورطاً له دافع لحظي ، وعاطفة مرتبطة بساعة محددة ... استدعى المدير العام مدير المدرسة ، وبثه همومه وتخوفه مما حدث ، كانت التعليمات واضحة من أولي الأمر والجهات الأمنية ... كان ممنوع تواجد هذه النوعية من المدرسين داخل التربية والتعليم .

ابتسم مدير المدرسة ، ووضع نظارته فوق عينيه ، وسحب من أمامه ورقة بلا استئذان ، وانتحى جانباً ، وحاول أن يسأله ، لكنه لم يجبه ... إنما أشار عليه بيده أن ينتظر ؛ حتى ينتهي مما يكتب ، وبدوره حضر الموجه العام ، وطالبه بالتريث لدقائق معدودات ... شحذ الرجل همته وكتب تقريراً ... تاريخه شهر مضى ، جاء فيه ... بعد التحية والسلام

والبداية القوية ودور التربية والتعليم في بناء عقول أبناء مصر ، أن الاستاذ المذكور دأب في الفترة الأخيرة على التلفظ بألفاظ خارجة ، وعبارات مثيرة للفتن ، ودعوة الشباب للتجمهر ، و... و... ، وبموجب هذا فإن إدارة المدرسة ترفع طلباً عاجلاً باستبعاد هذا المدرس من العملية التعليمية ؛ حفاظاً على أفكار أبنائنا من الانزلاق في تيارات هدَّامة يبغي أصحابها دس الدسائس ، وضرب وحدة الوطن ونسيجه الواحد ، والدعوة الأخيرة بالتوفيق والسعادة لأولي الأمر .

كانت عبارته قوية وأسانيده تبرهن على كم من الوطنية يسكن فؤاده ... قرأ المدير العام ... اتسعت ابتسامته وامتدت يده للموجه العام ، كلاهما استحسن الفكرة ... بقلمه الأحمر خط المدير العام ، لصالح العمل يستبعد هذا المدرس فوراً من العملية التعليمية ، ويوكل إليه بأعمال إدارية بإدارته التعليمية ، أو كعضو فني للمادة للتوجيه ، ويخطر توجيه المادة والإدارة ، وسرعة اتخاذ الإجراء المناسب ، ثم وقع باسمه بتاريخ سابق .

وبدوره أسرع الموجه العام ، لمصلحة العمل يرقى المذكور للعمل كعضو فني في توجيه المادة ، انفرجت وجوه ثلاثتهم عن ابتسامة تقطر ذكاءً ووطنية وولاء للوطن ... استطاع كل من المدير العام ومدير المدرسة والموجه العام أن ينفضوا أيديهم من القضية التي أثارها هذا المدرس المجنون ، وأسرعوا بدورهم للجهات الأمنية ، شدوا على أيديهم ، كلٌّ منهم أحس بالهدوء الذي يتسلل إلى داخله ، كل منهم تأكد أن كرسيه لن يفلت منه ، كل منهم بنى أحلاماً في غد أكثر رقياً ، أو كرسي أكثر ليونة ، ومكتب يفوق الذي يجلس عليه ، أسكرتهم عبارات المديح ...

انتشى كل منهم حالماً بأنه القريب من الكرسي السلطاني ، ابتسم مدير المدرسة ، وانطلق لحال سبيله ... مضى أسبوع ، أربعة أيام في تحقيقات متصلة ، وثلاثة أيام في حبس انفرادي ، انفرج الباب ، طالبوه

بالخروج وفق ما أملوه عليه ، قهرت أشعة الشمس عينيه أول الأمر ، فمضى متثاقلاً ، وقد استطالت لحيته ، وهالة سوداء استوطنت أسفل عينيه ، ذهبت ابتسامته التي كانت ، وقع في نهاية الأمر ، طالبوه بالإقلاع عن أفكاره الهدامة ، وهددوه فأذعن لأوامرهم ... كان الطريق طويلاً من البيت إلى المستشفى ، وزادت ضربات قلبه ، وتوجس الشر ، أسرع مهرولاً صاعداً السلم ، لهث بشدة وبكى فوق صدرها ، بكت بدورها ، تحسس موضع جنينها القادم ، لم يبقَ له وجود ، لثم يدها ، حاولت أن تتكلم ، فجاءت كلماتها متلعثمة ، وضع يده فوق شفتيها ، قبلت يده ، وبصوت يقترب من الهمس قالت أحبك .

انطلقت دموعه ، فتركوا الحجرة لهما ، كان وقع الصدمة عليها قوياً ، وقعت فوق الدرج ، وذهب الجنين ، وكادت تذهب بدورها ، قصت عليه ما حدث في صوت ضعيف ، قبل رأسها ، وطالبها أن تسامحه ، تساءلت عيناها عن السبب ، فاهتزت رأسه ، وهرب من الإجابة التي كادت تخرج من بين شفتيه ، وتعانقت أيديهما ، وحاول أن يقضي ليلته معها ، فطالبته أمها بالانصراف ...

لم يتجه للبيت مباشرة ، تسلل في خوف وترقب إلى منزل مدير المدرسة ، فاستقبله على السلم مبتسماً ، وطالبه أن يسرع إلى المنزل ، وأن يترك لحيته على ما هي عليه ، غداً يحضر للمدرسة لإخلاء طرفه ليتسلم عمله الجديد في الإدارة التعليمية ، وبعد أسبوع يتقدم بطلب إجازة للحصول على عقد العمل ... وقف مذهولاً ، فدفعه المدير للمضي ، وذكره بمقاس الجلباب ، ابتسم في أسى ومضى ، وأسرع ينهي أوراقه ، وافقوا على سفره بعد أن قتلوا ابنه ، استردت زوجته عافيتها ، ودَّعها ، ومضى على أمل ...

الراقصة والأستاذ

كانت القاعة كبيرة ، جلس مبهوراً ضاحكاً بحديث زميله العذب الذي خرج كثيراً عن المألوف ، وانطلق في سرد حكايته العارية الفاضحة ، وحكى نكاته ، وألقاها ضاحكاً ، فأثار حوله زوبعة من الضحك ، فالأماكن من حوله مزدحمة ، والكراسي كلها مشغولة ، فاكتفى بالهمس في أذنه ، وهو لا يستطيع أن يمسك نفسه من الضحك .

كانت جميلة التقاطيع ، ألقت بشعرها للخلف ، كان ما يقارب ربع ظهرها ظاهراً جلياً كالمرمر أو كالبللور الصافي ، ومن الأمام فتحة فستانها المثلثي المقلوب تتسع فتفسح للعيون أن تتفحص ، أما الذيل فدائرى مرتفع مثير ، تعلقت عيناه بها كما تعلقت أغلب العيون ، وتقدمت في ثقة زائدة ، حيث أصحاب المقامات الرفيعة ، وأصحاب المناصب القيادية فتوقفوا بدورهم ، واستأذنتهم ومضت ، وبعد دقائق معدودات أعلن مذيع الحفل عن الفقرة القادمة ... الراقصة ، اهتزت القاعة بالتصفيق مع اهتزازها ، اهتزت كوامن ودوافع ، ارتفعت الأصوات مداعبة بكلمات من الخلف شبابية قاسية ، استنكرت عيون علية القوم كلماتهم ، نظروا إليهم ، تحرك مسئولو الأمن للخلف ، فصمت الشباب ، صفقوا وصمتوا ، وتناغمت الألوان والألحان وغمر اللون الأحمر القاعة وتصاعد دخان السجائر ، حاول أن يبعد بعينيه لكنه لم يستطع ، عربدت أفكاره ، فغمزه زميله وأخرجه من تأملاته ، وطالبه بالصمت ، فلم يصمت ...

– هل أعجبتك ؟ أومأ برأسه مستجيباً لكلامه دون أن يحيد بعينيه عن حركاتها ... لم يصمت قال له ...

– إنها أرض مشاع إن تبغي ...

بعد فترة صمت قصيرة نظر متسائلاً ...

- كم إيجارها ؟ ...
- كم من الوقت ؟
- ليلة كاملة ...
- تقترب من نصف الألف ...

نظر إليه بدهشة ، ثم ما لبث أن ضحك بقوة قائلاً ...

- مرتبي لثلاثة شهور متتالية ... والساعة كم يبلغ سعرها ؟

يكفيها مرتب شهر واحد ... هل تأخدها لساعة ؟

- أستغفر الله العظيم ...
- أفصح ... لا تخف ...
- يا أخي أنا أحب الملكية الخاصة ...

دار بينهما حديث فاضح هامس ، تبادلا فيه موضوعات خارجة عنها وجمالها وفتنتها وموقعها في نفوس الكبراء ، وكيف تفتح أمامها الأبواب المغلقة ؟ وكيف تستطيع بإشارة من إصبعها أن تجعل الجميع يلهثون ويتمنون ...

***

تأخر على غير المعتاد ، واستقل التاكسي ، وفي منتصف الطريق وهو سابح في التفكير في صاحبة الحظوة والمكانة الراقصة بالقلوب ، توقف السائق وقفة مفاجئة أصابته بالاضطراب ، وقبل أن يتحدث تراجع السائق للخلف ، فأضحت على يمينه مباشرة سيارة واقفة وبجوارها وقفت ساكنة صاحبة المقام العالي التي شاهدها بالأمس لأول مرة ، هبط السائق من السيارة ، فلم يجد بداً من الهبوط ، وبدوره عرض السائق خدماته ، وبكبرياء شامخ أخبرته بأنها لا تدري ما السبب ؟ أسرع السائق

يعالج العطب الذي أصاب المحرك ، ثوانٍ معدودات ، واستطاع أن يشغل محرك السيارة ، وكأن شيئاً لم يكن ، حاولت أن تهبه المقابل ، لكن السائق أبى بشدة ، شكرته ، وهو شارد الذهن ينظر إليها ويتمعن عن قرب ، وتشدو داخله ترانيم هوس وعشق بجنون ، ما كاد يهيم بركوب السيارة ، سألته عن طريقه ، فأجابها في همس حالم ، سألته ثانية عن معرفته بالقيادة ، أومأ برأسه معلقاً معرفته بها ، في تودد وابتسامة صاغتها طالبته إن أمكن أن يذهب معها ، لم يفكر في إجابة ، أسرع ووهب السائق المبلغ المتفق عليه ، وانطلق السائق لحال سبيله ، وجلس هو إلى مقعد القيادة ، وفي لهجه ماجنة وقبل أن يدير محرك السيارة ألقت باعتذارها ، وساقت السبب الرئيسي إنها تشعر بدوار في رأسها ، تمنى أن يسألها عن السبب في الدوار العالق برأسها ، يلح سؤاله في جوفه ، وفي نفسه يعلم الإجابة ... طبعاً لتوها عائدة من سهرة ... قطعت فكره متسائلة ...

– هل تعرفني ؟ ... أدار محرك السيارة ، وابتسم مجيباً مراوغاً ...

– لم أسعد بذلك من قبل ...

– ماذا تعمل ؟

– مدرساً .. وأنت ...

– في الوقت الحالي راقصة ... وضحكت بشدة ، وأكملت ... وفي الغالب .. أعمال حرة ...

كلماتها الراقصة مع ضحكتها العالية تصيب جسده برعشة غريبة هامت بها الأماني ، وطافت بذهنه لحظات سكرى سريعة أيقظته من غفوته ، وهي تضحك قائلة ...

– أنا أدين بكل ما أنا فيه من فضل لمدرس .

– نعم ... !! كيف !!

– كان جاراً لنا ، وكنت وحيدة أمي ، وكنت متعسرة في الدراسة ... كنت أجد صعوبة بالغة أن أفهم شيئاً بدونه ...

تمهل في السير بالسيارة ، وكأنه يخاف الوصول ، ويتمنى أن تبتعد المسافة ... وردد ...

– أستاذ عظيم ...

– وهو فعلاً كذلك ...

– ولذلك ، فأنا أحب هيئة التدريس ...

– جزاك الله خيراً ... مهنة الرسل والأنبياء ...

كلمته بمودة ، وطالبته أن يتوقف على جانب الطريق ...

– لنتمش أو نجلس بعض الوقت ، فإنني أكاد أختنق ...

– لك ما تريدين ...

أحس بالسعادة ، ستكون فرصة كبيرة له ليتجاذبا أطراف حديث ، قد تداعبها كلماته ، قد تجري له تخفيضاً خاصاً ، فهي تحترم مهنة التدريس ، أشعلت سيجارة لها ، وقدَّمت بسيجارة له ، شكرها ، فهو لا يدخن ، توقف بالقرب من السيارة ، تسحب نفساً عميقاً من سيجارتها ، وتنظر إليه ، وهو يبتسم ويمني نفسه بأنه أصبح أكثر قرباً ... نظراتها غريبة ... تبتسم مرة ، وتتجهم أخرى ... غمزت له بعينيها ذات الرموش الصناعية الطويلة المكحولة بعناية فائقة ، ابتسم وحاول الكلام فلم تسعفه قريحته ، التصق لسانه بسقف حلقه ... فضحكت بشدة ... حاول أن يولي وجهه الجهة الأخرى ... وضعت يدها على كتفه فاستدار ناحيتها ... فابتسمت وعاجلته بسؤالٍ مباغت ...

– في أي مرحلة تدرس ؟

– الثانوية ...

– أولاد أم بنات ؟

– كلاهما ... فأنا على قوة المدرسة الثانوية بنين ، وآخذ ثلاثة أيام ندباً في الثانوية بنات ...

– هل تعطي دروساً ؟

– أحياناً ...

– لماذا ؟

– المرتب ، لا يكفي في الغالب ...

– متزوج ؟

– أخاف ؛ لأنني لا أمتلك ...

– عندك شقة ؟

– نعم ...

– تأتيك الفتيات ؛ لتأخذ الدروس فيها ؟

– أحياناً ... وبعض الأسر ترغب أن أذهب إليهم ، فأذهب ...

– أيهما تفضل في الدرس ... الأولاد أم البنات ؟

– كل منهم يدفع ...

– الأفضل ... ضحك بشدة ...

– الأفضل لي مَن يدفع ...

– أعتقد البنات أفضل ...

– لا أفهم ما تقصدين ...

– حتى إن كنت متزوجاً ، فالبنات أفضل ... تقضي معهنَّ وقتاً أكثر متعة .

– متعة ... !! بدون حياء عادت تتحدث ...

– تتعانق الأنامل ... أو تمتد اليد لتعبث ...

– تعبث !!

– نعم ، في المناطق البكر الناضجة حديثاً .

– هل تستطيع أن تحصي تعدادهن ... ؟

– مَن تقصدين ... ؟

– الفتيات ... مَن فتحت أمامهنَّ أبواب المجد ... لا تغضب ، هذا حديث ودي ... افتح قلبك ، وتحدث ، وكأنك تتحدث إلى نفسك في خلوتك ... هنَّ في أمسِّ الحاجة لمداعبتك ، وخاصة أن الظروف مواتية وسهلة ... هل رأيت كيف ترتعش الفتاة الصغيرة بين يديك ؟ الشفاة البكر أكثر عذوبة ... وإلى أى مدى وصلت ؟ لم يدرك ماذا يقول ؟ فهي تصف أشياء غريبة ، وتتحدث بهمجية وثقة زائدة ... شيء غريب يتملكه ... ينظر حوله ، وكأنه يتمنى أن يأتي أحدهم وينقذه مما هو فيه ، ذهبت كل الأفكار التي تمناها ، وكل اللحظات السكرى التي داعبت خياله ذهبت ... والليلة السعيدة ... والهوى المخمور ... أن يكون معه بمفردها ، كان فكره يذهب في كل الاتجاهات ... لا يدرك هل هو خائف ؟

ظل صامتاً يفكر ، وهي تتحدث إليه بعبارات غريبة ، وتصف ساعات لهو بين تلميذة وأستاذ ، وتضحك وهو ينكمش ، وتحكي وهو يمتص لعابه ، وتسرد أشياءً ، وهو يتأفف أن يحكي بها لزميل وصديق ، تتقدم خطوة للأمام ، وهو يتراجع ... مجنونة هي ؟ لا يدري ... هل هي خارجة لتوها من سهرة حمراء ؟ تجرعت فيها الكأس تلو الكأس ؟ ... كم يد لمستها ؟ كم واحد تناولها بعناق حار ، كم شفاه لثمتها ؟ كم ... كم ... كم ؟ كثير من الأسئلة تتوارد .

أشعلت سيجارة من جديد ، وعادت تواصل الحديث بسخرية لاذعة منه وأمثاله من المدرسين ، أخذت تصفهم بصفات كثيرة ، لم يحس بنفسه ... انطلق صوب أول تاكسي ، وتوقف مباشرة ، ألقى بنفسه داخله ، وطالب السائق بالإسراع ، والسائق يتساءل ، وهو يجيب بإجابات غير مقنعة ، يصل لسمعه هو والسائق أيضاً سبابها ودعوته ألا يذهب ، ينطلق السائق ، كابوس غريب ... ليلة غريبة ، إنسانة تموج بثورة لا يدرك لها معنى أو سبباً ... كم تمنى الاقتراب منها ، كم استطاعات أن تفجر داخله شياطين ونوازع ، تمنى أن يهمس إليها ... أن يراها عن قرب ... أن تشاركه مرحاً محرماً ...

توقف السائق عند المكان الذي حدده ، وهبط مسرعاً من السيارة بعد أن أعطى السائق حقه ، دخل لشقته ، وألقى بنفسه على أقرب مقعد ، وأسبل جفنيه ، وكأنه يستعيد ما مر به من حوادث ، دق جرس الباب ... الساعة تجاوزات الثالثة صباحاً ، أصابته الدهشة ... ما إن فتح الباب حتى وجدها أمامه بشحمها ولحمها ، كادت تطلق ضحكة عالية ، أسرع ووضع يده فوق فمها ، كيف عرفت الشقة ؟ وكيف وصلت ؟

يتذكر الآن أنه وصف المكان لها بدقة ، وقال ساعتها ربما تمن بزيارة ، ها هي وراءه زائرة ، وأي زائرة ... وكم الساعة الآن ، هل قادت السيارة بنفسها ؟ هل كانت تتصنع عدم قدرتها القيادة لتلقي شباكها عليه ؟ أي شباك وعلى مَن ... عليَّ أنا ، وهناك مَن يجلس ببابها ، ويتمنى ودها ... بشوات وأصحاب مكانة عالية ، دفعت يده ونظرت إليه بقوة غريبة ، تقدمت للداخل ، وهو يتراجع ، أغلقت الباب خلفها ، وقال بصوت متذلل يقترب من الهمس ...

– أنا في عرضك ... قاطعته بحدة ...

– لماذا هربت مني ؟ ... لقد ...

– يا سيدتي الفاضلة ... عندي حالة مغص شديدة ، لم أستطع الانتظار ... أن ... لم تجعله يكمل حديثه ...

– خائف !! من أي شيء ؟

أفسح لها طريقاً لتجلس ، فجلست بكل ثقة ، وألقت بحقيبة يدها على مقعد آخر ، وخلعت حذاءها ، وألقت به بعيداً بقدمها ... حالة من القلق والخوف تنتابه ، ولكنه لا يدرك ماذا تفعل ؟ حاول أن يصنع ضحكة فوق شفتيه ... فخرجت باهتة بلا معنى ، تقص عليه مع حركتها عن مدى ذكائها وفطنتها ، فبمجرد أن وصلت للعنوان ، وأضيء المصباح تأكدت من شقته ، وجاءت مباشرة ...

– سيادتك ... تشربي إيه ... ؟

– بيرة ... أو ... بصوت مرتعش ...

– ممكن حاجة تانية ...

– عندك إيه في التلاجة ... ؟

– شاي ... قالها بصوت متهدج ، فخرجت حروفها ... حرفاً حرفاً ... أطلقت ضحكة عالية ، فأسرع ، ووضع يده على فمها متوسلاً ، شم أنفه رائحة فمها ، فتأكد أنها ليست في حالة طبيعية ، رفع يده ببطء وما زالت يده ترتعش ... ضحكت بصوت خفيض وقالت ...

– شاي في الثلاجة !! بتشرب شاي بارد ... يا بارد ... لم يدرك أنه قال هذه الكلمة ...

– عندي كوكاكولا ... تمر هندي مثلج جميل ... وممكن أعمل لسيادتك شاي ... وهي تغمض عينيها وتفتحهما بصعوبة بالغة ، وفي كلمات متقطعة ...

– ب ... ي ... ر ... ة ...

وذهبت في النوم ، لطم خديه ، ولعن نفسه يوم ذهابه ، ولعن اللحظة التي قابلها فيها ، ماذا يفعل الآن ؟ وساوس كثيرة تركب رأسه ثانية معاتبة ... هذه فرصتك "ها هي بين يدك" ، ينظر إليها ، وما زال الخوف يركب رأسه ... هي في حالة سكر شديدة ، وربما أخذت مادة من المواد المخدرة القوية ... ربما ماتت هنا ... "يعود ، ويندب حظه ويلعن يومه ... غطت في نوم عميق ، يقترب منها ... يتأكد أنها لم تمت بعد ... يدور في أرجاء الشقة ... ماذا يفعل الآن ؟ يضرب رأسه في الحائط ... "كيف أتت بنت المجنونة ؟" ، يخرج للشرفة ، ويتأمل أسفل المنزل ، فيجد سيارتها الحديثة وهي واقفة أمام الباب ...

فتحت عينيها ، ونظرت في أرجاء الحجرة الغريبة عليها ، لم يبد على وجهها أي دهشة ، كانت تتثاءب بقوة ، وألقت بالغطاء الخفيف من فوق جسدها ، نظرت لما ترتديه ، وجدت فوق جسمها جلباباً أبيض يبدو أنه كان مهملاً ، صرخت وهي تنظر للجلباب ، قفز من مكمنه الذى يرقد فيه بجوار المخدع فوق أحد المقاعد الكبيرة ، أسرع بجوارها ، وأخذ يربت على ظهرها في تودد ظاهر ، بدون تردد وقفت فوق السرير ، ورفعت الجلباب ، وصرخت في وجهه ...

– ما هذه القذارة ... ؟

أخذت بناصية الحديث بمفردها ...

أين ملابسي ؟ ومَن الذي آتى بي هنا ؟ كيف خلعت عني ملابسي ؟

اقتربت منه ، وقالت بكلمات شرسة ، وقد انفرجت عيناها ... ماذا فعلت بي ؟ عاد لصوابه ، وقال بلهجة فيها تودد وتوسل ...

– أقسم لك بالله العلي العظيم ... لم أفعل شيئاً ...

– مَن خلع عني ملابسي ؟

– يا سيدتي الفاضلة كل ما في الأمر وجدتك تتنفسين بصعوبة بالغة بعد أن داهمك النوم في حجرة الاستقبال ، فخفت عليكِ ... أغمضت عيني ، ورفعتك بين يدي ، وجئت بك لهذه الحجرة ؟ كنتِ تتألمين بصورة غريبة ، وتتكلمين بكلمات غريبة ، فخفت من تلك الملابس الضيقة التي ترتدينها ، فقمت ...

لم يستطع أن يكمل حديثة المتوسل إليها ، أشارت إلى الجلباب ثانية ، وأخذت تصفه بالقذارة ، وهو يعتذر ويعرب عن ألمه لذلك ، ويسوق السبب كونه لا يجيد عملية الغسيل ، والغسالة أصبحت مجرد قطعة حديد خردة ، وهي ما زالت واقفة فوق السرير ... أسرعت بخلع الجلباب بضيق بالغ ، أصبحت بملابسها الداخلية فحسب .

ولّى وجهه الناحية الثانية وأسرع بالخروج ، ابتسمت ساخرة ... أخذ يلقي إليها بقطع ملابسها من خلف الباب ، لكنها قفزت من فوق السرير ، وفتحت الباب على مصراعيه ، فأدار وجهه للناحية الثانية ، طالبته ببيجامة نظيفة ، أشار عليها وبصوت خافت أنه يوجد دولاب بجوار السرير ، ولتختار البيجامة التي تريدها ، أغلقت الباب بقوة وأخذت تعبث في الدولاب ...

وهو يضرب كفاً بكفٍّ ساخطاً على ليلة أمس وما حدث ، خرجت عليه ببيجامة صيفية ، سألته عن حقيبة يدها ... أسرع وأتى بها ، فتحتها وأخرجت علبة السجائر والولاعة الذهبية ، فهمَّت أن تشعل سيجارة ، امتدت يده بلا استئذان ، وأخذ السيجارة ، وطلب منها أن تتناول الفطور أولاً ، أشعلت السيجارة بدون تردد ، أخذها من فمها وأطفأها ، وحذرها من أن تشعل سيجارة ...

وقف في المطبخ يجهز الإفطار ، ووقفت خلفه تتأمله ثم خرجت ، وأخذت تتجول في الردهة ، كانت الردهة عبارة عن مرسم صغير صور جميلة ولوحات بالغة الروعة ، ولكنها كلها بلا تنظيم جيد ، وفي الجوانب فرشة ألوان ، وألوان متباينة ، وحبر ، وأقلام ، وكتب ، ومجلات ، وأشياء كثيرة متناثرة ...

جلست أمامه على مائدة الإفطار الصغيرة ، تأكل بنهمٍ غريب ، يتأملها ، وهي تختلس النظرات ... تتأمله ... تقابلت عيونهما ... ابتسمت ... فأحس بخدر غريب يتسلل إلى جسده ، ابتسم بدوره ، فضحكت ... وشاركها الضحك وهو لا يدري ...

– ما اسمك ؟ أجابها بسرعة ... عادت وسألت ...

أظن تعمل بالتدريس ... تنهد بعمق ، وقال ...

– الله يخرب بيته ... ضحكت بشدة ...

– مدرس ثانوي ؟

– نعم ، وحاصل على الماجستير ، وفي طريقي للدكتوراة ...

– لماذا لا تشتغل بالجامعة ؟

ضحك بشدة ، ومال للخلف ، وأجاب ...

– لست مؤهلاً ...

– وما تحمله من شهادات ؟

– غير موثقة ...

– أعرف أن التوثيق مطلوب في حالة السفر للخارج ... ستسافر ...

– المطلوب دائماً الخبرة ...

– كلامك غريب ...

– يا سيدتي تناولي إفطارك ... يا سيدتي أنا رجل فقير ... لست مؤهلاً لأحتل منصباً محجوزاً مقدماً ، وأهلي ليسوا من ذوي الشأن ، وهذا هو التوثيق في هذه الأيام ...

– أنت فنان ...

– العملية مجرد قتل للوقت ...

– لوحاتك ... قاطعها ضاحكاً ...

– القرد في عين أمه ... فنان ... ضحكت وقالت مغنية ...

– يا غزال يا غزال ... العشق حلال ...

انطلقت في الغناء ، وأصابعها تداعب المنضدة بنغمات راقصة ، وما لبثت أن رفعت يديها من فوق الطاولة ، وطرقت بأصابع يديها ، وغمزت بعينها ، واهتز نصفها العلوي راقصاً ... ابتعد بنظره عنها وقام ليجهز الشاي ، بين رشفات الشاي وتوابع التبغ المحترق من سيجارتها ... جلست ووضعت ساقاً فوق أخرى ، وصدرت منها آهة عميقة وسألته ...

– ماذا حدث أمس ؟

– مسحت وجهك مما كان فوقه من مساحيق وألوان ... وتأملتك وأنت نائمة بوجه ملائكي ... كنتِ جميلة ، وأي جمال ، لم أرَ مثيله في حياتي كلها ...

– دعكَ من هذا ... قبل ذلك ...

أخذ يقص عليها –وهو يبتسم– ما حدث منها ، وجنونها ، وكم السخرية التي سقطت فوق رأسه وسبابها له ، وخوفه وهروبه حتى أتى وهي وراؤه ... إلى هنا ... ابتسمت ، ثم صمتت عن الحديث ، وأخذت نفساً عميقاً ، وأخذت تحدثه بأسى بالغ على وجهها بأنها كانت وحيدة أمها ، كان الجميع يقولون عنها إنها جميلة ، وكانوا يصبون كلمات

الإعجاب فوق أذنيها الغريب قبل القريب ، كان يسكن بجوارهم مدرس يشهد له الجميع بخلقه ، وكان يساعدها في استذكار دروسها ، وكانت تجد صعوبة كبيرة في المذاكرة بدونه ، وهو الوحيد الذي لم يحدثها يوماً عما تمتلكه من جمال ، وهذا أثارها ...

صمتت ، وأشعلت سيجارة أخرى .. وحكت له أنها كانت تهيم به وبحديثه ، وهو كان يعاملها كطفلة صغيرة رغم ما حدث في جسدها من تغيرات يشهد الجميع بأنها كانت في غاية الإثارة ، داعبته بعينها ... لم يأبه بذلك ، وغض النظر ، تصنعت أن تلمس قدمه بقدمها ، ابتعد بقدمه حتى أنامله ... أبعدها ، صفعها بشدة فوق وجهها ، كان يعتبر أنها بمثابة الأخت له ... قاطعها ...

– لا أود أن أعرف شيئاً ...

– لماذا ؟

– يبدو أن هذه الذكرى تسبب لك ألماً ، وأنا حياتي كلها مأساة ، فلستُ في حاجة للمزيد ...

– كنت أحبه بجنون غريب ... كنت حاقدة على زوجته وأولاده رغم كل ما تقدمه لنا ، وما تحيطني به من رعاية ... كنت أتمناه ، وهو لا يتمنى سوى زوجته فحسب ... كانت عادته كل عيد أن يشتري لي فستاناً جديداً ، بل وكان يعطيني "العدية" مثل أولاده تماماً ... كل مدرسي المدرسة الثانوية كانوا يتمنون مداعبتي وكنت أصدهم ، حاولت بكل شيء ، وما أمتلكه أن أجذبه ناحيتي ، لكني لم أفلح .

كان يلقي فوق رأسي كل يوم بنصائح كنت ألقي بها في سلة المهملات ، حتى جاء الدور على درس في اللغة الفرنسية ، وعندما علم باسم هذا المدرس أبى بشدة ، ولكنني ذهبت ، كان رقيقاً في معاملتي ،

كان خفيف الظل واسع الحيلة ، أعطاني موعداً مغايراً لموعد الدرس ، وكنت أعلم ما يدور في خلده ، كدت أتراجع ، ولكن كان هناك شيء غريب يركب رأسي ، مقتي وكراهيتي الغريبة لجارنا العظيم ، أخذت الدموع مجراها فوق وجنتيها العامرتين باللهيب ، حاول أن يوقف سيل حديثها ، لكنها استطردت ... ذهبت وفعلت وذهبت كل الأشياء الجميلة ، ولعنت نفسي ، وألقيت التهم تباعاً عليهم جميعاً ... أمثالك ...

مسحت دموعها ، ثم ضحكت ومالت برأسها للخلف ...

من فتاة إعلان بأجر إلى بائعة ... ثم أعمال حرة ... ثم راقصة وصاحبة بيت يرتاده السادة والكبراء ...

– وجاركم ...

– ليرحمه الله ...

– وأمك ...

– ظلت بجوارهم حتى وافتها منيتها ، ولم تعش معي منذ هجرتهم ... أحس بدوار غريب ... مضت في خطوات متثاقلة حتى ارتمت فوق السرير ، وذهبت في النوم ... استيقظ قرب العصر ، جهَّز لها مائدة غذاء شهية ، ولم ينسَ زجاجتين من البيرة ، أخذت حماماً سريعاً ثم أقبلت على الغذاء معه ، حاولت معه أن يشاركها في الشراب، ابتسم ولم يشاركها ، تفرع الحديث ...

وداعبها بكلمات طيبة ، لم يشعر ناحيتها بهوس ، كان يغمره بالأمس تورد وجهها ، وبادلته الضحكات والكلمات غير المبتذلة ، حدثها عن أمانيه ، وأمنيته الوحيدة في الالتحاق بالتدريس في الجامعة ، وحدثته عن أمانيها التي كانت وأمانيها القادمة ، أملت عليه عنوانها ورقم تليفونها ، أكملت لبسها وخرجت عليه في كامل أناقتها ، مال عليها وقبَّل جبهتها

، نظرت إلى عينيه ، وكادت تطفر من عينيها الدموع ، ألقت بنفسها في صدره ، أخذها في حنو بالغ مشبعاً برغبة غريبة ليست شيطانية وليست ملائكية ، انسحبت من بين يديه ومضت إلى الباب ، توقفت ونظرت إليه ، ولم تقل شيئاً ومضت .

لم تمضِ أياماً كثيرة ، دقَّ جرس التليفون ، جاءه صوتها ضاحكاً مجلجلاً ، أحس بخدر جميل ، وهو يحدثها ... تشعب حديثها ، ورنَّ صوتها في أذنيه عذباً رقراقاً ... حددت له موعداً محدداً أن يذهب لمقابلة رئيس الجامعة ... وأن يأخذ معه كل أوراقه وشهاداته ، وضحكت قائلة : "لا تخفْ المؤهلات قوية والتوثيق جاهز" ...

***

بين قبول وإحجام ، وبعد تردد طويل ، لم يجد بداً من الذهاب ... ربما جادت عليه الدنيا ، ذهب وهو يحس بخوف غريب ، تقدم للسكرتيرة الجميلة بطلبه ، وما هو قادم بشأنه ، طالبته بالجلوس ، الحجرة واسعة ، وكثيرون غيره من أعضاء هيئة التدريس وغيرهم ، وزوار يبدو على وجوههم علو الشأن ، ما إن دخلت السكرتيرة وخرجت ، حتى أذنت له بالدخول ، رغم أن كل الجالسين سبقوه في الحضور ، تقدَّم بخطى مرتجفة حتى دخل على الرئيس ، استقبله الرجل باشَّ الوجه ، متهلل الأسارير واقفاً ، فسلَّم عليه ، وشدَّ على يديه ، وطالبه بالجلوس ، وبسرعة أخرج علبة الشيكولاتة الخاصة وقدمها له بنفسه ، أخذ واحدة ...

ثم ما لبث أن ضغط الجرس ، فدخلت سكرتيرته الحسناء ، وسأله عما يشرب ... حاول الاعتذار ، فصمم الرجل ... وطلب فنجاناً من القهوة المضبوطة ، وأخذ الرجل يعدد مناقب ابنة عمه ، ودخل كبير آخر تبدو على وجهه علامات الخيلاء ، وصافح الرئيس ثم صافحه ، وما

لبث الرئيس أن عرفه به ، أخذ الرجل بدوره يمتدح ، ويغالي في وصف ابنة عمه ، تبارى كل منهما في الحديث عنها ، وهو سابح في فكره لاعناً قدومه ولاعناً تعيينه في الجامعة ، أحس بسخريتهم التي تعكس حديثهم ، أحس أنهم يأخذونه وسيلة للتسلية ، يتخيل أنهم يقولون عنه ابن عم العاهرة ... القواد ... ماذا سيقولون غير ذلك ؟

أحس برذاذ من الماء البارد فوق جبهته ، وتقدَّم الساعي بفنجان قهوته ووضعه أمامه ، ابتلع رشفة صغيرة كانت في فمه بطعم المر ، واصلا كلاهما حديثه ، وهو صامت لا يدري ماذا يقول ... دقَّ جرس التليفون ذو الرقم الخاص جداً ، رفع السماعة ، تهللت كلماته ، وهو يقول : "ها هو جالس معي ... طلباتك أوامر ... تأكدي أن كل شيء على ما يرام ... أقصاها شهر ، لكن ما نصيب الظمآن ..." ؟

خرجت كلمات مهرولة عابثة غير جديرة بالكرسي الذي يجلس عليه ، ومع كل كلمة عابثة كان يزداد عرق جبينه ، هل يمضي ليجلس الآن ولا يعود ثانية ؟ لم يرحموا صمته وألمه ... تقدم الثاني ، واستلم سماعة التليفون ، وتبادلا المداعبات الرخيصة أمام عينيه ، واخترقت كلماتهم أذنيه ، استسلم في خضوع وذل .

كان داخله يغلي ، وضحكاتها ترن ، يسمع صوتها بعد حديث طويل يتباهى به رواد الحانات والملاهي مع الساقطات ... انتهى الحديث ، فوقف من مجلسه ، وسلم على كل منهما ، حمَّلاه أمانة السلام على ابنة عمه ، ضيق في صدره وغشاوة فوق عينيه ، وخيالات له ، وهو واقف يلتقط نقوداً من تحت أقدام راقصة تتلوى ، ومرة أخرى كقواد يقود المريدين للعشق المحرم ويستلم ما تجود به أيديهم عليه .

وقف أمام المرآة ، ونظر إلى صورته ، بصق على وجهه ، وحاول أن ينام لم يأته النوم ... في غضون ثلاثة أسابيع أتاه صوتها يحمل البشرى بالقبول ، أعلن العصيان وأخذ يلقي الأسباب ، كالت له الشتائم وطالبته أن يذهب ، حدثها بصراحة غريبة ، فأطلقت ضحكة ماجنة ، وقالت : "لا تخف ... مجرد شهور قليلة ، ويتم نقلك لمكان آخر ، لا أحد يعرفك ، والجميع ينسون بمرور الأيام ... وكل العرب ينسون" ، ضحكت ... وأغلقت سماعة التليفون ... وعزم على الذهاب في الغد ...

أخذ يرتب حقيبة ملابسه ، لا تتوقف زوجته عن الحديث ، تذكره بأشياء كثيرة ، وكأنها تعقد مقارنة ، فتتحدث عن زوجة الأستاذ مشعل الذي كان نصيبه العام السابق أنه كان رئيساً للجنة الثانوية العامة في بورسعيد ، وكيف كانت عودته ، وعدد الحقائب التي حملها ، وما احتوته من ملابس داخلية وخارجية وبرفانات وقطع من القماش المستورد لابنته التي كانت يومها على وشك الزفاف ، وأدوات كهربائية ، أحس برأسه تكاد تنفجر ، كم تمنى عدم الذهاب ، لكن ذلك كان دون جدوى .

عرض على الأستاذ محجوب مسئول الكومسيون الطبي عشرين جنيهاً ، ووصلت لثلاثين ، ولكنه رفض طلبه ، فقد حدد القيمة لمن يريد الشهادة المرضية للتهرب من مراقبة الثانوية العامة بمبلغ ثلاثة أمثال ما عرضه ، يقولون وافق للبعض بمبلغ أقل ، ولكنها كانت نظير خدمات متبادلة بينهما ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ما زال صوت زوجته يأتيه من المطبخ بما تتمنى ، ويستعصي عليه الرفض ، قطع حديثها بطلب فنجان من الشاي ، فاستجابت وأسرعت تعده وصوتها لا يكل عن وصف ما أحضره زميل آخر ... الأستاذ شكري العام السابق ، فحتى الزهور الصناعية أحضرها من المدينة الحرة .

وقف الأبناء على باب الحجرة ، وكأنهم ينتظرون دورهم في الحديث ، فنظر إليهم وداعبهم فاتحاً يديه ، فانطلقت ألسنتهم وتحدثوا بدورهم ... الملابس الجاهزة ، وأحدث الموديلات التي تصل للمدينة الحرة و... طلبات كثيرة ، عادت الأم بمشروبه ، وأخرجت الأبناء من الحجرة ، وابتسامتها فوق وجهها ، عاد ورسم ابتسامة بدوره فوق وجهه ... طالبته

على غير المعتاد منها أن يتناسى ليوم أو لبضعة أيام أحاديثه عن القيم والمبادئ والمعلم ودوره في الحياة ، وضحكت بين كلماتها ، وهي تصف أن دوره الأساسي أن يوفي بيته وأولاده حقهم في الحياة ، ربما قالتها بصورة غير مباشرة ، فقالت إن الله يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك به ، وطالبته أن ينظر للمدرسين أمثاله ، رشف رشفة طويلة من الشاي ، وأومأ برأسه مستجيباً لكلماتها ، وآرائها الرائعة كما وصفها ، امتدت يدها إليه ، فكانت دهشته وهو يأخذ ما منحته ، إنها نقود ، فسألها وعرف أنها استدانت من أختها جزءاً ، وجزءاً آخر ادخرته من مصروف البيت ، كاد يفقد صوابه ، فاقتربت منه أكثر ، فبلع تذمره ، وابتسم وعاد لهدوئه المعهود ، ومال عليها وقبَّلها ، فأحست بنشوة النصر أمام هزيمته .

طالعته أوجه الحوانيت ، فكاد يلتصق وجهه بالزجاج ، فغر فاه دهشة من الأسعار ، وسحبه زميله من يده ، فاستدرك ما وقع فيه من خطأ ، وطبقاً لحديث صاحبه هذا الحي يسمى بالحي الأفرنجي ، أدرك ما تعنيه الكلمة ، فثمن الحذاء يوازي مرتبه لشهرين ، تحسس جيبه ، ومضيا في طريقهما للشارع التجاري ، البضائع كثيرة والناس مهووسون بالشراء ، حقيبته ما زالت في يده ، تذكَّر حديث زوجته وأولاده ، وعزم على أن يرضيهم بقدر الإمكان دون اللجوء لطرق خلفية .

استقلا سيارة تاكسي إلى مقر اللجنة ، ما إن هبطا حتى تقدَّم إليهما شاب في مقتبل العمر وسيم الطلعة تتدلى من رقبته سلسلة ذهبية وسألهما عن بغيتهما ، فأخبراه ، وبدوره أجابهما بأنه لا يوجد أحد هنا ، والجميع هناك ، وأخذ يصف لهما المكان ، وبادر قائلاً بأنه لا مانع لديه لتوصيلهما فشكراه ... استقلوا سيارته ، إنها المرة الأولى التي تطأ فيها

قدماه سيارة بهذا الجمال والرقي ، حاول أن يرفع الزجاج ، لكنه لم يدر كيف ، ابتسم الفتى ، وتحرك الزجاج آلياً .

كانت القاعة فسيحة ، وكل زملاء المهنة متواجدون ، أحس بغصة ولكن ماذا يفعل ؟ لقد عزم على أن يغير بعضاً من عاداته وأفكاره البالية لبعض الوقت ، خرج عليهم رجل مهيب الطلعة ، بهي الوجه يدخن السيجار ، وابتسامته لا تفارق وجهه ، سلم على الجميع ، وشدَّ على أيديهم ، وما لبث أن وقف مخاطباً الجميع قائلاً :

"تفضلوا ... استريحوا وأولاً أنتم ضيوفنا ، وواجب المضيف أن يكرم ضيفه ، فأهلاً ومرحباً بكم ، طبعاً رأيتم الاستراحة ... لا تليق بأستاذ له مكانته في المجتمع ، إنها تثير الاشمئزاز ، فلا توجد أسرة وإن وجدت ، فإنها محطمة ولا أنسى طبعاً البعوض والذباب ودورات المياه التي لا تصلح للاستخدام الآدمي ، وكل ما أتمناه لكم إقامة طيبة ، ونحن تحت أمركم ورهن إشارتكم فيما تطلبون" .

كلمات فياضة بالمحبة والكرم ، ولكن ما المقابل ؟ أراد أن يطرح ذلك ، ولكنه امتص كلماته ... هو لم ير الاستراحة بعد ... هل يعرض على الزملاء إقامة في فندق متواضع أفضل ؟ يرد على نفسه ... كيف سيستقبلون حديثه رغم أنه أكثرهم عوزاً وحاجة لتوفير ما يمكن ، وذهب في حديث مع نفسه ، ثم أفاق على أثر التعريفات التي أطلقها السادة المضيفين ، هذا يعرف نفسه بمأمور جمرك ، وهذا رئيس وردية ، ويشير بأصابع يديه ، وهذا ابنكم ابن السيد مدير عام الجمارك ، كل منهم في موقع مسئولية جديرة بالاحترام والتوقير ، وتتابعت التعاريف ...

أراد أن يتحدث لكن ثقل لسانه ، فماذا يفعل ؟ نظر في وجوه زملائه هل هي ابتسامات بلهاء ، أم إنها مدركة وواعية وتساير الركب وفق

المنظومة الصحيحة ، هل هي النغمة النشاز ؟ أحس بالهزيمة ، وهم أيضاً مهزومون مثله ، امتلأت القاعة بالشباب ، وتنوعت المشروبات والسجائر الأجنبية ، وكأن مدخنة اشتعلت بالقاعة ، شعر بضيق وألم ، ود أن يمشي ، فمَال على زميله ورفيقه طارحاً الفكرة ، عاقبه بنظرة تقطر تأنيباً ، فلزم الصمت ، أقبلوا على الطعام والشراب بنهم ، وأمام عتاب زميله شاركهم ، جلس بجواره فتى يبدو أكبر قليلاً في العمر من الآخرين ، ود أن يطارحه في حديث ودي ، وكأنه وجد منه رفضاً ، حاول الفتى من جديد ، ولكنه لم يستطع مجاراة الفتى ، لم ييأس الفتى وكرر محاولته ، استسلم لأسئلة الفتى ، فكانت إجاباته مقتضبة وقليلة ، وإلى أن وصل الفتى بسؤاله ...

– كم راتبك الشهري يا أستاذ ؟ اعتدل ونظر إليه ...

– لماذا ؟

– إنه سؤال بريء من ابن لك ، لا ... أخ أفضل ، فعمري يتجاوز العشرين بسنوات .

– سؤالك لا يحمل أي براءة يا بني ... ليتك تفصح ، وسأحاول أن أكون صريحاً معك لأقصى درجة .

– أرى الجميع يبدو على ملامحهم الرضا ، أما أنت ...

– تريدني أن أرضى ... عن أي شيء ... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... هل تدرك ماذا يحدث ؟ لو علم المسئولون عن التربية والتعليم ؟ لو عرف السيد رئيس اللجنة بمكاننا ... إنها كارثة يا بني ...

قطع استرساله في الحديث ، فانفجر الفتى في الضحك ، ونظر إليه مستغرباً ، وامتدت يد الفتى ، وأمسك بيده وسحبه ، وهو يضحك ويرجوه أن يقوم معه فمضى خلفه ، في شرفة ضخمة توسطتها مائدة صغيرة ،

وحولها مجموعة من كراسي الخيزران المبطنة بوسائد اسفنجية ، أو ربما قطنية غاية في الراحة ، أشار عليه الفتى بالجلوس ، جلس وبجواره جلس الفتى ، امتدت يد الفتى بلعبة سجائره تحية له فرفض ، ولكن الفتى أصر ، فامتدت يده ساحبة سيجارة ، ووضعها بين أنامله ، ورفض إشعالها ، وذهب في الضحك .

– علام ضحكك يا أستاذ ؟

– القدر ...

– إنك تبالغ في أمور كثيرة لا تستحق ... أشار الفتى لبناية عالية ضخمة تفوق ما حولها ... هل تعلم ما هذا ؟

– لا ...

– إنه أكبر فندق في المدينة .

– ماذا يعني ؟

– هل تحب أن أذهب بك إلى هناك ؟

– لماذا ؟ لم أطلب ...

– ستجد هناك مسئولي التربية والتعليم ، ورئيس اللجنة ، والمراقب الأول ، وكبار المسئولين من هنا أيضاً .

– لا تحاول أن ...

– أقسم لك ... أنا لا أكذب ، إنها الحقيقة ، وأنا على أتم استعداد لإثباتها لك الليلة ، هل تعلم أن الأستاذ رئيس اللجنة أتى قبلكم بأربعة أيام ، وهو مدير عام بالوزارة أساساً ، فماذا فعل خلال هذه الفترة ؟ قبل أن يجيب ... بادر الفتى بالشرح ... ستقول لي قام بترتيب العمل باللجنة ، وتنظيمها ، ومَن معه طبعاً ... لقد حمل يا أستاذي الفاضل بالهدايا ،

وما يريده ، خرج من الجمرك بسيارة خاصة لم يفتح لها باب ، بل ارتفعت الأيدي بتحيته .

– اسمع يا بني ... أنا أكره التشنج وعلو الصوت ... ولا أسمح لك مطلقاً أن تزج بأبرياء في سبيل تبرئة نفسك من فعل معين .

– أقسم لك من جديد ، بل ينزل في الفندق هو وزجته وأولاده .

– يا بني حرام عليك .

– الكبار يعلمون ما قمنا به من تجميع مبالغ من كل طالب في المدرسة ، وقد ساعدونا في ذلك ... لنترك هذا لموضوع الآن ، ولنحاول أن نكون أكثر صراحة ، فهل توافق يا أستاذي ؟

– موافق .

– كم راتبك الشهري ؟

– عدت لما بدأت ... عموماً يقترب من أربعمائة جنيه .

– لتعلم أنني أستطيع أن أكسبها في يوم وربما يومين .

– ربنا يزيدك ، ويبارك لك ... طالما أنت لا تسرق ولا تنهب أحداً ... ولكن لماذا تتعب نفسك بالدراسة ؟ ...

– لقد أنهيت دراستي .

– ولماذا أنت هنا ؟

– أنا المسئول عن الشباب في المحافظة ، وأعمل بديوان عام المحافظة ، وأكبر مسئول في البلد عارف ... وأنا أقوم بكل الترتيبات الخاصة براحة السادة المراقبين والملاحظين ، أما رئيس اللجنة والمراقب الأول فبعيداً عني ... حتى خروجكم من الجمرك مسئوليتي أنا ، وسترى بعينك ذلك مستقبلاً ...

– أتمنى ألا أرى ذلك اليوم ... مؤهلك ...

- بكالريوس تجارة ...
- خدت الثانوية بهذه الطريقة ...
- كنا مهجرين ... شربنا المر والحمد لله ...
- تساعد في معصية ...

في حديث الفتى صدق غريب ، فقص الكثير من معاناته وأسرته في سنوات التهجير بعيداً عن بورسعيد ، استمع إليه ، ورغم كم الآلام التي يصفها ، ظلت ابتسامته على وجهه تعلن عن شموخه وأصالته ، تنوع الحديث وخاض الأستاذ في معنى التربية ، وكيف أنهم أطلقوا عليها عملية صناعة الإنسان ، وساق أحلى المعاني التي قالها أبو حامد الغزالي عن التعليم ، وأنه أشرف الصناعات ، وهي الفضيلة والتقرب إلى الله .

وطاف يقص عليه قصص المعلمين الأوائل بدءاً من الحياة الفرعونية مروراً ببلاد فارس وآشور واليونان والفنيقيين ، نظر إليه مشدوهاً لغزارة معلوماته وفكره ، وما لبث أن صمت وضحك وأشعل سيجارة ، فحكى عن الحكيم الذي ترك الحياة اللاهية والملذات الدنيوية ، ورغم أنه كان ينتمي لأسرة عريقة ، وأخذ يتأمل ماهية الحياة حتى وصل لمرحلة لما أطلقوا عليه لحظة التيقظ أو الاستنارة ، ورغم أنه ليس ولياً ولا رسولاً من قبل رب العباد .

حُكيَ عن محاورة بوذا مع أحد تلاميذه ، وأهم ما جاء في القصة كيف تقابل أي فعل مهما كانت قسوته بالسلام ، وكيف وصل لمرحلة سؤاله عن المردود إذا فكر الآخر في قتله ، فيكون الرد أنهم أنقذوه من

الحياة وآلامها ، ومن الجسد المليء بالأمراض ، وكيف ستفرح الروح بالخروج من سجنها ، وتنطلق لساحة الحق والفضيلة ، دار حوار كبير عكس فكر المعلم ، وبرهن الفتى على آفاق فكره ، فأنكر السكوت عن الظلم والخطأ ، وتصيد له الأستاذ الأخطاء ، ولكنه برر الأفعال التي يأتيها بأن فيها خيراً لشباب البلد ، وأن هذا على مستوى الجمهورية كلها وليس هنا فحسب .

دار حديث طويل بينهما ... فتح بينهما أواصر حب متبادلة ، حكى الأستاذ عن بورسعيد ، وتأميم قناة السويس ، وهو ما زال طفلاً صغيراً عندما كان صوت عبد الناصر يعلن التأميم ، وماذا حدث بعدها ، وكيف حاولوا اغتصاب حريتنا وبسالة وعظمة شعب بورسعيد في وجه العدوان الثلاثي ...

كان يحكي وتكاد تطفر من عينيه الدموع ، ويتقدم في الحكي ، ويقص عن النكسة ، وما أعقبها ، ولا ينسى في خضم ذلك احتفالات شم النسيم وليلة حرق تمثال اللمبي التي تستمر حتى الصباح والطمبورة والسمسمية ، والممشى الطويل على البرزخ بالقرب من قاعدة تمثال ديليسبس ، وكيف رفع أبطال المقاومة الشعبية بعد حرب العدوان الثلاثي التمثال من مدخل القناة ، وكم كانت أمنيته أن يحضر اليوم ليرى بورسعيد الحرة كما كانت برجالها ، صمت وكأنه يبحث وينبش في ذاكرته ، والفتى ينتظر ما يجود به من حديث حب وعشق ، ويعقد المقارنة بينه والمدرسين الآخرين ، ويحاول أن يخرجه من ذكرياته ...

– ذهب التلميذ باكياً لأمه قائلاً – لقد ضربني الأستاذ– سألته لماذا ؟ فأجاب التلميذ : لأنني لم أعرف مَن فتح قناة السويس ، فقامت الأم وأكملت ضربه قائلة : أنا عارفة إنه مفيش غيرك ... إيدك طويلة وفتحتها ليه حق الأستاذ ... ضحكا ...

– في أحزاننا نغني ... هل تعرف العدودة ؟ اهتزت رأسه بالنفي ، فأكمل ببكاء منغم وفق منظومة شعرية عامية تردده السيدات في صعيد مصر غالباً ، وكذلك نحاول الضحك وسط أحزاننا ... ضحك وحكَّ رأسه بيده قائلاً ... رحم الله أمواتنا ، قال أبي : كنت كلما أتيت بالشهادة لجدك فينظر فيها ويتأمل الدوائر الحمراء ويسألني عن السبب ، فأقول لقد بلغت في هذا العلم للكمال فزينوها باللون الأحمر فيكافئني ، ويختم الشهادة ، داعياً أن تكون شهادة العام القادم كل علومها مزينة باللون الأحمر ... أزف موعد النوم ...

– أعددنا لكم سكناً غاية في النظافة ...

– سأذهب للاستراحة أياً كانت ... ابتسم ، ونظر إليه بحب ... لن تكون أسوأ من أيام بلا طعام ، أو شراب بين أشلاء موتى وشهداء وحصار وطائرات تضرب الليل والنهار ...

– أنت من أبطال العبور ... رجال أكتوبر ...

بأسى وحزن أومأ برأسه مجيباً ، غمرهما الصمت ، وأخرج الأستاذ علبة سجائره المحلية ، وأشعل منها واحدة ، وقدَّم للفتى واحدة ، فلم يرفضها ...

– لماذا تفعلون ذلك يا بني ؟

– يا أستاذ في كل مكان يفعلون ذلك ... لسنا متفردين بذلك الفعل ، ولأننا ندرك ما يعانيه الأساتذة ، وهذا أقل القليل مما يقدم للمعلم ، ألم يقل أمير الشعراء ... قُمْ لِلمُعلمِ وَفِّهِ التبْجِيلا ... ضحك بصوت مرتفع ، وأشار عليه أن يسكت ... إنها حملة لرفع المعاناة عن ...

– مَن يقود هذه الحملة ؟

– جمعية أصدقاء المعلم ...

– مَن رئيسها ؟

– أبو طارق .

– في الثانوية أم ابنه أم بنته ؟

– لا هذا ولا ذاك ... مسئول كبير حالياً في الحزب ، وأحد الكوادر الممولة لأفعال الخير ... لم يحصل على الابتدائية بعد ...

– لكنه مؤكد حصل على الدكتوراة ...

– يقولون أخذ دكتوراة فخرية ...

– تستطيع الدراهم يا بني أن تضع كل حروف الهجاء أمام اسمك ، إن الأبجدية تنحني احتراماً لطرقعات الدنانير والدراهم ...

– أعتقد أن نفس الأمر لصاجات الراقصة .

– إنها أقوى يا بني مع اختلاف نوع المعدن .

– هنا يا أستاذ منطقة حرة ... كل شيء معروض للبيع والشراء ... حتى ... قاطعه .

– أنت في بداية حياتك العملية ... لم تتزوج بعد ... الأفضل أن تعيش ، لا تأخذ بحديثي ، ربما يشوه أفكارك ، فأفكاري قديمة قد لا تجاري العصر والزمن ... هيا بنا ... لتوصلني للاستراحة ...

– هل ستجلس بمفردك في الاستراحة ؟

– أفضل ذلك .

– كيف ستأكل وتشرب ؟

– أستطيع ترويض معدتي .

– كم ستصرف ؟

– في حدود المعقول .

– هل تستطيع أن تشتري ما يريدونه منك .

– ربما .

– الجمرك ...

– ربنا يستر .

– ستكون هناك توصية عليك ...

– لن أشتري ...

– ستدفع جمارك على ثيابك التي قدمت بها ...

– الحمد لله كلها بالية ... سأتركها لهم إن أرادوا ...

***

استأذنهم في الانصراف ، عبست وجوههم بادئ الأمر ، ولم يلبثوا كثيراً على حالهم وانطلقوا في الضحك ، لم ينسَ حقيبته ، حاول الفتى أن يحملها بدلاً منه أبى وأقسم ، حاول أن يشرح له أنه يعيش وأمه وإخوته

في حي شعبي ، وأن يشرفه بالمبيت معه ، فشكره كثيراً وصمم على رأيه ، قص له عن أخيه الأكبر الشهيد في العبور ، علَّه يوافق دون جدوى ، ذهب به حتى الاستراحة ، وشدَّ على يديه مودعاً .

***

وبشيء من الضيق استجاب العامل إليه ، تقدمه لحجرة كبيرة ، تأسف العامل نظراً لانقطاع التيار الكهربائي ، وأشعل عود ثقاب ، كان هناك بقايا مخادع ومفارش قذرة وبطاطين ممزقة الأطراف ، شكر العامل الذي بدا أمامه أنه يصارع النوم الواقف يتثاءب باستمرار ، أصبح وحيداً في حجرة مظلمة ، وعلى ضوء الأوراق التي أشعلها فتح حقيبته ، وأخرج جلبابه ، وجمع بقايا مفارش وضعها في الردهة الخارجية ، فرائحة الحجرة لا تطاق ، ولم يجد مفراً من لسعات البعوض ... استرخى ونام ...

***

بدأت الفترة الثانية ، في تمام الحادية عشرة والنصف ، وبعد مضي ساعة واحدة ، أحس بالغليان داخل اللجنة ، فطالبه الزميل بأن يترك التلاميذ يساعدون بعضهم البعض ، رفض ، وصرخ تلميذ معلناً ضيقه مما يحدث ، وأن كل اللجان يساعدونهم ، وسأل ... ماذا يطلبون ، بعدما قدموا للملاحظين والمراقبين كل ما يطلبون ؟ استطاع الزميل الثاني تهدئة التلميذ ، وطلب من مراقب الدور الخروج ، فأسرع ملبياً طلبه ، بينما علت وجوه التلاميذ الفرحة ، أعطاه رئيس اللجنة إذناً كتابياً بعدم حاجة اللجنة له ؛ لزيادة العدد وقدم له الشكر .

آتاه الله بسطة في الجسم وصوتاً هادراً خارجاً من حنجرة ، وكأنها لا تحتوي على لوزتين ، كان يومه يفيض بالضحك والتهريج ، وكأنه لا يحمل للدنيا هماً ، وطوال عمره يحب السهل من الحياة ، كان حصوله على دبلوم المعلمين في حينه إعجازاً بالنسبة له ، ولكل العارفين بقدراته الذهنية وقبوله للعلم ، أما ذاكرته في حفظ النكات وخاصة الخارجة عن النص ، فيحكي بها ويتبارى في جلساته بإطلاقها بصوته الجهوري ، وكان إلقاؤه محبباً ، فكان يضفي على حكايته ما لم يستطع آخر سردها بطريقته نفسها .

كان يضحك ، ويهتز جسده الضخم ، فيثير الضحك أكثر من حكايته ، كان في صمته عتاب على الحياة ، ولكن لا يطول ، فهو لا يملك من الدنيا سوى راتبه الشهري ، وزوجته لا تعمل ، قالوا له "حاول أن تقلب رزقك" ، هو لا يجيد فن البيع والشراء ، وإن أجاد فمن أين رأس المال الذي يبدأ به مشروعه ، كان يفكر في مد يده لأي زميل أو قريب بقرض إلى حين ، ولكنه يعلم مقدماً ، فالجميع سيتعلل بالظروف ، وبينه وبين نفسه يقر بأن لهم الحق ، فلم يسبق أن اقترض ورد ما أخذه ، فيضحك ، ويردد : "مَن حكم في ماله ما ظلم" .

يكفي نفسه أن يطلق عليهم سيل نكاته ، وهم بدورهم يجارونه وأحياناً كثيرة تمتد إليه أيديهم بالسجائر تحية ، وليس عيباً أن تكون دعوة له على غذاء بالمدرسة ... محاولة يائسة منهم أن يلتزم الصمت ، كان جميع المدرسين –إن لم يكن أغلبهم– يعملون في أكثر من عمل ، فهذا اعتاد التجارة في المفروشات المنزلية ، ويبيعها بالتقسيط للزملاء بالمدرسة ، وخارج المدرسة ، أما الزميلات فتنوعت سلعهن ، وخاصة الملابس المنزلية للرجالي والحريمي على السواء ، وأخرى نشاطها اقتصر على

كان ينظر للفتى وتدور رأسه ، الحقيبة كبيرة ، وما أخذ من النقود لا يكفي ، والفتى مصمم أنه أخذ حقه بالكامل ، ضحك الفتى ، وهو يحكي له أنه من أسرة بسيطة ، وأنه استغل الخروج من الجمرك ، وجاء بحقيبة ثانية ليبيعها هنا في سوق القنطرة ، وسيكسب من وراء رحلته معه تحت مسمى توصيل أحد مراقبي الثانوية العامة ، حاول ولكن الفتى أقسم بدم أخيه الشهيد زميله في العبور ، لتكن هدية من أخ أصغر ، وأقسم بحق كل الأبطال والشهداء ألا يرفض ما قام به ، سلَّم عليه وهو يضحك ، وطالبه أن يدفع حساب القهوة ، ومضى بعد أن أودع جيبه ورقة صغيرة .

"إلى أخي الشهيد ... إلى رمز الطهر والنقاء ... إلى بطل من أبطال أكتوبر ... على أمل اللقاء" ، وفي النهاية عنوانه ... كادت تسقط من عينيه الدموع .

شكرته زوجته كثيراً ، ففرح الأبناء ، وأحس هو بالهزيمة والانتصار معاً ... ضحكت الزوجة ... وأحضرت كل شيء ... ها ... ها ... في أربع وعشرين ساعة ... فما بالك لو قضيت أسبوعين كاملين ... لكن نسيت الأدوات الكهربائية ...

طلب منها فنجاناً من الشاي ، استرخى في مخدعه ، وأحس بالهدوء يغمر جسده ... خدر لذيذ ... وهزيمة من نوع جديد .

فضَّ الخطاب بسرعة ، فهو غير معتاد على استقبال الخطابات ، قرأ الاسم المذيل في نهاية الخطاب ... حبيبتك ر. أ. م ...

لم يقرأ سواها ، وأسرع بوضع الخطاب في جيب بنطلونه ، بعد أن نظر حوله يميناً ويساراً ... الفتيات غاديات رائحات بجواره ... مضى للمكتبة ، فوجد كثيراً منهن جلوساً في قاعة المكتبة ، ألقى بالتحية لأمينة المكتبة ومضى ... أين يذهب ؟ حجرة المدير ... الوكيل ... لم يجد أمامه سوى معمل العلوم خالياً ، دخل من أحد أبوابه ... يكاد يسمع دقات قلبه ، أخرج الخطاب وقرأ كلماته ... وهو ينظر حوله ...

كلمات غريبة عليه ... آهات معذبة عاشقة ... حكاية عن أيام سالفة وذكريات لا تنسى ... لكن الكاتبة لم تحدد حدثاً معيناً ، حاول أن يتذكر ، لكنه لم يستطع ، دس الخطاب في جيبه ، ربما كانت خدعة صنعها أحد الزملاء ، ربما فتاة صغيرة من فتيات المدرسة ، حاول أن يعود بذاكرته للخلف ، لكنه لم يستطع أن يتذكر شيئاً محدداً ، تمنى أن ينسى ، كيف ذلك ؟

لم يمضِ شهر واحد عليه في هذه المدرسة ... هذه المدرسة هي المدرسة الأم ... أكبر مدرسة ثانوية ... فيها تتجمع فتيات العائلات الراقية ، وأبناء الأسر ذات المستوى المادي المرتفع ، وأي مدرس أياً كانت المادة التي يدرسها يستطيع في عام واحد أن يجمع آلاف الجنيهات من الدروس الخصوصية ، فالمستقبل يطل من باب هذه المدرسة ، وقد سعى منذ عامين ويزيد علَّه يحظى بمكان فيها ... كادت حاجته المادية وظروفه العائلية أن تبعثرها رياح الفقر والحاجة ، وبعد زواج دام عشرة أعوام ... أصبحت زوجته تسوق الأمثلة كل يوم عن مدرس يركب سيارة

، وآخر يبني عمارة ، وأبناء زميل ينعمون بمصيف لم تعرف هي طريقه منذ زواجها .

كان عاشقاً للسيجارة وجلسة الصحبة في المقهى ، هجر كل شيء يحبه في سبيل توفير ما يمكن ، لم يكف أيضاً ، نظرات العتاب تصلبه فوق جذوع المبادئ والقيم التي تمنى أن يعيش بها ، تجربة سفره للخارج لم تكلل بنجاح ، فقد كان يومها حريصاً على كرامته ... شغوفاً بمصريته ... رافعاً أنفه في شموخ ... لم يفلح ... فيومها تطاول عليه مدير المدرسة بكلمات فيها مساس ببلده ... ولم يصمت ... لم يصنع ابتسامة ، ولم يتخوف من غد، أسرع وكال له السباب ، ولعن ، وهدد ، ولكن صدر القرار وعاد منتصراً لكرامته وبلده مهزوماً بفقره وحاجته ...

ذكريات ماضية ، اليوم قرر أن يعيش مثل الآخرين ، يلهث وراء مكان فيه كسب سريع ، فيه سيارة تمرق ، وعيون تتمنى ، وقلوب داستها حمى الثراء ، ها هو اليوم لم يمضِ شهر واحد حتى كوَّن سبع مجموعات .... يكسب من أقل مجموعة فيها ما يزيد عن خمسمائة جنيه ... أفضل من الإعارة أو التعاقد في الخارج ... وهناك مزيد قادم ... زوجته صارت به رحيمة ودودة ، تستجيب لحركة أنامله ، تنتظر غمزات عينيه ... لم يعكف على قراءة كتاب ، ولم يتشوق لرؤية مسرحية ، صار كدابة مغلقة العينين تسوق ساقية ترفع مياه الثراء الناعم لأفئدة سكرى ، ماكينة تدور وتلهث وتدفعها توابع زلزالية عنيفة .

لم يكد يمضي في الصالة الطويلة أمام الفصول ، استوقفته طالبة ، جميلة المحيا ، دقيقة الملامح ، قمرية الوجه ، ثغرها باسم ، ابتسمت ، فابتسم بدوره ...

. لو سمحت يا أستاذ ...

انتحى بها جانباً ، ووقف بجوار السور الصغير الفاصل ، وفناء المدرسة ...

– أمرك ...

كلمات تفيض بالأدب الجم ، وعثرات في مخارج بعض الحروف ، فزادت كلماتها بهاءً ...

– شكراً يا أستاذ ... ممكن آخذ درس عند سيادتك ...

ابتسم وأحس بمزيدٍ قادم ...

– لكن ... أنا لا أستطيع ...

– أرجوك يا أستاذ ...

– يابنتي فعلاً أنا أعطي دروساً ، لكن المجموعات عندي كاملة ...

بدلال بالغ وبلغةٍ أصبح يدركها اليوم جيداً لو حدثته بها طالبة من قبل لكشر عن أنيابه ، وتقلصت عضلات وجهه ، وطالبها أن تمشي من أمامه فوراً ...

. أنا لا آخذ مجموعات ... لا أحب أن يشاركني أحد ... ما يطلبه الأستاذ يأخذه ...

أخذت الفتاة تتحدث عن إمكانيات أهلها ، والسيارة التي تأتيها للمدرسة ، بل إنها تحدثت عن أبيها أنه يستطيع أن يأتيه بعقد عمل للخارج إن ود ذلك له أو لأحد معارفه ... أحس بغصة في حلقه والفتاة تحدثه ... تمنى أن يقول لها لا ... لم تخرج كلمته ، بل اتسعت ابتسامته في بله ، أذعن لمطلبها وحدد لها الموعد ، فابتسمت وودعته ، ولكن نظرات عينيها غريبة ...

***

حديث الفتاة ذهب بفكره ، لم يدرك أن اليوم هو بداية الشهر الجديد ، نسى هديته الذهبية الصغيرة التي اشتراها لابنة السيد مدير المدرسة ، أسرع لحجرة المدير ، وتحسس موضع السبيكة الذهبية ، أحس بالارتياح ... لا يوجد أحد بالمكتب سوى المدير ، ألقى إليه بالتحية وجلس أمامه ، امتدت يده لجيبه ، وأخرج هديته ، وأسرع يدسها في يد المدير الذي ابتسم بدوره وشكره .

وأخذ يكيل المديح للمدير والعمل في المدرسة ، وبدوره ضغط المدير على الجرس المجاور لمكتبه ، فأسرع "عطية" الساعي ملبياً ، طالبه بمشروب بما يود الأستاذ ، فشكره وحاول الاعتذار ، وأقسم المدير ، فلم يستطع أن يرفض ، وأسرع عطية مبتسماً بدوره ، فالجميع يعملون في حلقة واحدة ، فعطية بجوار عمله في المدرسة هو المتفاني في خدمة المدير خارج المدرسة ، فطلبات المنزل من خضروات وفاكهة وغيرها هو القائم عليها .

***

لم يخرج من مكتب المدير خالي الوفاض ، فقد أسر إليه المدير بأنه رشحه ليعطي درساً لابنة أحد السادة الكبراء ، ووصفه بمواصفات كثيرة ، فهو القريب لأصحاب القرار في الوزارة نفسها ، والجميع يلهثون خلفه ، ويتمنون خدمته ... شكر المدير ، وأخذ يصعد الدرج ويبتسم لنفسه ، تذكر فجأة الخطاب الذي تلقاه ، وأسرع وأخرجه من جيبه ، وأخذ يمزقه قطعاً صغيرة جداً جداً ، وألقاه .

***

استقبلته الخادمة ، وقادته لحجرة المكتب ، واختلست عيناه النظر في البهو الضخم ، وأثاثه ورياشه الوثيرة ، وفتحت له الباب ، فتقدم وحاول

أن يبدو طبيعياً ، لكن دقات قلبه كانت تسرع ، وجلس في حجرة مكتب ضخم ... أثاثها يفوق أثاث مكتب وكيل وزارة التربية والتعليم ، أخذ ينظر لمقتنيات المكتبة ، ووقف يستعرضها ... كتب كثيرة ، بل أمهات الكتب في التاريخ والدين والثقافة والفكر ... في فضول غريب لم يتمالك نفسه ، وأخذ يقرأ أسماء الكتب .

مصمص شفتيه ، واستشعر بحركة قادمة ، فأسرع وأخذ مكانه وهو غارق في صمت تأملاته ، دخلت الخادمة وهي تحمل المشروب المثلج ، مضت عشر دقائق عليه ... لم يشعر بها ، فقد كان غارقاً في التفكير ، دخلت الفتاة كطاووس ، واعتذرت له عن تأخيرها ، فابتسم وأقبل على الشرح للفتاة ، ولم يثره جمالها أو فتنتها ... لم تمضِ نصف ساعة حتى استأذنت الخادمة للدخول ثانية بالمشروب الساخن .

كانت الفتاة سريعة الفهم موفورة الذكاء ، استجابت لشرحه بسرعة وتدفقت معلوماته في كافة الأجزاء المخصصة للحصة ، تهللت أساريره ، وظهر هذا جلياً في ابتسامته ، وفي إشادته بمهارتها ، وزاد من زهوه بنفسه أن الفتاة أقسمت بأنها لم تفهم يوماً درساً بهذه الصورة .

وقبل أن يغادر المنزل ، أسرعت الفتاة واستدعت أبيها ، لم يكلف الرجل عناء السلام عليه ، كان وجهه متجهم ، شتان بين وجهه ووجه ابنته الصبوح ، وأحس في كلماته كأنه أجير أو كأنه متسول قادم يستجديه ، فطالبه أن يحدد المبلغ الذي يريده بصورة فيها تعالٍ ظاهر ...

نظر إلى المكتبة وكتبها المكدسة ، ومظهره الثري ، والملبس المتغطرس ، ولم يصدق ... ماذا يفعل ؟ بأي شيء يتكلم ؟ يلعن الدروس الخصوصية التي قادته يوماً لهذا الموقف ؟ مَن يكون هذا الرجل

؟ استأذن في الانصراف ، وحاول منعه ، ولكنه ابتسم في سخرية وخرج ... قادته الفتاة ، وبدا على وجه الفتاة الانكسار والحزن ...

وفي طريقه لمنزله حاول أن يأخذ موقفاً محدداً وحازماً ، لكنه لم يفلح ، فكل قرار فيه خسارة ، وكل خسارة يحسبها أو تحسبها زوجته من بعده ، ورغم طول المسافة فإنه لم يشعر بالوقت الذي مضى ... مع مَن يتحدث عن معاناته ؟ كان يعلم رد زوجته قبل أن تتحدث ... وماذا يضيرك منه ؟ وهل ستناسبه ؟ صحبته ورفاق دربه ... لقد صار بعيداً عنهم ، وغادر مجلسهم بمحض إرادته ...

مع مَن يتحدث عن همه ، نظر إلى زوجته ؟ رغم ابتسامتها الواسعه وزينتها الصارخة ودعوات عينيها ... لم تثر فيه شهوة ، تذرع أمامها بالإرهاق ، داعبته وفي دعابتها قسوة تخترقه ، حاول النوم ، فأحس بأنفاس زوجته وكأنها تطارده وتطارد النعاس من عينيه ، فحاول أن يغوص في حلم يقظة ، لكن لم تسعفه ذاكرته ، لم يجد مفراً من ذلك ، فخرج من حجرة النوم .

جلس في مكتبته الصغيرة التي بها بعض من كتبه القديمة ، لا إرادياً امتدت يده لكتاب ولج داخل سطوره ، وطغى عشقه للكلمات الصامتة المتفجرة بمكنون الإنسان ، ورشف وريقات معدودات من سيل جميل انبعث من قلب الشاعر وكاتب الكتاب ، جاءه صوت زوجته بحدة فيها مرارة ، فأسرع وأغلق الكتاب ...

***

أخذ قراره أنه لن يعود ثانية مهما كانت الظروف ، تعلل مرة بظروف وثانية وثالثة ... استدعاه المدير ، ووجد حركة غير عادية ... همسات بين الزملاء ، لم يدرك شيئاً ، تخوف ، ودخل الحجرة ، فاستقبله

المدير وهو باش الوجه ، وقامت بدورها ، نظر إليها فلم يصدق عينيه وكأنها حورية قادمة من السماء ، جمالها يفوق كل الكلمات ، وفي حديثها سحر يأسر ، وفي صمتها حديث تبثه عيناها .

كان كل مدرس يتصنع حاجة للمدير ، فيدخل ويخرج هاتفاً في سره "سبحان المبدع المصور" ... تصنع المدير عملاً فخرج ، كانت دهشته عظيمة بأنها أم الفتاة ، وزوجة لهذا الرجل الذي يشتري البشر ، لم يصدق أن هذا الجمال رهين يد هذا الرجل ، فاستدعى المدير الفتاة ... دخلت الفتاة ، وبين إصرار الأم ورغبة الفتاة ، اهتزت رأسه بالإيجاب والعودة للتدريس للفتاة .

***

انفرج الباب ، ودخلت الأم ، حملت بنفسها المشروب البارد ... كانت فتنتها أكثر مما رآها في المدرسة ، شكرته كثيراً ، وكالت له الثناء والتقدير .

– يا سيدتي ... أنا لستُ غاضباً ... لكن ... الطريقة التي يتحدث بها ... عفواً ... كأنني ...

اعتذرت ثانية ، وأبدت استعدادها لأي ترضية يريدها ...

– يا سيدتي ... الشيء الغريب ... إنسان بيته يزخر بكل هذه الكنوز ... وهذه الكتب ... ولا يعرف كيف يعامل الآخرين ... ضحكت ضحكة جلجلت في أرجاء الغرفة ، وقامت فأغلقت الباب وبصوت يقترب من الهمس قالت له ...

– إنه لم يحصل سوى على الشهادة الابتدائية ...

وبدأت تقص عليه أشياء لم يكن يتخيلها ... هو قريبها ، كيف تزوجها وهي حاصلة على ليسانس الآداب ؟ وكيف تزوجتة مرغمة ؟

كيف استطاع أن يصنع هذه الثروة الضخمة من لا شيء ، كيف يتكسب المال بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، لم يصدق أذنيه ، فهي تسرد وقائع غريبة عليه ، وداخله يلعن هذا الرجل القذر ... كانت المفاجأة التي عقدت لسانه عندما أخذت تتحدث عن علاقتها به ، في رأسه تدور آلاف الأفكار ... إنها تقص عليه أشياء غريبة ، وهي لا تعرف عنه شيئاً ، إنها المرة الثانية التي يراها فحسب ، فلماذا تفتح له وتحكي أسراراً غريبة عنه .

زادت حيرته وهي تواصل الحكي له ، وكيف يهين كرامتها حتى في ساعات لهوهما ... أمسكت يده ، وأقسمت له أنه أول إنسان يعرف هذه الأشياء غير زوجها ، انسابت دموعها غزيرة ، فمسح دموعها ، همَّت واقفة لتمضي ... لهثات غريبة ، ودعوات أكثر غرابة يطلقها شيطانه المعربد داخله ... احتضنها ولم يدرِ بنفسه ، بكت فوق كتفه ، ومضت يده تلملم شعرها المتناثر ، اعتذر عن حصة الفتاة ومضى ...

أكثر من عشر سنوات مضت ... لم يفكر يوماً في امرأة سوى زوجته ، كان رهين كتب ومبادئ لم تتغير ، اللهاث للغنى والمال قاده لقدر لا يدرك منتهاه ...

كانت زوجته تغط في النوم ، وهو مسهد طريح هوى غريب ، يدفعه شيطانه الهائم في خبايا جسده للانتقام ممن يعامله بهذا الصلف والغرور ، أسرع فأعطى موعداً آخر للفتاة في اليوم التالي مباشرة ، جلس مع الفتاة ، وشرح لها الدروس ، بينما كان فكره شارداً ، ونظره معلقاً بالباب ، لعلها تدخل في تلك اللحظة ...

تمضي اللحظات وهو في شوق وتلهف ، تنقضي الساعة المحددة للدرس ، فينتظر ويعاود الشرح من جديد ، لا يصل إلى أذنيه صوت قادم

سوى دقات أقدام الخادمة ، فيتسارع النبض ، ولا يلبث بعد دخولها أن يلعنها ، ويضرب موعداً آخر للفتاة في اليوم التالي مباشرة ، فتعتذر الفتاة لارتباطها بدرس آخر ، فليكن الذي يليه ، تتكرر حوادث الحصة السابقة .

يأخذ من الفتاة رقم التليفون بحجة واهية ، ويتصل تليفونياً ، لا يأتيه صوتها ، لكن صوت الخادمة يجيبه ، أو صوت الفتاة ، يغوص في أفكاره ، وتطارده دعوات عشق غريب ، ويحاول أن يلقي بجسده في أحضان زوجته ، ويتسرب الملل سريعاً في أعضاء جسده ، وتساوره الشكوك وتتساءل نفسه ... فلا يجد إجابة مقنعة .

ثم حدثت مفاجأة لم يتوقعها ... ترد بنفسها على التليفون ، فيرتعش صوته ، وبكلمات مستجدية متقطعة يطالبها ألا تضع السماعة ... تتوسل إليه أن يبتعد عن طريقها بصوت آهاته ، فتلهب كيانه ، وتستنفر مشاعره ، يطلب أن يراها تعتذر في بكاء يدمي قلبه ، فيأتيه صوتها الهامس المتفجر عشقاً "ليتني لم أرك ... ليتني لم ..." .

تضع سماعة التليفون ، فيعاود الاتصال ، وبعد طول رنين يأتي صوت الخادمة ... ويكرر المحاولة ثانية وثالثة ، ولا يجيب ... لم تسفر محاولاته العديدة عن رؤيتها أو سماع صوتها ... فكر أن يمتنع عن تدريس ابنتها ، لكنه كان بعد أن يأخذ قراره ، يعود ويذهب ، ويعود ساحباً خلفه ندماً وضيقاً ... شهران متتاليان ويزيد ... دخلت وفوق يديها المشروب الساخن ، هب مسرعاً من مكانه ، لم يصدق عينيه ... لقد ازداد جمالها ، تكحلت عيناها ، وتوردت وجنتاها ، كانت ومضات عينيها وشعاعهما يخترقان حنايا جسده .

انسحبت بعد أن سلمت عليه ، تمنى أن يلثم يدها ، احتضنت يده يدها في قوة ، لولا وجود الفتاة لتلقفها بين يديه ، لم يدر بنفسه للحظات معدودة ... تمنى أن يدعوها للجلوس بعض الوقت ، وأن يتحدث إليها بأي حديث ، وأصابته رعشة والتصق لسانه بسقف حلقه ، وتوقف عقله عن التفكير .

***

تبددت سحب اليأس التي أصابته ، وفي الحصة التالية ، وبعد أن قادته الخادمة لحجرة الفتاة ، جلس مفكراً فيها للحظات ، وكانت المرآة أمامه بشحمها ولحمها ، وهي في أبهى زينتها ... أغلقت الباب ، وألقت بنفسها في أحضانه ، وتعلقت الأنامل ، وانسابت الهمسات واللثمات ، وتدفق مخزون الوجد العامر في هوى محموم محرم ، وتعاقبت كلمات العتاب ، وأطلقت زفرات قلبها في قص حكايتها وعشقها وخوفها ... خوفها عليه من زوجها وسلطته ومعارفه ، ويده التي تستطيع أن تصل لأي شيء .

إحساس غريب بالزهو والانتصار على تلك السلطة المتجبرة التي يمتلكها زوجها ، كان يحس وهو يلثمها أنه يصرع زوجها فوق حلقة ملاكمة ، كان إحساسه غريباً ما بين العشق وإثبات الذات ، ارتوت النفوس الظامئة ، ولم تذهب في السكر أكثر مما هو متاح ، وجلس كلٌ يعاتب الآخر ... إنها لا تستطيع الخروج بمفردها ، كانت تخاف أن يسمع أحد مكالمتها التليفونية ... تخاف ابنتها وكذلك الخادمة وحتى السائق الخاص .

ضرب حولها سواراً من حديد ، أخذت تصف له هيامها به وحبها الذي تعيشه ، أخذا يتدارسا كل الطرق التي من خلالها يستطيعان

اختلاس الوقت لينفردا ببعضهما ، كل الطرق شبه مغلقة ، إنها اليوم فقط محظوظة ، فابنتها مصابة بنزلة برد شديدة ، ولا تستطيع مغادرة فراشها ، أخذت تصف له زوجها وغيرته الشديدة ، وأنه يشك حتى في أصابع يديه ، استعرضا سوياً كافة الطرق الممكنة ... خارج المنزل مستحيل ، داخل المنزل أيضاً مستحيل ، فبواب المنزل على معرفة بكل داخل وخارج ، وأغلب الظن أنه تابع للزوج .

استطاعا أن يحددا موعداً متوافقاً مع موعد حصة الفتاة ، وفي الدور العلوي ، وقبل ساعة من الموعد الأساسي ... دامت ساعات العشق المحرم ، وزاد توهج المرأة جمالاً ، وذهبت كل الأشياء الجميلة ... وتوارت رويداً رويداً ... أصبح الحرام هو ملاذ عينه وقلبه .

كان ينتظر قدوم ذلك اليوم بفارغ الصبر ، تأنق في ملبسه بعد أن طالبته بذلك ، أضحى أكثر اهتماماً بمظهره ، كانت زوجته تداعبه فيغمض عينيه ويدعي الإرهاق ... أسرف في غيه وولهه ، فحتى وقار ملابسه المعروف عنه تغير تحت مطلب معشوقتة الجميلة ، خافا أيام الصيف القادمة ، فحددت مكان المصيف وموعده ، وحاول أن يبدي اعتذاراً لها ، لكنها كانت أسرع منه ، لثمت شفتيه ، وكأنها كانت مستعدة لتلك اللحظة ، ووضعت في جيبه مظروفاً منتفخاً بالأوراق النقدية ...

قارب العام الدراسي على الانتهاء ، وهلت بوادر الصيف ، وتخفف البشر من الملابس الثقيلة ، وبعد ساعة من العشق في الدور العلوي ... هبط ليعطي فتاته حصتها كالمعتاد ، نظر للفتاة التي طالما خرج معها عن مألوف الحصة في حديث مداعب وكلمات مرحة ، وجدها في ثياب لم تخرج عليه بها من قبل ، فنهدها كأنهما متبرمان ببلوزتها الضيقة الشفافة ، وشفتاها رغم احمرارهما الطبيعي سبغتا بلون أحمر خفيف ،

وكأن الدم تدفق فيهما على غير المعتاد ، أما النصف السفلي فقد بدا بكل تقاطيعه من خلال بنطلون رقيق ملتصق بصورة أكثر إثارة ، نظر إليها وابتسم ، فابتسمت بدورها ... مالت فوق المكتب فتقارب نهداها ، نظر لخندقها العذري ، وما لبث أن رفع رأسه مسرعاً ، تقابلت النظرات والفتاة في عينيها دعاء غريب ، امتص لعابه وتذكر أنه لتوه خارج من وكر عشقه هو وأمها .

بلباقة معهودة فيه تحدث عن الأخلاق ... عن المبادئ ... القيم .... الدين .... أخذ يتحدث بأشياء كان قديماً يتشدق بها ويعشقها حقيقة ، أحس بألم ، وهو يتحدث عنها ، كم يمني نفسه أن يعيشها ، ولكن عندما يرى أمها ، فإن كل الأفكار والملائكية تتوارى وتبتعد ...

نظرت إليه الفتاة بصورة غريبة ، فلم يستطع تفسيرها ، ثم أخذت منه الحديث ، وكأنها مدربة عليه جيداً ... أخذت تصف الفرق بين الشفاه العذراء والشفاه التي ... أوقف سيل حديثها الذي ألهب حواسه ، حاول أن يستقطبها بالحديث عن الدرس ...

كانت نظراتها مريبة ، اختلس نظرات إليها ، ووجد في حركاتها تحفز غريب ، حركة أناملها الرقيقة وهي تقترب من أنامله وهو يكتب ... حركة قدميها وهي تقترب لتلتصق بقدميه ، آهات في نبرات صوتها عذرية مشبعة بدعوات الصبا ، استطاع أن يتخلص منها بأكثر من أسلوب ، أنهى حصته قبل أن تنتهي بربع ساعة ، ودعته الفتاة وفوق وجهها ابتسامة غريبة ، غمزت بعينيها ، مضى وكاد أن يفقد الطريق الصحيح إلى بيته ، هل يحدث أمها ؟ ... هل أعطى الفرصة يوماً للفتاة ؟ هل تعامله معها برفق ومودة ألهب مشاعرها ؟

***

في المدرسة دست الفتاة في يده خطاباً ، نظر حوله فلم يجد أحداً ، ووضعه في جيبه مباشرة ، غمزت له الفتاة بعينها ومضت ... وفي ركن قصي من القهوة أخذ موضعه ، وطلب من الصبي فنجاناً من القهوة المضبوطة ، فض الخطاب ... أخذ يقرأ ما فيه ...

حبيبي ...

كنت أتمنى أن تصبح حبيبي أنا فقط ، لكن للأسف استطاعت خطفك مني ، كنت أستطيع أن أبلغ أبي بموعد زيارتك لها قبل موعد درسي في الدور العلوي ، حبي لك ولها منعني ، نعم ... قصت عليَّ كل شيء عن معاملة أبي السيئة لها ، جعلتني يوماً أكرهه ، نعم ... كانت أفعاله مشينة ... شتائمه وسبابه ... ربما لم تقل لك إنها كانت راقصة ، وكان أبي يعلم كل شيء عنها ، إنني أستطيع أن أفعل كل ما تطلبه مني ، وفرصتنا أكثر أمناً ، فنحن بمفردنا دائماً ، حاول أن تبتعد عنها وأنا في انتظارك ... فأنا التي أحببتك ، وأنا التي أتيت بك ، وأنا مَن اخترتك دون سواك ... أنت حقي أنا ، وإلى اللقاء في أقرب موعد ... ستجدني أكثر حباً لك من أي إنسانة أخرى ... في انتظارك ...

حبيبتك

ر.أ.م

ألقى فنجان القهوة في جوفه دفعة واحدة ، لم يصدق ، أعاد القراءة ، وشرب كوب الماء ، ثم طلب فنجاناً من القهوة السادة ، وأعاد القراءة ... تاه في الصمت ، وأحس بالجرم الذي ارتكبه ، وتمنى أن يكون أسير حلم ويفيق منه ، ماذا يفعل ؟ هل يذهب ؟ هل يتحدث لأمها

؟ عزم على ألا يقابل أمها ثانية ، لن يصعد الدور العلوي ، كيف يهرب من الفتاة في الحصة القادمة ؟

إن تمنَّع عنها وأبعدها ، ماذا يمكنها أن تفعل ؟ احتمال أن تدعي عليه كذباً وبهتاناً بأنه حاول فعل شيء معها ... هذا جائز ... جائز جداً ، فالعرق دساس ... الفتاة تقول أن أمها كانت راقصة ...

أفاق من غفوته ، وأحس بألم شديد في قدمه وظهره ، فتح عينيه ، ووجد قدمه معلقة وملفوفة في ساق من الجبس ، كاد يصرخ من الألم ، تحسس رأسه فوجد الضمادات فوقها ، التفت فوجد أولاده وزوجته حوله .

تحمل الألم وحاول أن يصنع ابتسامة ، دعوا له بالشفاء العاجل ، والسلامة ؛ حتى يستطيعوا أن يذهبوا للمصيف هذا العام ، اغتصب ابتسامة ، وأومأ برأسه مجيباً ...

***

ضربة معلم

أسرعت الطالبات ، فوقف أمام الفصل مبتسماً ، فآثار حصة التربية الرياضية بادية على وجوههن ، تريث في الدخول ... تعالت صيحاتهن ، أقبل بابتسامته المعهودة ووجهه الأسمر ، ورأسه البيضاء ، وقامته المتوسطة ، توقفوا جميعاً ... وضع حقيبته ، ولم تتحرك شفتاه بكلمة واحدة .

صوَّب عيناه تجاهها ، تجاهلته تحت تأثير شيء ما ... نظروا فى اتجاه شعاع عينه ، أخذت تقلب حقيبتها رأساً على عقب ، أحست بكل

العيون تراقبها ، توقفت عن العبث بمحتويات حقيبتها ، فتوقف ، انتصبت ، كانت عيناها زائغتين ، وكانت يداها مهتزتين ، ألقى عليهنَّ بتحية الإسلام ، حيوه بدورهن ، جلسن ، فعادت لحقيبتها ، تقلب جيوبها ، وتفتح كل كتاب ، وكل كراسة ، وتقلب الأوراق واحدة تلو الأخرى .

توجه إليها بالسؤال ، فأدرك أنها فقدت شيئاً ما ... سألها عما تبحث ، فأجابت بصوت متقطع وكلمات استجمع حروفها بصعوبة ، عرف أنها فقدت ساعتها وقرطها الذهبي وخاتمها الذهبي ، طالبها بالهدوء والتريث والبحث بهدوء ، انصاعت لطلبه ، وعاودت البحث من جديد ، فسأل باقي الطالبات إن كانت إحداهن فقدت شيئاً آخر ، أجبن بالنفي .

اقترب من الفتاة ، وأخرج حقيبتها ، وقام بدوره بالبحث والتنقيب ، أخذت الفتاة تنتحب وتعالت همسات الطالبات ، فطالبهن بالهدوء بلهجة آمرة ، وطلب من الفتاة أن تذهب وتغسل وجهها ، ذهبت عيناه تجوس وتترقب أي بادرة أو حركة من أي فتاة ، أثارت انتباهه عصبيتها ، حركة يديها اللاإرادية ، ونظراتها الزائغة ، فنظر بعيداً عنها ، وعزم على أمر ما .

انفرج الباب ، ودخل الأخصائي الاجتماعي ، مُقطب الجبين وتجاعيد التذمر بادية فوق جبهته العريضة ، همَّ بالحديث ، فطالبه بالصمت ، ونظر إليه متحدياً ، وصمَّم على رأيه ، وحاول أن يتحدث للطالبات ، لم تعره أي طالبة اهتماماً يذكر ، فخرج متذمراً ، وأقسم أنه سيأخذ ضده إجراءً .

ذهب مباشرة لمكتب مدير المدرسة ، ولم يعلق على حديثه بكلمة واحدة ، أمرهن بالنهوض ، وقفن ، فطالبهن بالخروج أمام الفصل ،

وأغلق الباب خلفهن ، وتوجه مباشرة إلى درج الطالبة المتوترة الأعصاب ، وأخرج محتويات حقيبتها بين كتبها ، وعثر على مبتغاه ، ووضع الأشياء في جيبه ، وتوجه مباشرة للباب .

دخلت الطالبات ، وكل شيء رجع لمكانه ، اختلس نظرة إليها ، أخذت تقضم أظافرها وتعض أناملها بصورة غريبة ، استأذن مدير المدرسة في الدخول ، وقفت الفتيات احتراماً له ، فأشار عليهنَّ بالجلوس ، وفي أعقابه دخل الأخصائي الاجتماعي ، وسأل المدير "ماذا حدث ؟" ، أشار إلى الطالبة صاحبة الأشياء المفقودة بالوقوف ، فتحدثت عما فقدته ، واستأذن مدير المدرسة في الحديث ، وهو يتحرك بين الطالبات ويشرح .

– الطالبات كنَّ في حصة التربية الرياضية ، عندما رجعن ، قالت الطالبة أنها فقدت حليها ، سألتها أن تقلب حقيبتها جيداً ، وأخرجت الطالبات خارج الفصل ، وبحثت جيداً ، وللأسف وجدت المفقودات في جيب حقيبتها ، ها هي ... ورفعها بين يديه ، وسلمها بدوره للأستاذ مدير المدرسة ، فحاولت الطالبة أن تقسم بأنها بحثت داخل جيب الحقيبة ... ضحك الأستاذ ...

– يا بنتي هذا يحدث كثيراً ... ها هو الأستاذ مدير المدرسة ، وهو أكبرنا سناً وأوسعنا علماً ومعرفة ، لو سألناه هل ينسى موضع أشياء وضعها بيديه ... ابتسم مدير المدرسة ، وأخذ على عاتقه الحديث ، فتحدث إليهنَّ بلباقته المعهودة وإيمانه الوارف ، فأنصتن لحديثه باهتمام بالغ ، وذهبت الغمة ، وحلت البسمة فوق وجوههنَّ قبل أن ينهي المدير حديثه ، أسرع الأخصائي الاجتماعي بالخروج ، وما زال جبينه معقوداً .

انفرج فم مدير المدرسة مبتسماً ، فابتسم الأستاذ وانفرجت أساريرهن ، وألقى عليهن السلام ، وشد على يد الأستاذ بقوة ، وغمز له بعينه ومضى ، لم يعطِ أياً منهنَّ فرصة للحديث ، وخاض في شرح الدرس مباشرة ، وشيئاً فشيئاً تفاعلن مع الدرس ، وعيناه تتحركان في اتجاههن جميعاً ، وكان يختلس النظر إليها ، وعيناها معلقة به ، وأصابعها ما زالت ترتعش ، فأخرجها من صمتها بسؤال ، لم توفق في إجابته ، ووزع أسئلته على أكثر من فتاة ، ثم أعلن جرس الحصة النهاية ، فألقى السلام ، ومضى ...

استدعاه مدير المدرسة ، فوجد الأخصائي الاجتماعي جالساً بدوره ، وحاول المدير أن يبدد سحب التذمر الظاهرة فوق وجه الأخصائي ، لزم هو الصمت ، وتحدث الأخصائي كثيراً ، وهو متبرم من معاملته له أمام الطالبات ، شارحاً أن هذه الأشياء من صميم عمله ، إن شهاته تؤهله أن يكون الأولى بمشاكل الطالبات ، وأقسم بأنه يعلم أن هناك طالبة امتدت يدها وسرقت هذه الأشياء ، ويجب أن يعلم من هذه الفتاة ؟ ... وأنه سيقوم بإعلان اسمها أمام كل طالبات المدرسة ليأخذن حذرهن منها ، فأمثالها يجب معاقبتهن ولا يجدي تركهن ، تغيرت ملامح وجه مدير المدرسة ، وضرب بقبضته المكتب أمامه ، وحذره بقوة ، وأكد له أن هذا ليس من صميم عمله ، لكن الواجب يحتم عليه أن يحترم رؤية الآخرين ، استأذنه ، فأذن له بالخروج ، وأقسم ثانية أنه سيعرف الفتاة ، خرج ... فنظر المدير للأستاذ ، وعلى شفتيه ابتسامة ...

- أعتقد أنك على حق .
- الحمد لله ... شكراً سيادة المدير ...
- لكن لماذا طردته من الفصل ؟

– هو دخل بدون إذن ... وتحدث كأنني لست موجوداً ... سأل ولم تجبه طالبة واحدة ... طلبت منه الخروج ... كان من أبسط قواعد الاحترام أن يطرق الباب ...

– عندك حق ... لكن تكون هذه الأشياء من صميم عمله ...

– عندما أعجز أثناء حصتي أستدعيه ، وإن عجزنا كلانا توجهنا لسيادتك ... لكن في الحقيقة ، وأنا أقولها بكل صدق ... هذا لن يحدث مني إطلاقاً ... فكيف لأستاذ يدرك أن هؤلاء الفتيات في سن معينة هي سن حرجة ، ولا يراعي مشاعرهن ، هل نسيت يوم فتح خطابات الطالبة ... لم يكتفِ بهذا ، إنما ذهب للفصل يقرأه على الملأ أمام الطالبات ، أين هذه الطالبة الآن ... أين دوره الحقيقي ؟

منذ أخذت الأستاذة سعاد إجازة الوضع ، وبصفتها أخصائية اجتماعية ، كم طالبة عرضت مشكلة عليه ، إنه لا يحل المشاكل ... إنه يصعبها ...

– يا أستاذ ... أنا أشهد أن أخلاقك فوق الشبهات ، وأقر لك بصدق أقوالك وإخلاصك في العمل ، ولا أنسى أنك مدرس لمادة الرياضيات ، وهي مادة لا تترك وقت فراغ لمدرسيها ، فهو في عمل الليل والنهار ، لا أستطيع أن أنكر دورك في مجموعات التقوية بالمسجد ، وارتباط الكثير من الأبناء بك ... واحترام الكثيرين لك من خارج المدرسة ... لكن تذكر أنك لست من أبناء هذه المدينة الصغيرة ، وتذكر أن الغريب أعمى ولو كان بصيراً ...

– عبارتك الأخيرة ... ماذا تعني من ورائها ... وبصدق حاول المدير أن يدور بالحديث دورة مغايرة للحقيقة ، ولكنه رجل لم يعهد أحد منه كذباً ...

. أجيبك وبصراحة ، أنت تعلم أن الأخصائي ينتمي لأسرة ...

صمت الرجل ...

. أعلم يا سيدي ، فهذا هو العام الثاني لي ، أعلم أنهم من أكبر العائلات ... وأنهم يتاجرون في أشياء كثيرة ... منها الممنوعات ...

– اسمع يا أستاذ ... أنت تعرفني جيداً ... وأنا لا أخاف في الحق لومة لائم ، وأنا لا أقول هذا الكلام خوفاً ... لكني أخاف عليك من شراك قد يحاول ...

– الحمد لله يا سيدي ... حتى السيجارة لا أشربها ، ولا أبغي من الدنيا مزيداً من الثروة والجاه ... ولي طلب ... أنت تعلم أنني رائد هذا الفصل ، وأود أن أغير مجرى اليوم الدراسي في هذا الأسبوع ، أود أن أقوم برحلة صغيرة بهنَّ ليوم واحد ، فما رأيك ؟

– يجب الرجوع للأخصائي ...

– لا أمانع ... تحت شرط ألا يذهب معنا ... وآخذ أي أستاذ أو أستاذة ...

– لا مانع لديَّ إطلاقاً ... فهذا يدفع الطالبات للانطلاق ، وهذا هو قمة العمل الحقيقي ... شكره ، وهمَّ بالمضي ، فاستوقفه ...

– لقد نسيت ... هل امتدت يد طالبة لحلي هذه الفتاة ... ؟

– ربما ...

– هل أستطيع أن أعرفها ... ابتسم

– لا أستطيع ...

– وفقك الله وجزاكَ خيراً ... انطلق على بركة الله ...

***

استدعاه مدير المدرسة ، فدخل مكتبه ، ووجد شخصاً بدين الجسد ، تبدو على ملامحه آثار الوفرة في الرزق وسعة العيش ، امتدت يده إليه مصافحاً ، وحاول أن يستقيم من جلسته بصعوبة ، فتوقف ، وحياه ، وقام المدير بتعريفه ... حياه الرجل ثانية ، وصافحه بقوة ، شاداً على يديه ، وحرارة تبدو في ابتسامته العريضة ، وشكره ، وبدورة عرفه بنفسه ، وعاد المدير يذكر مناقب الزائر ويده البيضاء ، وأنه تبرع هذا العام بألفي جنية لمجلس الآباء ، فاشتروا بها سجاجيد لمسجد المدرسة ، وأنه دائماً مبادر لكل خير .

حياه الرجل بدوره ، وشكره وأثنى عليه بما سمعه عنه ، وأشاد به المدير ، وانزوى حديث الترحيب ، وكلمات المجاملة ، وأطلق المدير لسانه بما يريد الزائر ، بنته ضعيفه في مادة الرياضيات ، ودرجة استيعابها لا تجاري منهج الصف الثاني الثانوي ، وفي مجموعات التقوية أيضاً لم تستطع ، أغلقوا عليه كل أبواب الرجوع والهروب ، فالمدير يعلم أنه لا يعطي دروساً خصوصية .

فحاول أن يشير إلى أكثر من زميل ، واهتزت رأس الزائر ، فثناء المدير عليه ، وثناء ابنته زاد من إصراره وتمسكه ، استأذنهما لحاجة ، فاجأته ذاكرته ، وكاد ينسى ، وفتح دفتر الدرجات ، وتأكد من اسم الفتاة ، كانت المفاجأة ، أن الرجل تبدو على ملامحه درجة الثراء ، يتبرع بألفين من الجنيهات ، وابنته تمتد يدها لتسرق قرطاً وخاتماً وساعة ثمنها لا يتجاوز نصف الألف ، عاد أدراجه ، وصنع ابتسامة ، وتحدث الرجل البدين الذي يقترب من الستين عاماً ويزيد ، وكان في حديثه افتتان بأعمال الخير التي يقوم بها ، والمدير يستقبل كلماته بالبشر والسرور ويدعو له بزيادة الخير .

أما هو فقد انضوى تحت سيل من الأسئلة الغريبة ، وحاول أن يصنع من نفسه محللاً نفسياً ، أخرجاه من صمته ، وتوقفا ... فقد هم البدين الغني بالمضي ... فتوقف وشد على يديه ، وأخذا منه وعداً ، فلا مفر أمامه ... انغمس في العمل وتصحيح دفاتر الطالبات ، وجنح فكره بعيداً ، وأخذ يرسم في ورقة بيضاء رسوماً هندسية مبهمه الهوية أو كأنها لوحة تكعيبية مصغرة ، واهتزت رأسه ، وجار عليها بقلمه ، وكتب اسم الفتاة كاملاً ، ونظر إليه بإمعان وتمعين ، وألقى بالقلم ، ومزق الورقة ، ونسي كوب الشاي أمامه ، فأصبح بارداً ... ألقاه في فمه جرعة واحدة ، ومر من أمام الحجرة الأخصائي الاجتماعي ، لكنه لم يره ، عاد الأخصائي للخلف بخطوات عكسية بظهره ، ونظر إليه باستخفاف ، فابتسم له ، وأشاح بوجهه ومضى ...

قاربت الساعة السادسة ، في الطريق صلى المغرب جماعة ، وانطلق ، البناية اختلفت عن كل البنايات المحيطة بها ، إن دلت على شيء فعلو شأن تتمتع به الأسرة ، ضغط على جرس السماعة الداخلية ، فأتاه السؤال ... أجاب ، فأسرعت الفتاة تستقبله بحفاوة ، كانت الفتاة متزينة كيوم عرس ، كان فستانها الجميل مفتوح الصدر والظهر ، وشعرها كأنه أصفر ذهبي ، وبين شعرها الأسود الفاحم ، كادت أصابع يدها تمتلئ بخواتم ذهبية ، وأكثر من خمس أساور ذهبية تبدوا غالية كثيراً ، ومشبك ذهبي فوق صدرها بشكل فراشه ، وشفتاها تلونت بلونٍ أحمر خفيف ، وكذا وجنتاها .

قادته إلى حجرة مكتبها ، كانت وثيرة بمفروشاتها ، ومكتب أكثر بهاءً من مكتب السيد محافظ الإقليم ، كان يتفرسها جيداً ، وحاول أن يلملم شطحات فكره المتهاوي ، أحست الفتاة بانتصار غريب ، وطالبته

بالجلوس فوق المقعد الدائري الوثير خلف المكتب ، كان يتمنى أن يتطرق إلى أحاديث شتى ، سألها عن أبيها ، فأجابته بأنه دائم السفر ، يأتي ربما كل أسبوعين ثلاثة أيام ، اصطكت أسنانه ، وعض ناجذيه ، فتقدمت صوبه فتاتان صغيرتان ، حياهما مبتسماً ، وكان في ذيلهما طفل صغير ، لا يتعدى سبع سنوات حياه أيضاً بحرارة وقبله ، مضوا .

كانت الفتاة تتمنى خوض أحاديث معه ، لكنها لا تستطيع ، كان في حركاتها وبعض كلماتها تعثر ظاهر ، طالبها بالجلوس ، وشمر عن ساعديه ، أقبل على شرح الدروس للفتاة ، وجلست أمامه ، ومالت فوق المكتب بعض الشيء ، فبرزت مفاتن صدرها كثيراً ، أدرك أنها ربما تعمدت ذلك ، فأشار عليها بالجلوس عن يمينه واستعاذ بالله ، وأشاح بنظره بعيداً .

كان الوضع أفضل كثيراً ، تفاعلت الفتاة مع كلماته ، وطغى موضوع الدرس على كل شيء ، انزوت أي أفكار أخرى ، وترك لها الفرصة أن تظهر ما فهمته في صورة مسائل مختلفة ، سمع طرقات خفيفة على الباب ، ثم فُتحَ الباب ، واقتربت ، بلباس حريري ناعم يبرز مفاتن يهتز لها وجدان العابد الناسك في محراب ربه ، تفجر أنثوي قاهر ، يذيب القلوب الحديدية ، كانت تتجاوز الثلاثين عاماً بقليل ، وسياط طرقت قلبه في نشوته ، ولسان كاد يلهج بالشكر ، التصق بسقف أو قاع الفم لم يدرك ، توقف مبهوراً شارداً ، وأدرك أن الفتاة بجواره ، فنظر إليها ... أخذت تطرق المكتب بصورة عصبية ، تماسك ، حيته ، فحياها ، وامتدت يدها ، احتضنها للحظة أو تكاد بأنامله الخشنة ، سألته عنها ، فأجابها بحديث يرفع من قدرها ، وابتسمت الفتاة .

حدثها بحديث مجامل ، وانزلقت من بين شفتيه جملة صغيرة ... "لقد ظننت أنك أختها الكبرى" ، أطلقت ضحكة مجلجلة اهتزت لها أركان الحجرة ، فاهتز داخلياً ، واربد وجه الفتاة ، وخرجت ، عينا الفتاة حبلى بدموع ، تصنع عدم رؤيته لها ، وأطرق برأسه للأرض ، وترك المكتب ، وجلس بعيداً فوق أريكة مريحة ، وترك الفتاة تحل مسائلها ، وضعت أمامه الصينية التي أتت بها أمها ، لم يألف الحلويات كثيراً ، اكتفى بفنجان الشاي ، سألها هل انتهت من الحلول ، اهتزت رأسها ، فتركها لفترة ثانية ، وعاد لمجلسه .

لم يجد أي شيء صحيحاً مما كتبته ، أعاد الشرح بصورة أكثر تبسيطاً ، بدأت تتفهم وتحل بيديها ، فاسترد بشاشته ، وابتسم لها ، وأشاد بها ، فانطلقت تحاول بجد ، فشجعها ، وألقى على أذنيها كلمات الاستحسان ، فتفجرت وانطلقت تحل المسألة تلو الأخرى .

ربت على كتفها مهنئاً ، ثم سمع جرس الهاتف ، وتوقفت يدها عن الاسترسال في الإجابة ، وزاغ بصرها ، وعضت أناملها ، وظهرت تجاعيد فوق جبهتها ، فتصنع النظر بعيداً ، واخترقت الحجرة ضحكة ماجنة مستهترة ، وألقت بالقلم من يدها ، فابتعد بنظره عنها ، وتصنع القراءة في كتاب فوق المكتب .

كانت الفتاة في دنيا أخرى ، خيوط تتشابك ، عنكبوتية الصنع ، لا يدرك مبتداها ومنتهاها ، أعاد السؤال على الفتاة ، فلم تجبه ، سألها فيما أجادته وتفهمته جيداً ، فانسلخت من توهجها الفكري ، ونسيت استخدام القوانين التي صاغتها لتوها ، وحاولت الفتاة ، لكنها لم تستطع ، فأخذ يذكرها ، واستشعر شيئاً من الراحة ، وبدأت الفتاة تعود لسالف نشاطها الذهني ، وهمت بحل مسألة .

وقطعت السكون ضحكة أقوى من سابقتها ، استأذنته وكادت تخرج ، لكن تسمرت قدماها ، وعادت أدراجها ، نظر في ساعته ، وحدد لها موعداً آخر وهو خارج نَظرَ فوجد الأم واضعة ساقاً فوق أخرى ، رفع لها يده مودعاً ، فرفعت يدها مودعة وحديثها دائر ، ودع الفتاة عند الباب ، همت بالحديث ، لكن خرس لسانها ... نظر إليها ، ثم انطلق ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، لقد تردى فكره في زوايا غريبة ، وانفصل عن دنيا أفكاره بين أولاده ، توضأ وصلى ، فصلوا خلفه ، ودَّ أن يجلس بمفرده قارئاً ، طالبوه بالخروج للنادي الاجتماعي ، اصطحبهم خارجاً ، وحاول أن يبدو في صورة طبيعية .

***

استقبلته الأم في صورة أكثر بهاءً ، وتجاذبت معه أطراف الحديث ، حاول أن يكون مقلاً في كلماته ، شاخصاً ببصره بعيداً عنها ، كالت له المديح والثناء ، فشكرها ، وتقدمت بعلبة الشيكولاتة أمامه ، فتبرم نهدها برباطه فكاد يخرج من مكمنه ، اختلس نظرة لها ، وأخذ واحدة ، واختلس نظرة أخرى لعينيها ، كانت ابتسامتها تعكس توهجها ، حاول أن يعقد مقارنة بين جسد زوجته الفيلي الحجم وجسدها البارز الفتان ...

دخلت الفتاة ، فأقلع عن أفكاره ، واسترد وعيه ، وعاد لشرحه بهمة ونشاط ، وجلس بعيداً بعض الشيء ، وتركها تحل بعض المسائل ، ومع الرشفة الأولى لفنجان الشاي ... بادرته الفتاة ...

– هل الأخصائي يعرف ؟ تصنع عدم الإدراك أولاً

– لا ...

– مدير المدرسة ... ؟

– أيضاً لا يعرف ...

– مَن في المدرسة يعرف ؟

– لا أحد ... ، اهتزت ، وامتلأت عيناها بالدموع ، وهبطت دمعة ، رفعتها بسرعة فاقترب منها ، وربت فوق كتفها ، فخبأت رأسها بين يديها فوق المكتب ، ومسح فوق شعرها بحنو أبوي ، وجلس فوق الكرسي ... واستطرد ...

– اسمعي يا بنيتي ... حباك الله أشياء كثيرة ، الحمد لله تعيشين في عيشة طيبة ، لا أرى أنكِ في حاجة لأي شيء ، كنت لا أود أن أفتح هذا الموضوع مطلقاً ، لكن هل تستطيعين أن تكوني معى أكثر صراحة وتحدثيني بدون مواربة ... ؟ اهتزت رأسها مجيبة ... فبادرها ...

– لماذا فعلتِ ذلك ؟ ...

– كنت محتاجة للنقود ...

– كم ... ؟

– ثلاثمائة جنيه ... خمسمائة

– لماذا ؟ ...

– طلبها مني ...

– مَن ... ؟

– كنت أعرفه منذ سنة ، أخطأت وكتبت له ...

– ماذا يعمل ... ؟

– لا أدري .

– ما اسمه بالكامل ؟

– أعرف أن اسمه سعيد ... ، ابتسم ...

– هل تظنين أنكِ إن أعطيتيه النقود ... فسيعطيك خطاباتك ؟ إذا كانت هذه هي الحقيقة ...

– أقسم ...

– لا تقسمي يا بنيتي ... إذا كنت حقيقة صادقة أعطيني اسمه بالكامل وعنوانه ، أنا على أتم استعداد أن أذهب إليه وأهدده ، وأفعل معه أي شيء وبأي طريقة ... ، ربما تخافين مني ... ها هي والدتك إنها قريبة منكِ ، قصي عليها ، وخذي برأيها ، ... صرخت بشكل لا إرادي ...

– لا ... لا ... إلا ماما ...

– سأقص عليها إذن ماحدث منكِ ... أمسكت بيديه .

– أرجوك ... أخذت تبكي ... وتنتحب ...

– إذن ليلعم أبوكِ بما حدث ... ابتسمت بسخرية ...

– هـ ... هـ ... بابا ... بابا في دنيا تانية ... الحياة في نظره مجرد فلوس ... فلوس ...

– في مرة سابقة رأيت عمك هنا ، سأرسل في طلبه ، طالما أن أباك ليس موجوداً ...

– أرجوك ... ستحطم هذا البيت ...

– كل مشكلة يا بنتي لها حل ... أعطيني عنوان عمله ... أبت الفتاة ... ودخلت الأم فوجدتها دامعة العينين متغيرة الشكل ، يبدو على وجهها آثار ... جلست متسائلة ... وبعينين تقطر شرراً

– ماذا حدث يا أستاذ ؟

كاد يتحدث ، صرخت الفتاة ، وسجدت تحت قدمية ، أخذت تبكي ، استعاذ بالله ، أغلقت أمها الباب جيداً ، أخذتها في صدرها ، ورمقت الأستاذ بنظرات نارية ... ابتسم ...

– ستكونين مخطئة كثيراً ... لو تصورت شيئاً خطأ ... كل ما أطلبه منك الآن أن تتصلي بعم الفتاة وتدعيه للحضور لأمر عاجل ، أفلتت الفتاة من حضن أمها ... صائحة ...

– ليس عمي ... ليس عمي ... إنه أقذر إنسان في هذه الدنيا ، إنه السبب في كل المصائب التي تحيق بنا ... إنه ... تلقت صفعة قوية فوق وجهها مباشرة .... التصق شعر رأسها بوجهها ... تناثر حول وجهها ... ووقفت متحفزة ... وكأن بها مساً من الجنون ...

أيوه ... مش عمو ... إنه ... عادت ، وصفعتها ثانية ...

قام من فوره ، وعرف الطريق ، فتقدم بمفرده ، كان صدره يعلو ويهبط ، أحس بدوار ، وانطلق لا يدرك مسار قدميه ، وحاول إلقاء خيالاته بعيداً ، وصورة الفتاة تلاحقه ، وكانت الأم تأخذ رأسها في صدرها ، ثم صورة الأم وهي متنمرة شرسة وضربها للفتاة ، هل مجموعة من العقد النفسية تسيطر عليهما ؟

نظر في ساعته ، لقد اقترب موعد صلاة العشاء ، فعرج على أقرب مسجد ، وبعد أن أنهى صلاته عزم على أن يصلي صلاته ثانية ، انزوى في شارع اتصف بالهدوء ، كانت أغصان أشجاره متشابكة وأضواؤه المرسلة خافتة ، وكان يوجد بصيص ضيئل من النور لم يستطع ترتيب الأوراق ، مرَّ بجواره شبحان ، لم يسمع وقع أقدامهما وهسيس صوتهما وهما بجواره ، وتكرر المشهد أكثر من مرة ... فتى وفتاة ... صديق وصديقة ... حبيب وحبيبة ... خرج من شارع الضباب مسرعاً ، واتخذ

جهة مغايرة ، وصمَّم على ألا تطأ قدماه هذا البيت ، وأخذ يلقي باللوم على نفسه وموافقته .

في اليوم الرابع ... بعد تغيب دام ثلاثة أيام ، كان وجهها شاحباً ، عيناها زائغتان ، وكانت هالة سوداء أسفل العين ، جلست بمفردها في نهاية الفصل ، فحاول أن يتجنب النظر إليها ، كانت عيناها معلقتان به ، فاض في شرحه ، واستمع لتساؤلات الفتيات وأجابهن ، فتفاعلت الطالبات معه ، وهي غائبة عن الوعي ، فاغرة فاها ... كتمثال فوق كرسي خشبي .

كتب مسألة جديدة ، وأطلق للفتيات الفرصة ؛ ليرى مدى استيعابهن ، انطلقت أيديهن بالأقلام تهرول فوق صفحات كراستهن ، غادية مفكرة أو ذاهبة شاخصة ، تستجدي كل منهنَّ قريحتها ، أما هي فاستسلمت للنظر إليه ... تحرك بين الصفوف ، وبصوت هامس طالبها أن تحل المسألة ، بصوت مرتفع بعض الشيء ، وبصورة لا تليق ، ولم تحدث من قبل ... أجابته وعلامات التهيج واضحة بأنها لا تفهم شيئاً .

اختلست الفتيات النظر وعدن للحل ، وابتسم ، وامتص غضبه ، وابتعد عنها ، وأخذ يلقي بنظره في حلول الطالبات ، أخذت تنتحب بصوت خفيض ، فلم يعرها اهتماماً ، وتصنع عدم سماعها ، فحاولت إحداهن مشاركتها ، وربتت فوق كتفها ، فدفعت يدها بقوة صارخة فيها ، فتوقف ، ونظر إليها بحدة ، وطالبها بالوقوف صامتة ، وعاد الصمت للفصل ، وأشاد بمَن توصلنَّ للحل الصحيح ، وبدأ في الشرح ، ولم ينظر إليها ...

وقعت على الأرض ، فارتبك الفصل ، وتحركت الطالبات ، وأسرع بدوره ، أفسحن له ، فرفع رأسها ، ذهبت في إغماءة ، اشتركت ثلاثة فتيات في حملها ، كانت دقات قلبه تتحرك بقوة ، أسرعن بها لحجرة الزائرة ، فطالبهن بالصمت ، وأسرع بدوره ، فطمأنته الزائرة ، وعاد أدراجه ، وأحس كأنه السبب الرئيسي فيما تعرضت له الفتاة .

حاول أن يتماسك ، وأن يبدو رابط الجأش أمام الطالبات ، أكثر من طالبة هبطت دموعها فوق وجنتيها ، وحاول أن يتحدث فلم تسعفه قريحته بالحديث ، فحمد الله أن الحصة قد انتهت ، فانطلق ، وجلس بجانبها ، ضحكت الزائرة ، وأفضت له عن أسباب كثيرة تدعو للإغماء في مثل هذا العمر الحرج ، وكثيرات من الفتيات يتخوفن مما يصيبهن .

تصنع الإنصات لها ، وهو يدرك تماماً أن مصابها ليس عضوياً ، ذهب ، وبعد فترة ليست بالقصيرة ، عاد ثانية ، وابتسم لها وهي نائمة فوق المخدع ، ومسح على رأسها ، فأمسكت يده وهي تبكي ، وتحركت كل أجزاء جسده ، وأربكته رعشتها ، فكادت تطفر من عينيه الدموع ... لثمت يده فسحبها ، ونظر إليها ، فخبأت وجهها بين كفيها ، ثم خرج .

تقدمت الفتاة صوبه ، وبصوت هامس طالبته بالعودة لإعطائها درسه الخصوصي ... تذرع بمعاذير كثيرة ، وأشاد بها ، ورفع من قدرها ، وحاول أن يبث داخلها الثقة ، فعادت من جديد تسأله ، فشخص ببصره بعيداً ، وتجنب رؤية عينيها المغرقتين بالدموع ، وشعر بالانكسار في كلماتها المتقطعة ، فاستأذنته ومضت .

كان يتجنب النظر إليها داخل الفصل ، اتخذت من يديها ملاذاً لرأسها المشتعل بالانفعالات ، لم يعنفها ، كان أسفل عينيها هالة سوداء ، وكانت عناها تفيضان بالأسى والحزن المقيم داخلها ، خالف عادته ، وكلماته القاسية أحياناً ، الأبوية غالباً التي يسقطها فوق رءوس الفتيات إن غفت إحداهن ، تركها وحبس كلماته ، ما كاد يخرج ، حتى أسرعت خلفه ، وضع حقيبته على السور الخارجي ، فتشجعت بعد محاولة ... "يجب أن تأتي غداً ... إن لم تأتِ ..." لم تكمل عبارتها ، فرت هاربة من أمامه ، ومضى .

عاشت كلماتها المعدودة المبهمة داخلة طوال اليوم ، كانت شريكة حياته ، الفياضة بالحب والبشاشة ، حاولت أن تفهم شيئاً ، صمته أثارها ، ظنته يحتاج للمال ، ظنت به داءً ، فخلعت عن معصمها أساورها ... ضحك لها ، وردها إليها ، فطالبته بالذهاب لطبيب ، مال عليها وقبلها ، ودعا لها أن يباركها الله ، كانت سنده ورفيقة دربه ، استطاع المضي في حياته بها ومعها ، ولم يتعود يوماً على التفرد بقرار أو التشبث بفكرة .

طوقته بحديثها العذب العاشق المحبب لنفسه ، غفت عيون الأبناء ، فاستند بظهره على حافة السرير ، وهي بجواره ، وأخذ يقص عليها قصة الفتاة ، وما كان منها وأمها وأبيها وبكائها ... وتوسلها ومطالبته أن يأتيها في اليوم التالي وإلا ... كان حديثها عطاءً فياض ، وكانت كلمات هادئة رقيقة تنساب من بين شفتيها ، وكان حال الفتاة يعكس أسى بالغاً ... تعكسه كلماتها ، شاركته الرأي والرؤيا ، وكعادتها انسابت دموعها مشاركة لمأساة فتاة لا تعلمها ، فأخذها بين يديه ...

***

استقبلته الأم ، وشدت على يديه ، فنظر إليها ، وتأملها لحظة ... ألوانها ولباسها ... استعاذ بالله ، جلست معه ... بادرته ...

– أنت الإنسان الوحيد الذي ... ابتلعت باقي كلماتها ...

– أكملي سيدتي ...

– ابنتي ... لا يمكن أن تثق في إنسان قدر ثقتها فيك ...

ابتسم ... وعاد ...

– أظن أنكِ على قدر كبير من الثقافة ... وفتاتك في سن حرجة ... كوني لها الصديقة ... اقتربي منها ... تحدثي إليها ... شاركيها في كل شيء ... أكل ... ملبس ... يتأتى بعد ذلك ...

– حاولت كثيراً ، لكن دون جدوى ... وضعت ساقاً فوق أخرى ، فانحسر لباسها الشفاف بعض الشيء ، فابتسمت ، حاول أن يدير الحديث بلباقته المعهودة ، فاستأثرت هي بالحديث ، كان مستمعاً بارعاً ... سمعها جيداً ، دون النظر لعينيها الغازية ...

تأججت عواطفها لعزوفه ، وأخذت تشكو ألماً تعانيه ووحدة ... لا تجد من يؤنس وحدتها ، أبناء هي لهم الأم والأب ، أب يمضي في حياته ، يجمع الأموال ويغرقهم بالهدايا ، يأتي يوماً أو يومين في الشهر ... زوجته الأولى ... وأبناؤه الآخرين ... هبطت دمعة دقيقة ، وتلونت بألوان شتى غلبها لون كحل عينيها السوداء .

تحركت يده بأمر شيطاني ، ورفعت الدمعة المنسابة ، وتحسست في طريقها الوجنات العامرة الملتهبة ، وقبضت على يده ، فتركها ، لثمتها

بخشوع ظاهر ، سحبها بقوة ، وانتصب واقفاً ، جثت عند قدميه ، وتضرعت له ، وتوسلت ، فأشاح بوجهه بعيداً ، فأمسكت يديه ، لم ينظر إليها .

ثم انفرج الباب ، فنظرت بوجهها الشاحب المتنمر ... حاول الحديث ، لكن ذهبت محاولاته سدى ، صرخت الأم في وجهها ، فتسمرت الفتاة في موقعها ، وأخذت تضحك بصوت عالٍ بكلمات ساخرة ، وأخذت تهذي ...

– الأستاذ ... الأستاذ العظيم ... كل تلامذته يحبونه ... يقدرونه ... مصدر ثقة الجميع ... كلماته المتوجة بالحب والخير ... هو أيضاً ... ألا يكفيك ... حرام ... حرام ...

أخذت تصرخ ... وضربت وجهها بيديها بقوة مرتين متتاليتين ، فأسرع إليها ، وكادت تسقط ، فأخذها إلى أقرب كرسي ، طالب الأم ببعض الماء ، وزجاجة برفان ، فأسرعت ، ربت على وجه الفتاة ، ووضع الرائحة تحت أنفها ، وأخذ يمسح جبينها ، ففتحت عينيها ببطء ، وسحبت يدها من بين يدي أمها ، ونظرت إليه بقوة ، فاهتز .

– اسمعيني جيداً يا بنتي ... أشاحت بوجهها ، فأمسك بوجهها وأداره ناحيته ، وعادت إليه شخصيته المفقودة بعض الشيء ... استطرد ... أتيت هنا خوفاً عليك ...

خفت أن تفعلي شيئاً بنفسك ... أندم عليه طوال حياتي ... لم أغضب الله يوماً ... ابنتي تقاربك سناً ... إنني أحبك كابنتي ... تذكري خوفي عليكِ ... تذكري جيداً ... كنت دوماً معك وبجانبك ... أخذت تبكي ، ثم استقامت في مجلسها ، كان شعر رأسها متناثراً فوق وجهها ، ودموعها جارية ...

– ما ذنبي أنا ... ؟ ... هل أقيم محاكم لأبي ؟ ... طالبته كثيراً أن يقيم معنا ... تعلل بأسباب كثيرة ... أن يوفر لنا الحياة الكريمة ... أن يؤمن مستقبلنا ... أنا مستقبلي انتهى ... وضعت رأسها بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء ... احتضنتها أمها ... فأبعدتها ... تنازعت الأم عوامل شتى ... واستجمعت شتات نفسها ... بصوت قاهر ...

– مستقبلك ... الحمد لله ... كل شيء تحت يدك ... كم أسورة من الذهب تملكين ... و... و... وملابسك كل عام أبدلها بغيرها ... هل تطلبين شيئاً ... ؟

– حرام عليكِ ... حرام عليكِ ... مستقبلي ذهب ومأكل وملبس ؟ أنا لا أريد أي شيء ... خذيه ... لم أستطع أن أبيعه ... تريثت ، ثم عادت ... كنت أتمنى بيعه لأشتري صمته ... إنه يهددني ... تساءل الأستاذ وكذلك الأم في صوت واحد ...

– مَن ... ؟

– مَن سجل مكالماتك التليفونية ... صرخت الأم ...

– مَن ... ؟

– لا تحاولي الإنكار ... لقد أسمعني إياها ...

تبدلت ملامح الأم ، وجلست على أقرب مقعد ، وذهبت كل الألوان التي تلون بها وجهها ، واختلطت ، كان لونها قريباً من الأصفر الباهت ، أما هو فقد تشابكت الخيوط العنكبوتية اللزجة فوق خلايا عقله ، فانضوى تحت سيل الأسئلة التي لا يجد لها جواباً مقنعاً ، وضع ساقاً فوق الأخرى ، وكانت نظراته حائرة بين الأم والفتاة ، وبصيص من نظراته يخترق حواجز الحضور ، فتأتيه صورة الزوج الثمين حجماً ومالاً ، فيمتص لعابه .

عضَّ على ناجذيه ، فأدرك أنه ليس أسير حلم ، أو رواية لكاتب أجاد ، كانت رفوف المكتبة زاخرة بأمهات الكتب ، والصور الكبيرة ذات الإطارات الذهبية الفاخرة تزين الجدران ، أخرجه ذلك من حيز الوجود اللاموجود طنين بعوضة اخترقت حواجز البيت المرفه ، تعجب كيف استطاعت ، كيف تخطت حاجز صاعق الناموس !!!

خيَّم الصمت عليهم ، وشعر بميل للقيء ، وهمس في أذنيها بحاجته لدورة المياه ، فقادته في ردهة ليست بالطويلة ، وأشارت إلى الباب ، ونكصت على عقبيها ، فانكمش ليفسح الطريق لها ، لكنها وقفت أمامه ، وابتسمت ، واقتربت أكثر ، فانكمش أكثر ، حتى التصق بالجدران ، واهتز دون وعي ، وصفعها فوق وجهها مرتين متتاليتين بكلتا يديه ، وحاول القيء ، لكنه لم يستطع ... كانت مشاجب الحمام فوقها ملابس داخلية صارخة ، فأسرع بالخروج ...

***

همَّ بالمضي ، فتوسلت له الفتاة ، وأمسكت الفتاة بيده ... فجلس قريباً منها ، وأخذت يده تمسح فوق شعرها ، وعادت الأم تحمل مشروباً مثلجاً لكليهما ، وضعته بتأفف بالغ أمامه ، فنظر إليها ، كانت بلا صبغات تغمر وجهها ، وآثار المياه فوقه ، فظهرت أكثر جمالاً ، شكرها ناظراً إليها بحيرة بالغة ، لم ترفع نظراتها عنه ، وهي متحدية صلبة ... بعد محاولات منه ، رشفت من مشروبها ، ثم توقفت ، ونظرت إليه قائلة ...

– هل تظن أني سارقة ... ؟ أنا ...

– مَن قال ذلك يا بنتي ...

– أرجوك ... أرجوك إنها الحقيقة ... نعم ... أنا سرقت ، خفت إن بعت أساوري أن تسألني لماذا ؟ ... أشياء كثيرة كنت سأقع فيها ،

وأخاف من التحدث إليها ... امتدت يدي لتسرق ، لأعطيه ما يطلبه ، فعلمت أنت بكل شيء ، وأقنعت الجميع بأنها نسيت موضع أشيائها ، بكيت كثيراً ، وتمنيت أن تتحدث إليَّ ...

وعندما تحدثت كذبت عليك ... لم تصدق الأم ما تسمع ... فصرخت قائلة ...

– أنت ... أنت تسرقين ... تمتد يدك ... !!!

– ها ... ها ... ليتك تسرقين ، فحسب ...

طالبهما بالهدوء ، لم تستجب الأم لمطالبه ، صرخت فيها رافعة إصبعها في وجهها ...

– أنتِ مثله تماماً ... ألستِ ابنته ... نعم ... هو اشتراني ... نعم ... كنت فقيرة ... علمني أبوكِ كلَّ الأشياء القذرة ، لم يمضِ أسبوع أو أسبوعان على زواجنا ... وجدته فوق مخدعي مع عشيقة له ... هدد ... إن تحدثت سيلقيني في الشارع ...

هبطت دموعها ، وارتعش جسدها ، وأصبحت وكأنها في قاعة محكمة تدافع عن نفسها ، وأخذت تكيل الاتهامات للأب ، أضحت الصورة واضحة جلية أمام عينه ، كانت كلمات الفتاة حقيقة لا شك فيها ، كانت بين دفاعها تؤكد تورطها في علاقة مع صديق زوجها ، وأخذت تكيل له المديح ، وأخذت تسرد مزايا هذا الصديق ... إنه الوحيد الذي يتردد عليهم ، كل عائلة الأب تقاطعهم بسبب زواجه منها ، هو لا يتوانى يوماً في السؤال ، يأتي الليل قبل النهار ، أي شيء يلبيه صاغراً لهم ، إن لم يأتِ ، يسأل بالتليفون ، وأخذت تعدد مناقبه ، ولم تفصح حقيقة ... هرولت خارجة ... جف حلقه ، وامتدت يده للمشروب المثلج ، ورغم حلاوة المشروب لم تذهب مرارة حلقه ، بادرها :

– يا بنتي تريثي ... ربما ... أجفلت قائلة ...

– أقسم لك ... أقسم لك بالله العظيم ... إنه يحتفظ بشريط لحديث ... لا أستطيع أن أتحدث بما يحتويه ... أرجوك صدقني ... إنه أقسم إن لم أذهب إليه ، وأعطيه خمسمائة جنيه ، سيحطم هذا البيت ... حدثها بهدوء ...

– أرجوك ... إنه إنسان خائن ... وهو إنسان شديد الخوف ... إنه أقل من فأر ... إنني أؤكد لك ... عادت للبكاء من جديد ، فحاول تهدئتها وخرج حديثها أكثر مرارة ، وأخذت تردد عليه وقائع غريبة يأتيها معها منذ أصبحت في المرحلة الثانوية ، كيف كانت يديه تعبث بأجزاء من جسدها ، ارتعشت أطرافه ، لم يصدق أذنيه ...

– كان يأتيني بالشيكولاتة ، ويضعني فوق قدميه ، وكنت أجري وألقي بنفسي بين ذراعيه ... وبمرور الوقت ... كنت أبتعد وهو يقترب ، تحدثت إلى أمي مرة واحدة ، فصفعتني بشدة ، وكالت لي السباب .

وفي المصيف كان يأخذني بيدى لداخل البحر ، ابتعدت ... أخذت الفتاة تقص وقائع غريبة ، فأصبح طعم حلقه مراً مرارة غريبة ... فكان يحاول أن يتذوق المشروب بلا جدوى ، صمتت الفتاة ، لكنه عاد يسألها أسئلة متتابعة ، فأجابت بلا تردد ، أصغى إليها ... وجلس إلى مكتبها ، وأمسك قلماً ، وأخذ يخط خيوطاً متشابكة فوقها ، استدعاها ، فتحركت ناحيته وجلست ، أخذ هو دفة الحديث ...

– أولاً ... هذا إنسان سافل ، هل تتوقعين أن يعطيك هذا الشريط المسجل ... بالطبع لا ... ستكونين له البطة التي تبيض ذهباً ... ربما يطمع في شيء من المال ... ولكن يطمع فيك يا بنتي أكثر ...

ستكونين عبدة له ... لرغباته ونزواته ... لن تصبحي حرة يوم تذهبين إليه ... ستفقدين حريتك ، ومعها أشياء كثيرة ...

ربما دوافعك وخوفك على أسرتك هما اللذان يحفزانك على فعل شر تظنين من ورائه خيراً ... لا ... لا ... من حديثك أظنه كلباً ذليلاً لوالدك ، يتحين فرصة تأتيه ... أستطيع أن أؤكد لك أمثاله لا يستطيعون ... وعلى حد معلوماتي القانونية إن أظهر هذا الشريط فستكون عواقبه وخيمة عليه ... فالمعروف أن التسجيلات الصوتية لابد لها من إذن نيابي ، وهو ليس له هذه الصلاحيات .

جفت الدموع من فوق وجه الفتاة ، وعادها شيء من التورد ، وأجاد في حديثه ، حتى مس شغاف قلبها ، ودخلت الأم ، فهمَّ بالخروج ، وابتسمت الفتاة له ، فطالبتها الأم بالخروج ، فأذعنت لرغبتها ... صنع ابتسامة للفتاة ... صاغها جيداً ، أغلقت الباب ، أمرته بالجلوس ، فابتسم ببرود ، واعتذر قائلاً إن الوقت متأخر ، أغلقت الباب بالمزلاج ، فأخذته الريبة ، فتوجس الشر منها ، وتصنع القوة وهدوء الأعصاب ، وجلس ووضع ساقاً فوق أخرى ... بادرته بانفعال ...

– إنها بنتي ... وهذه حياتي ... وأي كلمة ستخرج منك ، سيكون فيها نهايتك وأنا أحذرك ... ابتعد عن بنتي ... أمثالك يسعون وراء أشياء قذرة مع فتيات صغيرات ... أخذته نوبة من الضحك ، واستطردت ... أي كلمة سأردها ... أما يدك التي امتدت فإني سأقطعها لك ؛ لتعلم مَن أنت ... أنت مجرد مدرس تافه ، وحديثك لا يجدي إلا مع أولاد أو بنات صغار ...

– أستأذنك وشكراً لك ...

– إنني أعرف أمثالك جيداً ... وستأتي وتعطي دروساً لبنتي بصفة منتظمة ...

– إن شاء الله ...

تحرك بهدوء ، وفتح المزلاج ، كانت الفتاة أمام الباب ، أحسَّ أنها كانت تسترق السمع ، فنظر إليها بعنف ...

– آسفة يا أستاذ ... لكن لا تأتي ثانية ... إنني ... ربت بيده فوق وجنتيها ... شدتها الأم من شعر رأسها ... صفعتها ... ودفعتها لتدخل الحجرة ... سبقته إلى الباب الخارجي ... وهددته ... فأومأ برأسه مستجيباً ومضى ...

***

سألته عن تأخره ، وكيف كان يومه ، وماذا حدث للفتاة ... قصَّ عليها باستفاضة وأغفل أشياء متعمداً ... وسمعا صوت المؤذن لصلاة الفجر ، فاستعاذ بالله وفتح الحجرة على بنتيه ... ونظر لابنيته وهما نائمتان بعمق ... فأغلق الباب وذهب للوضوء ...

***

أجلساها بينهما ، وتوعداها كلاهما ، خافت أشياء كثيرة ، مما سيحدث إن لم تصمت ، صاغا لها ما ستتحدث فيه بدقة ، توسلت ، وبكت ، لكن لم يشفع لها بكاؤها وتوسلاتها ...

جلس مدير المدرسة مذهولاً ، لم يدرِ ماذا يقول ؟ أقسم بالله العظيم أمام النائب ، وأخذ يشيد به ، تقدمت الفتاة بذبولها الواضح وعينيها الزائغتين ، وأخذت تسرد وقائع سلوكه معها ، وكيف حاول ، ومتى ... كانت كلماته الداعية لها حديثاً منسوجاً بدقة بالغة .

ضرب المدير كفاً بكف ، وشرح للنائب أشياء كثيرة ، إنه دون سائر المدرسين لا يعطي دروساً خصوصية ، إنه هو الذي طلب منه مساعدة الفتاة ، إنه دائم الدعوة للفتيات بالتزام العادات والتقاليد ، إنه الصوت الذي يسمعه الجميع لحب الخير والتزامه ...

تقدمت الأم بعد استدعاء ، وألقت بشهادتها ، وأقسمت بأنه ضربها في بيتها ... استقدموه ... سُئلَ أسئلة متتابعة لا يجد لها إجابة ، كان يكتفي بأن يطلب من النائب أن يسأل الفتاة ... إجابتها كانت غير متوقعة ، كل الأحاديث تدينه !!!

لم يستطع أن يقسم بأنه لم يضرب الأم ... الأخصائي بدوره أفاض في حديثه ، وتحدث عن مدى علاقته الغريبة بالفتيات ، وأنه بدوره طالبه كثيراً أن يترك الفتيات ويبتعد عنهن ... التزم كثيرون الصمت ، وكاد الخوف يقتلهم ، تحدث قليل من الزملاء ، ولكن بأحاديث وسط لا تخرج عن المألوف والنفاق أحياناً ... طلب من النائب الحديث إليه منفرداً ، وطالبه أن يكون الحديث غير رسمي ، وقص عليه ... ابتسم النائب ... تُحال الفتاة للطب الشرعي ...

دعوى للانحلال والفسق من رجل تربوي ...

إعطاء دروس خصوصية ...

وما زال التحقيق مستمراً ... وما زال صامتاً ...

***

آتاه الله بسطة في الجسم وصوتاً هادراً خارجاً من حنجرة ، وكأنها لا تحتوي على لوزتين ، كان يومه يفيض بالضحك والتهريج ، وكأنه لا يحمل للدنيا هماً ، وطوال عمره يحب السهل من الحياة ، كان حصوله على دبلوم المعلمين في حينه إعجازاً بالنسبة له ، ولكل العارفين بقدراته الذهنية وقبوله للعلم ، أما ذاكرته في حفظ النكات وخاصة الخارجة عن النص ، فيحكي بها ويتبارى في جلساته بإطلاقها بصوته الجهوري ، وكان إلقاؤه محبباً ، فكان يضفي على حكايته ما لم يستطع آخر سردها بطريقته نفسها .

كان يضحك ، ويهتز جسده الضخم ، فيثير الضحك أكثر من حكايته ، كان في صمته عتاب على الحياة ، ولكن لا يطول ، فهو لا يملك من الدنيا سوى راتبه الشهري ، وزوجته لا تعمل ، قالوا له "حاول أن تقلب رزقك" ، هو لا يجيد فن البيع والشراء ، وإن أجاد فمن أين رأس المال الذي يبدأ به مشروعه ، كان يفكر في مد يده لأي زميل أو قريب بقرض إلى حين ، ولكنه يعلم مقدماً ، فالجميع سيتعلل بالظروف ، وبينه وبين نفسه يقر بأن لهم الحق ، فلم يسبق أن اقترض ورد ما أخذه ، فيضحك ، ويردد : "مَن حكم في ماله ما ظلم" .

يكفي نفسه أن يطلق عليهم سيل نكاته ، وهم بدورهم يجارونه وأحياناً كثيرة تمتد إليه أيديهم بالسجائر تحية ، وليس عيباً أن تكون دعوة له على غذاء بالمدرسة ... محاولة يائسة منهم أن يلتزم الصمت ، كان جميع المدرسين –إن لم يكن أغلبهم– يعملون في أكثر من عمل ، فهذا اعتاد التجارة في المفروشات المنزلية ، ويبيعها بالتقسيط للزملاء بالمدرسة ، وخارج المدرسة ، أما الزميلات فتنوعت سلعهن ، وخاصة الملابس المنزلية للرجالي والحريمي على السواء ، وأخرى نشاطها اقتصر على

ملابس الأطفال ، وتلك تغزو نظر الرجال والسيدات على السواء بالملابس الداخلية وخاصة النسائية بما تعرضه عليهم جميعاً بلا أدنى خجل ، وضحكاتها تسبق كلماتها ، وعروضها شبه العارية سواء للرجال أو النساء .

ومنهم مَن يعمل سائقاً على سيارة أجرة ، أو حتى سيارة ربع ، أو نصف نقل بعد الدوام المدرسي ، ومنهم مَن يحضر ، ومنهم مَن يأخذ إجازة مفتوحة ، وليس من العيب أن يعمل بالسباكة أو النجارة أو أي مهنة يتكسب منها ، فهو لا يجيد أياً من المهن الأخرى ، وحتى التدريس هو مجبر عليه ، فكر يوماً أن يجتهد ، ويفتح باباً للدروس الخصوصية ، ولكنه أحس بفشله ، وزادت عصبيته ، وكاد يوماً يضرب تلميذاً بصورة خاطئة ، ولولا تدخل المعارف ، فكان سيحدث ما لا يحمد عقباه ، حتى السفر للخارج المفتوح للمدرسين على مصراعيه يخافه ، فهو لا يملك ثمن العقد الذي يشتريه ، وكثير من هذه العقود مضروب ومزيف .

لم يكن يدخر وقتاً للحزن ، أو الألم ، فله فلسفته الخاصة به ، وكثيراً ما يقول إن راتبه الذي يتقاضاه هو معونة اجتماعية مجبرة الدولة أن تهبها له مقابل وجوده على أرضها ، فالجميع لا يكفيهم راتبهم الشهري ؛ فيسعون وهذا حقهم ، ولكن على حساب عملهم الأصلي ، بكل جراءة أي منهم يقول راتب الحكومة مضمون تحت أي وضع ... الأهم ما سيأتي من الخارج ، الجميع يستفادون ، هو الوحيد الذي يحاول أن يدبر أموره ليعيش ، بدءاً من المدير وحاشيته من الإداريين ، فلهم نصيب مما يدفعه صاحب الإجازة ، أو مَن يعطي درساً خصوصياً ، أو مجموعات دراسية ، أو حتى مَن يبيع الأجهزة الكهربائية بالتقسيط في المدرسة ، وربما خارجها ... الجميع ممن يبيعون ويشترون يدفعون بطيب خاطر ، والعمال مكسبهم من سندوتشات الفول والفلافل وخلافه جيدة ، والمدير

كل طلبات يومه من مشروبات أو مأكولات على حسابهم ، وربما طلبات المنزل في بعض الأحيان .

كان ينظر حوله ، فيدرك كل ما يدور ، أحياناً كثيرة يحيونه بسيجارة ، وربما بكأس من الشاي ، أو فنجان من القهوة ، ومنهم كثيرون يخافون سطوة لسانه ، لم يذهب يوماً في فكر يخرجه من حياته شبه الخالية ، كان موت والد زوجته صدمة له ولأسرته ، فكانت زوجته هي وحيدته ، وكان يعيش هو وزجته مع حماه الذي يتحمل أغلب تكاليف الحياة بالنسبة لهما ، هل يتمرد على مسيرة حياته ؟ كيف الطريق ؟

إنه لا يدرك الطريق ، كان ينظر للجميع من حوله ، كلٌّ ماضٍ في طريقه ، أول مرة يسهد في ليله مفكراً وحاسباً لمتطلبات الحياة ، هل الجميع فاسدون ، أم مجتهدون في سعيهم ؟ – يقرأ– حاذر أن تتلوث روحك ، سيكون الخلاص صعباً ، ولا تنسَ أن الجسد مقبرة الروح ، ويوم يفنى الجسد ، فإن الروح ترفرف هانئة بالحرية لمودع الروح والنافخ فيها ، قرأ وأعاد القراءة مرة ثانية ، وتأمل الكلمات ، ولعن مَن يكتب ، ومَن كتب وطوى الصحيفة ، وألقاها جانباً ، ولم يفهم منها شيئاً ، تتابعت أمام عينيه الإعلانات والجميلات اللائي يظهرن تباعاً ، فيخطفن الأبصار بجمالهن ، فيغمض عينيه أو يسبلهما للحظة .

وتصفعه قيمة المعروضات ، فيمتص لعابه ، ويحمد الله ، ولكن ليس بحمد الشاكر الحقيقي للنعمة ، ولكن المجبر ، فالزاهد الحقيقي في الشيء هو مَن امتلكه ، هل تلوث المجتمع كله بالفساد ؟ كيف الخلاص ؟ يضرب كفاً بكف ، ويبحث في بقايا علبة السجائر عن سيجارة أخيرة ، ويجدها وقد فعصتها أصابعه وهو يظن أن العلبة فارغة ، يتعجب مما يدور في ذهنه ، وما يطالعه في المسلسل الذي تتابع أحادثه في قصر منيف ، وصاحبه رجل المخدرات الذي يصاحب أكابر رجال الدولة .

ما يحكيه المسلسل هو انعكاس للحقيقة التي يعيشها المجتمع ، ماذا يحدث إن سجنت الروح في جسد بلا حياة بلا أمل ولا رجاء في غد ، ما العمل ؟ ننتظر أم نتمرد ؟ يسبح بفكره بعيداً وقريباً من مسكنه في عشوائيات يعيش فيها بشر ... قد يسكن الحجرة الواحدة عائلة كاملة ، مجموعة من الحجرات بدورة مياه واحدة ، وعروض الفيلات والقصور تتوالى ، وتتابع بأسعارها التي لا يصدقها ، ويظنها من ضروب الخيال .

في مكان آخر يتذكر الزيارة التي أجبر عليها يوماً لأحد العمال ... كان مريضاً ، كانت الأجساد قد أكلتها الأمراض ، والموت عازف عن الحضور إليهم ، والأجساد أكلتها الغريزة ، فكانت كثير من الصور المرئية فاضحة ومؤذية للعين والدين ، والأفعال ماجنة ، والخيانة عمت بين البشر ، والخارجون عن القانون والزناة يتغنون بأفعالهم في وضح النهار ، والغريب أن كل العيون تشاهد المآسي وكأنها تستمتع الفعل وتتباهى به ، والكتاب والعاملون بالإعلام ينشرون ولا يتورعون ، ويدَّعون أن الإغراق في المحلية بكل صورها طريق للعالمية .

الآذان استمعت لنداءات مختلفة ، واستجابت بعضها للصلاة ، ولكن أغلب الأجساد استجابت بلا تقوى ولا خير ، فهناك بين يدي الله مَن يسبح بمَن يهبه النعمة والخير والمصيبة أنه يعلم أن المال منهوب ويتمنى المزيد ، كيف يطمئن صاحب هذا القلب ، ولمن ذكره وتسبيحه ، نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، الظلم تفشى والأيدي لا تمنع متسلطاً من جوره وتعذيبه ، كان يصرخ قائلاً : يارب ... فالمسئول يغسل يديه في إناء التقوى مدعياً الوضوء ، ورافعاً عن نفسه عناء التفكير في المسئولية الملقاة على عاتقه ... هل كل البشر سواء ؟ لم يفكر يوماً بهذه الطريقة ، هل الظروف القاسية التي يعيشها الآن وحاجته الماسة للمزيد ؛ ليستطيع الإنفاق على أسرته هي ما دفعته للتفكير في مآسي الآخرين ؟ طوال

عمره كان يعيش لنفسه وذاته ، وحتى في عمله كان يضرب بكل الواجبات الأساسية عرض الحائط ، ويتأمل ويفكر ويبحث عن حلول .

كان يتذكر بداية عمله وانطلاقة أحلام تحمل المسئولية والرجولة والتأهل للزواج ، كيف كان إقباله على الدنيا ، لكل شيء طعم جميل ، حتى الطعام ... فزملاؤه يطلقون عليه لقب الوحش ، ففي إفطارهم بالمدرسة بالفول والفلافل كان يجاوز ستة أرغفة يوم كان رغيف الخبز يقترب من مائتي جرام وشكله مختلفاً اختلافاً بيناً ، فالوجه العلوي يفيض بالحمرة ، وباطنه كم من الردة يتخلص منها بضرب كل زوجين منهما ببعضهما ، وبجوار الطعام المخللات والسلطات ، وأحياناً كثيرة البصل الأخضر والجرجير ، وعموماً يومها كان للطعام مذاق خاص .

توارت تلك الظاهرة بمرور الوقت ، واكتفى كل فرد بإفطاره الخاص الذي تنوع باختلاف المدرسين ، سبعة أعوام كاملة مضت عليه ليعرف في النهاية أن الأبناء لا يهتمون بدروس المدرسة ، وقد استراح منهم ، فاكتفى بكتابة العنوان على السبورة ، وتصحيح الكراسات ، ومنح الدرجات .

في الأعوام الأربعة الأخيرة لم يتغير دفتر التحضير ، فأياً كان الموجه ، أو الزائر من الإدارة ، أو المديرية ، أو حتى الوزارة فهو قادم لدقائق معددودة للتوقيع ، وإثبات تواجده ومروره ، تقرب للمدير وتعلم فنون العملية التعليمية بما ظهر منها وما بطن ، وفاض في الحكايات والنكت ، وزادت ضحكات المدير وحاشيته ، وبمرور الوقت احتل مكاناً مميزاً بالمدرسة ، ووضعه المدير في كشف الأمن الخاص بالمدرسة ، تعلم كيف يكتب التقارير ويرسلها ، وأصبح له مكان بين العاملين ، وعرف كل منهم بما يقوم به ، فأفاض في مديحه ، وكثيراً في منحه هدايا تحت أي مسمى .

وكذلك أصبح له نسبة من عوائد الدروس الخارجية والداخلية ، ونسبة أيضاً من أرباح المبيعات المختلفة يهبها له المدير راضياً ، تعرَّف على العاملين خارج حدود المدرسة ، وكذلك القائمين على أمن المدارس بالداخلية ، ووصل به الأمر للتعرف على مسئولي الوزارة ، وتتبع الخطى ، ولم يتوقف ، بل تخطى مَن علموه ، واستعان بقدراته في القص والحكي ، وكما يقولون أكل أذان مستمعيه ، كانت مفاجأة للجميع ، فقد ورد اسمه في كشوف المعارين للخارج ... لم يصدق في بداية الأمر .

نعم ... كان هناك وعد ، ولكن هناك مَن هو أولى منه ، لم يصدقوا ، ولعنه بعضهم ، والغالبية فرحوا لسفره ، وعرف أن الحال سيختلف كثيراً ، والراتب سيعادل مرتبه هنا عشرات المرات ، وسأل وتأكد ، فكم من مدرس سافر وعاد محملاً بالهدايا ، وحسابات في البنوك ، وكثير منهم شيد منزلاً ، وربما عمارة كاملة ، لم يطف بذهنه أن الدنيا ستضحك له بهذه الصورة ، العارفون به قالوا أنه لن يكمل عاماً دراسياً واحداً ويعود مطروداً ، فهم مدركون أنه لا يجيد التدريس .

نصحه أحدهم بتغيير سلوكه وطريقة عمله ، وأخذ يضحك بصوت مرتفع ، ويصف له قدراته في الشرح ، ويضرب أمثلة بنتائج تلاميذ فصوله ، وكم حصلوا على أعلى الدرجات في نهاية العام ... حاول أن يذكره بكم الشكاوى التي طاردته من أولياء الأمور ، ولولا أن كل التلاميذ لجأوا للدروس الخصوصية لدفعوا الثمن ، لم يهتم وأسرف في الضحك واستعرض حال المدارس كلها ، وحجز التلاميذ للدروس قبل بداية العام الدراسي ، وواصل الضحك وسأل لمَ يتعب المدرس نفسه ، فيكفي ما يقضيه من وقت بين التلاميذ في الفصل ... يصحح الكراسات ، وصوته مبحوح طوال الوقت ، ويطلب من التلاميذ الصمت ، وعدد التلاميذ الذي يتجاوز ستين تلميذاً في حجرة لا تزيد مساحتها المربعة عن عشرين متراً .

لو كان نصيب كل تلميذ عشر ثوانٍ فقط من وقت المدرس ، وتصحيح الكراسات عشر ثوانٍ أخرى ، والكتابة على السبورة ... كم دقيقة ، وينتهي الوقت الأصلي ... كان يضحك وهو يقول :

لابد من اللجوء لضربات الجزاء الترجيحية ، وهذا بعد انتهاء الوقت الأصلي ، واللعب في الوقت الضائع بين الحصص ، لم يهتم كثيراً بما يقوله أصحابه أو يرددونه من خلف ظهره ، كانوا يقولون إن الإعارة جاءته ليس بمحض الصدفة ، وإنما بتخطيط ولعب مع ذوي النفوذ ، لم يهتم كثيراً ، بل كانت تنفرج شفتاه بحديث مثير ، ويدعي أمامهم وبكل جراءة أن لكل لعبة أصول ، وكما يقولون أطعم الفم تستحي العين ، ويردد أحدهم ساخراً إذا بليتم فاستتروا .

ويواصل شرح أصول الوصول للمبتغى والمراد ، فالذكاء يحني هامته للفهلوي ، ومَن يلعب بالبيضة والحجر ، كانوا يتحاشونه ؛ فلسانه زالف ، وهو يفيض في القص والحكي ، ولا يأبه بما يتردد ، يتخوف بعض الشيء ، ولا يفصح ، وتتسع ضحكته وهو يفكر أنه لا يحب مهنة التدريس ، وهنا يفكر بعض الشيء ... هل يستطيع مواصلة العمل هناك بنفس الصورة ؟ ... يهدهد نفسه ... ألسنا كلنا عرب وعيلة عبد الواحد كلها واحد ؟ ... التسيب صفة أساسية ... كيف يعيش في الإعارة في منطقة جبلية غير مأهولة بالسكان ، وكأن التلاميذ يخرجون من جحور في حضن الجبل ؟ وكيف تعرف على أولياء أمورهم وقبول عزائمهم ، وفرك يديه ببهجة ، فالوضع لا يختلف كثيراً عن مصر .

وما لبث أن أصبح شريكاً في الأفراح والأحزان ، وفاض بأحاديثه حتى أصبح مرجعاً لهم في كثير من الأمور ، عندما يأتي موعد عودته فإن حقائبه تمتلئ بالهدايا منهم وأولادهم ، أقام بهم الصلاة وأفتى لهم بلا علم حقيقي ، ولكن استطاع أن يبرمج فتاويه وفق مطالبهم وما يريح نفوسهم ، احتل مكانة رفيعة بينهم ، وفي المساء أقام فصول محو أمية

وتعليم الكبار ، وهنا في عمله ببلده لم يمحُ أمية تلاميذه الذين انتقلوا تباعاً من عام دراسي لآخر ، فبعضهم لا يجيد كتابة اسمه .

تمضي سنوات الإعارة ، ويعود ولم يغير من عاداته ، وصار أكثر حرصاً على ما اكتنزه وطمع في المزيد ، ولم يحمل علبة سجائر في جيبه ، وكان كثيراً ما يقول إنها حرام شرعاً ، ولكنه يتقبلها من الآخرين كهدية ، فمن العيب ألا يتقبل الهدية ، قالوا أن الترقيات الأعلى شرطها الأساسي الحصول على المؤهل العالي ... الليسانس أو البكالريوس ، وكثيرون لا يعرفون أنه حاصل على مؤهل متوسط .

عرف بموضوع التأهيل التربوي ، وتقدم ، وفي أربع سنوات فحسب كان حاصلاً على المؤهل العالي ، كيف تم هذا ؟ يقولون إنه يعرف من أين تؤكل الكتف ، صال وجال وقدَّم هدايا ، وأسرع باللهاث في دهاليز الحزب ولعبة السياسة ، فاض في الأحاديث الممجدة الساجدة في محراب النفاق ، وتشعب في المعارف ، وزاده صوته العالي مكانة ، فقاد الهاتفين في زيارات الوزراء والكبار ، وتصفيقه وصوته المتردد صداه استقطب آذان الكبراء ، فأجاد وأبدع في الكلمات وسهر يحفظ الكلمات المنثورة ، والأشعار التي تفيض بالتمجيد للساسة وولاة الأمور ، استهوته الحكاية ، فلم يكترث لعمره الذي تعدى الأربعين ، وأصبحت له دروب مفتوحة ، وأبواب لا توصد في وجهه لولاة الأمر .

وواصل مسعاه ، وطريق الوصول له أصبح سهلاً ، فيكفيه خطاب صغير إلى أمن الدولة أن يستجاب لأي مطلب له ، ولم يكتب خطاباً واحداً ، وإنما العديد من الخطابات والرسائل الموجهة ، لم ينسَ الآخرين من زملاء المهنة والطريق ... أقرباء كانوا أو حتى جيراناً ، ولكن لكل مطلب وطلب قيمة ، فطلبات النقل تختلف عن طلبات الترقيات عن الحصول على مكان في الكنترول ، حتى الشهادات الصحية يستطيع الحصول عليها بسهولة .

قد يدفع أحياناً ، ولكن يقبض أضعاف ما دفعه ، كانت طلبات الحصول على الأراضي في المدينة الجديدة أو الشقق لم يتركها أيضاً ، ثلاث سنوات وأصبح مديراً لمدرسة إعدادية اختارها بنفسه وفق رؤية لغد يسعى إليه ، فقبل القبول سأل وتأكد كم عدد المدرسين ، ومستوى الدروس الخصوصية ، والمجموعات التي تعمل بها ، أهم الأشياء التي شعر بالراحة لها أن المدرسة تقع بداخل سوق المدينة الكبير ، ومن الصعب زيارتها من أي مسئول أو لجنة ، وقليلاً ما يزورها التوجيه ، وسيارات الشرطة تصل إلى موقع المدرسة بصعوبة بالغة .

فرك يديه ، وتتابعت على رأسه الأفكار ، وكيف يخرج منها بمكاسب تفوق الإعارة نفسها ... مارس هوايته المعتادة ، فلم يمضِ وقت طويل حتى كان معروفاً للكبير والصغير في السوق ، فالنساء ممن يفترشن الجوانب بكافة أنواع الخضروات وأصحاب الدكاكين بمختلف تجاراتهم ... جزارون ... وتجار غلال ... وبائعو جملة ... وبائعون جائلون صغار وكبار بكافة أنواع المتاجرة من أكياس بلاستيكية حتى بائعي صمامات أنابيب الغاز الجلدية .

عندما يمر يفسحون له الطريق ، وكانت ابتسامته الواسعة جواز مرور له في قلوبهم ، فلم ينسَ أيضاً أن يحضر بعد صلاة العشاء ليعرف ما يدور في محيط المدرسة ، وتأكد من النوعية الثانية التي تهبط على المنطقة بالمساء ، فالتلاميذ غالباً أبناء هذه المنطقة سواء أبناء عاملين أو حمالين أو أصحاب شوادر خاصة بخضار أو فاكهة ... لا يحضرون للدراسة ، ويكتفون بدفع تبرع للمدرسة تحت أي مسمى باسم السيد المدير وبلا إيصالات ، شهر واحد فقط ، ودرس كل مفردات المكان والمدرسة ومبناها والعاملين بها من عمال ومدرسين وإداريين ، وقسم الأعمال جيداً ، واستعان بأحد أبناء المنطقة ونقله عاملاً بالمدرسة ، رغم أنه مشهود له بسوء سلوكه ، كان جميلاً في رقبة العامل وأهله ، وهم لهم باع كبير

وتعدادهم ليس بالقليل ، وأكثر من مرة توسط لفتى مقبوض عليه بتهم حقيقية وكان يفرج عنه بعلاقاته الشخصية ، ورفعت أفعاله هذه من شأنه ، وكان واثقاً فلا يطلب في خوف أو تردد ...

– أيوه مين معايا ؟

– ... تهتز رأسه ، وترتسم الابتسامة فوق وجهه .

– ومين يجهل جنابك يا معالي الباشا .

– ... كان يستمع وتهتز رأسه ، وكأنه مستجيب لكل ما هو مطلوب وموافق .

– شوف يا معالي الباشا كل شيء رهن إشارتك ... العفو... جنابك ، وسيادتك عارف إن اللي ما يعرفكش يجهلك ، والمدرسة في منطقة شعبية ، ولازم تتكسر عينهم بجمايل ... لا مؤاخذة ، يعني ليا طلب صغير خاص بواحد جنب المدرسة ... حتة موافقة صغيرة من التموين ومصالحة ، وربنا يجعل بيت المحسنين عمار ... أتصل بجنابك إمتى ... بكرة إن شاء الله ؟ ... ثواني يا باشا ... يمسك ورقة وقلماً ويكتب ... رقم محمول سيادتك ... طبعاً يا باشا ... وبالنسبة للست ما تعولش هم ... تيجي يوم القبض كفاية تمضي وتاخد المرتب ... هتبعت حد مكانها ... واحد عسكري ... موافق يا معالي الباشا ... وعموماً المخبز ده له عشر أشولة دقيق إن أمكن جنابك تخليهم يزودوهم يبقى ميت مليون متشكر ... بس ده كتير خالص .

يرمي برأسه للخلف ، وكأنه يقرأ نصاً مكتوباً فوق سقف الغرفة ، ولكن يبدو أن النص يثير الضحك ، فيبتسم ، ويفرك يديه ، فيستأذنه للدخول سمير أفندي سكرتير المدرسة وذراعه اليمين في كل أفعاله والخبير بكل خبايا الأوراق ، وكثيراً ما يردد "المهم الورق سليم ... ستف الورق صح ، وانتف ريش الوزارة ، وملعون أبو اللي يقول غلط ، والقانون قانون ،

والمهم تعمل بيه "يعتدل في جلسته مبتسماً ، فينعكس ذلك على وجه سمير أفندي ، فيبادره ...

– خمسة وخميسة في عين اللي ما يصلي على النبي ...

فيرد عليه ضاحكاً

– يا واد يا بكاش ...

– ورسول الله تقولش شاب في العشرين ...

– طب خليها تلاتين ولا ...

– اوعى تزيد عن كده ... مستحيل ، يضحكان ، ويسرع سمير بإشعال سيجارة ، ويمد بها يده للمدير ، فيأخذها ضاحكاً ...

– عارف يا سمير ... أنا الدكتور مانعني من السجاير ، ومن يومها حلفت ما أنا شايل علبة سجاير في جيبي ... بنظرة تصحبها ابتسامة خبيثة ...

– يا باشا جيوب كل المدرسين والعاملين في المدرسة جيب جنابك ده الواحد يحمد ربنا إنك بتتكرم وتتنازل ، وتمد إيدك ، ده تواضع العلماء ...

– مجد سيدك وبطل شغل الجماعة إياهم ... قالها وهو يضحك ...

– المجد لاسمه .

– عليَّ الطلاق من بيتي أنت ألأم خلق ربنا ... المصيبة بحبك ، يضحكان ، ويسعل المدير ، فيجري سمير أفندي داعياً العامل بالماء واتنين قهوة من القهوة الخاصة بسيادة المدير ... تكاد تدمع عيناه ، وهو يواصل الضحك والسعال ، حتى تمتد يد سمير إليه بالماء ، وبعد أن يشرب قليلاً من الماء ...

– الغريب إن سجايرك أنت شكل تاني وطعم تاني .

– عارف يا باشا كل المدخنين في المدرسة غيروا نوع السجاير للنوعية اللي باشربها أنا ... أنا قلت لهم وكلهم غيروا ... كلهم طمعانين في بركة مد إيد جنابك ... وواصلا الضحك وواصل سمير بلغته التي

تفيض لؤماً ، وهو يدركها تماماً ... مش باقي غير واحد بس ما غيرش نوع سجايره ... يقاطعه المدير .

– يا أخي حرام عليك إمبارح بس حياني بسجاير من نوعيتك .

– آه ... ابن اللئيمة يبقى بيحط جوه جيوبه نوعين سجاير .

يقطع حديثهما دخول العامل بالقهوة ، وفي صوت يقترب من الهمس يتحدثان عن الغائبين بأعذار ، ومن بدون أعذار ، ومن يوقعون لهم ، يبدي المدير تخوفه من الأستاذة منى زوجة رجل الأعمال ، ويذكره سمير أفندي بأنها تترك كل مرتبها لاحتياجات المدرسة ، وأنها كثيراً ما تبعث بالهدايا في بداية العام من أجندات وأقلام ، ونتائج سنوية ، وكذلك مكافأة نهاية العام ، تتركها لعمال المدرسة ...

كانا يتناوبان الضحك من جديد وتتلاقى عيونهما في نظرة تشع مكراً ودهاءً ، يشرح له أن التخوف من سفرها للخارج دون علم إدارة المدرسة ، ويقسم له سمير أفندي أنه يراها كل أسبوع يوم الأحد في الكنيسة ، ولا يلبث مواصلاً بأن السبب الرئيسي أن أصلها من النوع الذي يخاف ، ويصفها بأنها نصرانية مثله ، ويواصل ثناءه على قدرات المدير ، وما يستطيع أن يفعله لحل أي أزمة ، وكيف أن وكيل الوزارة نفسه يعمل له ألف حساب ، فكل نساء السادة العاملين بالأمن وبالقضاء والقيادات المختلفة مسجلة بالمدرسة .

ذكره بيوم سأله أحد الزوار للمدرسة عن المدرسات ، وكيف ضحك وهو يشرح له أن جميعهن ، بل أغلبهن من أصحاب النجوم المتربعة فوق الأكتاف تنور طريقنا ونسور تأكل اللحم الحي ، وفيه نوعية أخرى أصحاب قرار البلد من فوق المنصة ، ووشاح أخضر في أخضر بيحكموا ، وواجب يلاقوا الراحة في بيوتهم ، ممكن تعتبرهم من أولياء الله الصالحين ، وواجب تقديرهم في الدنيا والآخرة ، دعوتهم في الدنيا مستجابة ، وحكمهم نافذ بقوة القانون ... كان يضحك ويقاطعه ...

– ما شاء الله يا أولياء الله الصالحين ... مدد ...

– يا باشا هيه كده الدنيا ، زي الكورة خد وهات ... وكله بيلعب ، لكن المهم اللي يجيب جون ...

– الغريب إنه مسيطر على تفكيري فكرة الخدمة المجتمعية ، والمدرسة لازم تتفتح على المجتمع ، وبالذات المجتمع المحيط بالمدرسة ، تعرف موضوع الحضرة اللي بتتعمل كل ليلة جمعة ، أنا لازم أحضر وقدام باب المدرسة الكل بيسهر ، وبنحل مشاكل الناس .

ليلة الجمعة ، وبعد صلاة العشاء يكون الموعد المعتاد أمام باب المدرسة ، تقام الحضرة الليلة وتصدح أغاني العاشقين لآل البيت وحلقات الذكر حتى يقترب الفجر ، هو حريص كل الحرص على التواجد ، ولا مانع مطلقاً بدلاً من النوبتجي الواحد تواجد أغلب العمال ، فهي ليلة يغدق فيها أهالي الحي على الجميع ، ولا يفوت سمير أفندي الحضور مع بعض المدرسين ذوي الحظوة والسائرين في ركب المدير وحلقات التواصل والاتصال والتوهج والابتهاج ، تتنوع الجمرات المتقدة ما بين الجوزة والشيشة وورق البفرة أو الاستشاق من خلال الكؤوس الزجاجية الضبابية بفعل حرق قطع الحشيش والمحبوسة بغطاء ورقي ، أما هو فحريص ألا يجعل المنظر أمام الجميع ، فلا مانع للمدرسين أو العاملين من الدخول لأحد الحجرات المدرسية في حراسة العمال المكلفين ، لا يشارك غالباً في أي حلقة ، وكما يقولون يأخذ نصيبه وافي الميزان .

انفرد بصاحب المخبز ، وهمس في أذنه بأن موضوع المصالحة مع مديرية التموين أخذ وعداً بإنهائه ، كاد الرجل يقبل يده ، ولكنه سحبها مسرعاً ومستغفراً ، حتى إن السبحة التي في يده سقطت بعيداً عن متناول يده ، فأسرع الرجل يرفعها ويقبلها ويمد يده بها إليه ، وجذبه من جديد بحديث آخر عن زيادة كمية الدقيق للضعف ، فلم يصدق الرجل أذنيه ، كان يدرك جيداً أنه كما يقولون إكرام الميت دفنه ، فلا يؤجل عمل اليوم

للغد ، نظر للرجل وكأنه يسأله عن رأيه ، والرجل رأسه تعمل بسرعة ، فبيع أكثر من عشرة أجولة يومياً في السوق السوداء ... كم يكسب من وراء ذلك ؟ لم يتركه يفكر كثيراً ، فقد أشار وبسرعة إلى مكسبه القادم ، وعودته للعمل ، وكم يساوي ذلك ، أخذ يدعو له ، فقاطعه ...

– ما تكترش من الدعا ، واعمل له خلاصه ...

– أمرك يا باشا ...

– كام ... أنت عارف طبعاً خدمتي أنا لك ... لكن فيه ناس تانية عينها مفنجلة ومفتحة على الآخر ...

– شوف جنابك واللي تحكم بيه ...

لم يأخذ الاتفاق كثيراً من الوقت ، فاكتفى بنصف المكسب من بيع السوق السوداء لنصف عام كامل للزيادة ، أما مبلغ العشرة آلاف جنيه اليوم أو الغد ، فيتم تسليمها للباشا الكبير وعليه تجهيزها ، اتفقا وأظهر له قمة التعاون والمودة بأنه سيدفعها من جيبه الخاص على أن يستردها بمجرد المصالحة ، كان كل منهما يحسب حساباته وفق رؤيته الخاصة به ، كان يدرك جيداً أن مكسبه سيتعدى المئة ألف جنيه ... لم يحلم يوماً أن تفتح الدنيا له ذراعيها على هذه الصورة ، ولم يشعر بأي حرج فيما يقول أو يفعل ، وعليه الاستفادة بكل فرصة تلوح أمام عينيه ، فالفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة وعليه اغتنامها .

تعددت الفرص ، واستفاد كثيراً ، ولكن لم يشبع ، فتطلعه وأمله ، كان يزداد بمرور الأيام ، أصبح مردداً دوماً "يا بخت من نفع واستنفع" ، وكان يهمس دوماً في أذن مريديه "إن أردت أن تنجز عليك بالونجز" ... الغريب أن الغالبية العظمى مقتنعة بهذا المبدأ ، فالدفع بالمطلوب أقصر الطرق للوصول لما تريد ، فرد جناحيه فوق عقول المحيطين به ممن هم يتطلعون إليه ، ولكن أدرك أنه ليس نهاية المطاف ، فعيناه تتطلع بدورها لمن بيده الأمر اليوم ، عندما همس أحدهم في أذنه بأمنيته أن يلحق ابنه

بكلية الشرطة لم يتسرع بالإجابة ، بل ابتسم وهز رأسه ، ولعبت أنامله بالمسبحة في يده ، وتطرق لسيرة أهله وذويه وعدد القضايا المرفوعة ضدهم ، وهو يضحك ويداعب محدثه ، الغريب أن محدثه يتطرق لأسماء وصلت لهذا المكان ، ويقسم بأن عدد القضايا التي كانت ضدهم تفوق الوصف ، وأخذ يستعرض بالأسماء بعضاً منهم .

كان يستمع ، ولكن ليس كل الحديث ، فرأسه تدور في فلك آخر ، طريق جديد لم يفكر فيه من قبل ، فلماذا لا يطرقه ؟ لكن كيف الطريق ؟ مكسب سهل وسريع ، لكن الطريق ليس معبداً ، أخذ يعدد الأطراف الذين يستطيعون الوصول ومكانتهم ومدى علاقته بهم ، خاض تجربة الوظائف في مختلف القطاعات ، فقطاع الكهرباء أكثرها تكلفة ؛ لأن مرتباتها أكبر من نظائرها في القطاعات الأخرى ، وأقلها مجال المحليات .

نجح في بعض هذه الأعمال ، بل أكثرها ، ولكن المكسب لا يسيل له اللعاب ، دوره في اللعبة لا يتعدي دور الوسيط ، وأما السيد وكيل الوزارة ، أو رئيس مجلس الإدارة الذي لا يظهر في الصورة مطلقاً ، فهو الذي يقتنص الفائدة الكبرى ، أكدت له معاملاته السابقة بأن كل الأمور والمطالب إمكانية تنفيذها ليست بمستحيلة ، مادام يفرش طريق الوصول بالهدايا المادية والعينية .

صمم أن يذهب بنفسه ليسلم زوجة معالي الباشا مكافأة الامتحانات السنوية ، وفي مكالمته التليفونية حاول معاليه أن يحيد به متعللاً بأن هذا كثير جداً ، لكنه أدارها بصورة جميلة ، وإن ما يدفعه للحضور أولاً اشتياقه لمعاليه ، بعد أن ضرب موعداً من خلال التيلفون ذهب ليقدم دلائل الخضوع الذي ارتضاه ، وكسب من ورائه كثيراً ، استقبله مرحباً باشاً معرباً عن شوقه لحضوره ، والغريب أنه أخبره بأنه كان ينوي زيارته أو دعوته للزيارة ، وحاول أن يستأذن ، لكنه أقسم على العشاء .

داخلته مشاعر غريبة ، فمضيفه في علو شأن ، وقليلاً ما يتنازل بالسلام على الآخرين ، ولتوه أخبره بأنه كان سيذهب إليه زائراً أو داعياً ، توجس أن يكون في الأمر شيئاً ، تتابعت الحكايا والترحيبات قبل وبعد العشاء ، وخاض معاليه في الظروف الحياتية وصعوبتها والمتطلبات ، فالأسعار كل يوم في ازدياد ، تسلل بذكاء واستطاع أن يدخل في صدر زائره كم المعاناة في الحياة ، انصاع لأحاديثه وغالباً اهتزت رأسه موافقة على ما جاد به من حديث ، لحظة أن سأله هل يستطيع أن يوفر مبلغ نصف مليون جنيه في خلال ثلاثة أيام ؟!!

بهت للسؤال والتصق لسانه بسطح حلقه ، ولم يجب بأي كلمة سوى أن عينيه تسمرت فوق وجهه ، ضحك الرجل ، وعاد يسأله من جديد ، ويشرح له المطلوب ، أرض زراعية بجوار المدينة على حدودها الجنوبية معروضة للبيع تقترب من فدانين ، ولن يدفعا فيها أكثر من نصف مليون ...

– والأرض ستكتب باسمي ...

لم يرد ولكن بدا في عينيه السؤال ، ابتسم صاحب المعالي وأدرك ما يود قوله ، فأكمل ...

– ستكون باسمي لأنهي كل أوراقها ونخرجها من حيز الأراضي الزراعية ، وندخلها حيز أراضي البناء ، ممكن أكتبها باسمك ، لكن لن تنتهي أوراقها ، فأنت تعلم كيف ننهي تلك الأوراق ...

أدرك بحاسته أن صاحب الفخامة يدخل باسمه ، وعليه هو أن يدفع الأموال ، طالت الجلسة ، وأنهى ما هو قادم بشأنه ، وأمامه طرح موضوعاً جديداً يفتح أمامه آفاق أكثر رحابة ، وكسبا في ظل الرجل الكبير ، أخيراً استطاع التخلص من ذهوله ، وقطع الصمت مردداً ...

– أهالينا قالوا ... اللي يتكسف من بنت عمه ما يجبش منها عيال ...

ضحك الباشا ، ومال للخلف ، وأشعل سيجارته ، وألقى في صدره ما طمأنه ، وأبعد الشك عن رأسه بأنه سيبيعه شقة في القاهرة يقترب سعرها من المبلغ الذي سيدفعه ، تم الاتفاق وأبرم عقداً ، ولكن ظل الخوف يعشعش في صدره ، تمر الأيام ويتم المراد ، ويأخذ الباشا نصيبه وزيادة ، أما مكاسبه فقد تضاعفت أضعافاً لم يحلم بها يوماً .

لم ينسَ جميل الباشا ، وأصبحا شبه متلازمين ، واتخذ منه غطاءً في أعمال كثيرة ، ومرة في استخلاص أوراق وخدمات ، لم تصبح التربية والتعليم طريقه الوحيد ، فتعددت مصالحه ، وفتحت أمامه أبواب كل المصالح الحكومية وغير الحكومية ، وعلى وكيل الوزارة الجديد دائماً أن يشتري مودته ، وأن يفسح له طريقاً بجواره ، مجرد أن يهمس بطلب لسيادته ، فيسرع ملبياً ، ويضع تأشيرته في الموضع الذي يريده ، لم يتبقَّ سوى شيء واحد ، وكاد أن يذهب للمدرسة بالجلباب والمسبحة في يده ، وفعلها ، ولكنهم أرسلوا إليه أن هذا الفعل يثير الأقاويل من حوله ، مال سمير على أذنه قائلاً : "داري على شمعتك تقيد" ، ابتسم وعاد لسابق عهده ، طرق وشارك في كل الأفعال المؤدية غالباً لطريق واحد مجموع المكاسب التي تسقط عليه ، أما التلاميذ فحدث ولا حرج ، فأكثرهم لا يجيدون كتابة أسمائهم ، الجميع من أهاليهم لا يهمهم سوى أن ينتقل التلميذ من الصف إلى الذي يليه ، ولا يهتم بالحضور ، فهذه أشياء متروكة لمعالي الفاضل مدير المدرسة ، في الصف الثالث الإعدادي ، وفي امتحان الشهادة الإعدادية ، فمعلوم مسبقاً بما يحدث ، فعلى الأستاذ سمير ، وبمعاونة الأستاذ الأخصائي الاجتماعي بتحديد المطلوب من كل تلميذ .

القادمون الغرباء يعلمون ماذا يمكن أن يحدث لهم لو رفضوا الفكرة ، عليهم مساعدة التلاميذ في الإجابة ، وأنت تطلب الكتابة لأحدهم ، فماذا يمنع ؟ كل طلبات السادة المراقبين والملاحظين والسيد رئيس اللجنة

مجابة ، بدءاً من الطعام والشراب حتى متطلبات الكيف الممنوع وغير الممنوع ، مَن لا يستجيب ، فعليه من البداية أن يتقدم بطلب للجنة إدارة امتحان الشهادة الإعدادية الإعفاء من هذا العمل وطلبه غالباً مجاب .

كان العمل يمشي على قدم وساق ، والأمور في نصابها الطبيعي والعملية التعليمية تتطور يوماً بيوم ، والعاملون عليها يمضون قدماً لتحقيق الأهداف المرجوة من ورائها ، والغريب أن الجميع يلهث ويحاول أن يسابق الآخر ، يكفي أن يأتي جميع المسئولين في العملية التعليمية من وكيل الوزارة لكل الشاغلين للمناصب العليا ، ومعهم أكثر من مسئول بالمحافظة أو الجهات الأمنية ، ويشرفوا حفل نهاية العام الذي تعودت المدرسة أن تقيمه تحت رعاية السيد مدير المدرسة والسيد رئيس مجلس الأمناء وهو من أكبر الجزارين بالسوق ، ليس جزاراً فحسب ، فالكل يعلم أن له باع كبير في تجارة الممنوعات ، ولكنه يلاقى بالترحيب والعناق من الكبراء ، لا يجيد كتابة اسمه وتقابل كلمته التي يرتجلها بالتصفيق الحار ، وهذا هو المطلوب ، فكل الهدايا التي ستذهب للسادة الحضور غالباً من جيبه الخاص ، أو ممن يشاركونه العمل بالسوق .

جميعهم يلعن هذه المهنة التي هي في ذيل الأعمال الوظيفية في بلادنا ، وأغلبهم متفقون أن ما يتقاضونه يماثل إعانة بطالة ، لمن يرفعون شكواهم ... كان قديماً هناك مَن يرفع الشكاوى "العرضحالجي" ، وهي تعادل كلمة العراب أو يمكن تقسيمها لمقطعين "عرض- الحال" ، ففي مصر القديمة الفرعونية ، يأخذ الكاتب المقابل للكتابة ، وهي عبارة عن سلة يوضع بها طعام وشراب ، ويتحسسها فإذا كانت جيدة ، وتأكد من ذلك فاض ، وكتب كل ما يمليه عليه الطالب ، وزاد في رشاقة كلماته وعباراته ، أما إذا استشعر بأن سلته لا تملأ العين ، كتب بإيجاز وتراخٍ .

فالسخرة أن تعمل مجبراً ... وأي عمل تعمله بلا حب أيضا سخرة .

أقسم بالله إنني صادق

دعاني أن أكتب عما لحق به من أضرار في مسار حياته وعمله في التربية والتعليم ، نظرت إلى الأرض ، فقد تمنيت الضحك ، ولكنني كتمت ضحكي وتمالكت نفسي ، هل يظنني أكتب مذكراته ؟ أنا أعلم جيداً حتى اللصوص وإن كتبوا مذكراتهم ، فغالباً سيصفون أنفسهم بالملائكة وأنهم ضحايا ، في الحقيقة لم أتعلم على يديه ، ولكنني كنت أسمع عنه الكثير ، فهو من القلة القليلة التي احتفظت باحترامها للمهنة ، فلم يسعَ يوماً للدروس الخصوصية ، أو أفعال مما تقلل من هيبة المعلم ، تعجلتُ في سؤالي المطروح قائلاً :

- كم تبلغ من العمر اليوم ؟ ابتسم قائلاً :
- فوق الستين بقليل .
- ماذا تريد ؟ أشعل سيجارته ، وخرجت كلماته الغريبة على أذني وأنا أنظر إليه ، كان يتحدث عن أمنيته التي كانت أن يعلم ويتعلم ، وأنه وجد في عصر لا مكان فيه لعاشق علم ، ولكن الأفضلية لكل مَن سعى ، واستطاع أن يجمع الأموال ، كان يتنهد ويواصل فيقول :
- كنت أتمنى أن أصل لمرحلة الرضا عن نفسي أو الرضا عن أفعالي ، ولكن ... تمنيت الوصول ... طرق الوصول إلى الله كثيرة ، يكفي أنها تبدأ من داخل الإنسان من نيته ، ومن أقل الأفعال كتدوير اللسان بالسلام على مَن حولك من البشر ، أو أن ترفع الأذى عن الطريق ؛ حتى لا يتعثر مخلوق من مخلوقات الله ، عشقت السفر والترحال خلال كتب التراث ... يوم كنت غض الفكر ... قرأت عن حرب طروادة ، يقولون إنها مواجهة بين الآلهة ، كنت أتأمل هذه الآلهة ، وهي تجلس ، وكأنها تلعب لعبة الشطرنج ، فتسير الأصنام –الأحجار– البشر ليتقاتلوا ، وكلما أحرز أي من الآلهة نصراً ، قام ورقص وانتشى وهو يرى الحجر– البشر– تتفجر منه الدماء ، أما الثاني ، فينتظر

مواجهة ثانية ، ويعيد ترتيب صفوف الحجر – الجيش– فوق رقعة الشطرنج في دعوة جديدة لدور ثانٍ ، ومعركة قادمة ، أهي مجرد تسلية تقوم بها الآلهة لقضاء الوقت ، أم إن البشر أصبح حجراً ، وضاع ، وذهب عقله ، وأصبح يسير بلا هوى ، وبلا فكر يدمر ويقتل ...

نحن مأسورون بأفكار متوارثة ، فيوم الحريق الذي شب في قريتنا ووصلت النيران لقمم النخيل ، هبَّ الجميع كبيراً وصغيراً يساعدون ، والجميع يدعون من قلوبهم بالمدد من سيدي الريدي شيخ قريتنا وجدها وصاحب المقام الرفيع لدى أهلها والقرى المجاورة ، يطالبونه بالمدد وأن يحاصر النيران ويحمي البلد .

وفي النهاية ... أتت شرطة المطافئ ، وفي خلال وقت قليل حاصرت النيران ، وأخمدتها وأقسم الجميع أن يقيموا ليلة كبيرة لسيدي الريدي ؛ لحمايته القرية من النيران ... كان في ابتسامة زاخرة بكل معاني السخرية ينطلق ويكمل ... أطلق الطيارون اليابانيون الانتحاريون الذين هاجموا السفن الأميريكية في الحرب العالمية الثانية على أنفسهم لقب "الكاميكاز " ، ولكن ما السبب ؟

يوم هاجم المغول اليابان بأساطيلهم الضخمة أغرقتها ودمرتها أعاصير هي في الحقيقة الأرواح الحارسة لهذه الأماكن ، والتي يسمونها " كامي" ، هكذا قال اليابانيون ... أما أثينا ، فإنها أخذت اسمها من الآلهة الحارسة لها "أثينا" ... صمت ، ثم عاد قائلاً ... لماذا لا نلبس الأحذية بالعكس ؟!! انتظرت ، ولم أجب أو أحاول ، فلم أفهم أبعاد ما يرمي إليه من كلمته ... هل أثرت القراءات الكثيرة على عقله فذهب عنه ؟ ... أقسم بأنه لا يطلب شيئاً ، ولن يذكر حتى مجرد أسماء ، ولكن ما يدفعه أن يقص الخوف من المستقبل ... أحسست بصدق قسمه ... تريث ، وكأنه يرتب أوراقه ؛ ليعود إلى السرد من جديد .

التطوير التكنولوجي في العملية التعليمية ... وماذا يعني ؟ كنت في أحد قاعات معرض القاهرة الدولي للكتاب كعادةٍ لا أستطيع أن أتركها ،

جلست أستمع وأستمتع بالحديث ، وفوق المنصة جلس معالي وزير التربية والتعليم والسيد رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب ، والعالم الكبير الذي أصبح رمزاً من رموز مصر العلمية العالمية ، فبدأ الحديث بكلمة للسيد رئيس الهيئة ، فأشاد بالسيد الوزير الذي قاد بفكره وآرائه تحديث العملية التعليمية لمواكبة ركب القرن الواحد والعشرين ، وقاد المسيرة .

أنا قرأت لهذا الوزير أكثر من كتاب ، وهو من الرعيل الأول المؤمن ببلده ، ومن التقدميين المفكرين ، وكتبه تستحق القراءة ووزعت على كل مكتبات مصر ؛ نظراً لكونه وزيراً للتربية والتعليم ، فأصبحت لا تقرأ ؛ لأنها وللأسف وكأنها مفروضة فرضاً ، وعموماً مَن يقرأ اليوم ؟ والسبب الأساسي في عدم قراءة كتبه يرجع لأنه محسوب على السلطة .

ما من إنسان في مصر إلا وهو ساخط وناقم على السلطة ، ولكنه لا يجهر بالحديث ، انتهى رئيس الهيئة من حديثه الذي أشاد فيه بمعالي الوزير ، وفي نهاية الحديث المعتاد والتصفيق تحولت دفة الحديث لمعالي الوزير ، فاض في شرح ما تم في تحديث العملية التعليمية والكيفية ، قص عن التطوير داخل المدارس ، وعدد أجهزة الحاسب الآلي التي دخلت ، والمعامل والتدريبات وطرق التدريس الحديثة من خلال الأجهزة الحديثة المختلفة ، وأشار إلى المدارس الحديثة المسماة بالمدارس الذكية في كل محافظات مصر ، واليوم أصبح في كل محافظة ما يزيد عن عشرين مدرسة ذكية ، ومعونات قيمة رائعة من الاتحاد الأوروبي ، والمساعدات الأمريكية ، وكذلك المنظمات الدولية التابعة لأمريكا ، والتي تستمد ، وتأخذ كل ما تدفعه من المعونة الأميريكية التي نصت عليها اتفاقية السلام .

فاض معالي الوزير في حديثه ، وبين كلمات شكر وتوسل وتسول لمزيد من المعونات في سبيل تطوير مصر وتعليمها وتعليم أبنائها ، أخيراً استلم دفة الحديث العالم الكبير ، فأبدى ، أو قل ظهر عليه التذمر

والضيق من الحديث السابق ، لابد أن يذكر معالي الوزير بكلمات التقدير المعتادة ، ولكن كلمته في التقدير كانت قصيرة ومقتضبة .

استل سلاحه ، وبكل جراءة ذكر ترتيبنا في تقييم التعليم ، ولماذا نحظى بمراكز متأخرة على مستوي العالم ، ما السر في تدهور التعليم بمصر وماذا تقول التقارير الفعلية ، وكيف حال التعليم الفني الذي تتعدى نسبته الخمسين بالمئة من شباب الدارسين من الطلاب ، وكثيرون منهم حصلوا على شهاداتهم المتوسطة ، ولا يجيدون القراءة والكتابة ، وكان بين كلماته هجوم مباشر وغير مباشر على التعليم وكذبة النهوض بالتعليم .

وأشار إلى كيفية التطوير ، فأساس العملية التعليمية هو المعلم ، وتساءل هل تم تطوير فكر المعلم ووسائل النهوض به ؟ وتشعب الحديث ، وظهر جلياً امتعاض وضيق معالي الوزير ، ولكن لا يملك أمام الجميع سوى الابتسام .

انتظرت في المساء أن أشاهد هذا الحديث عبر قنوات التلفاز التي كانت تسجل يومها ، وكان يزيد عددها عن خمس قنوات أو ست ، وكلها تابعة للنظام ، للأسف الشديد لم يذع الحديث ، فأدركت أن هناك شيئاً ، وأن أصحاب القرار لم يعجبهم ما قاله العالم الكبير ، وبعدها سافر هذا العالم الكبير ، ورغم ما أثير عن مشروعاته العلمية المطروحة لخدمة البلد ... لم نسمع بعدها عن هذه المشروعات .

ولحظي العاثر كانت ترقيتي لوظيفة مدير لإدارة التطوير التكنولوجي ، كنت طموحاً وساعياً لفكرة تراودني كثيراً ، وهي فكرة التطوير ، وخاصة بعد أن سافرت في بعثة تعليمية للملكة المتحدة ، ورأيت كيف تتم العملية التعليمية ، قاعات الفيديو كونفراس والتدريب عن بعد ، والإمكانيات الرائعة المتوفرة بالوزارة والقائمين عليها ، تنوعت أفكارهم ووزاراتهم ، فهذا من وزارة الاتصالات وآخر من التربية والتعليم ، ويرأس الجميع غالباً قائد من القوات المسلحة .

أنا عاشق بطبيعتي للنظام ، والضبط والربط ، ولكن هنا شيء غير مقنع تماماً ، فالتعليم ليس ثكنة عسكرية ، ولا جنود ينتظرون الأوامر ، لكنني تابعت التدريبات بشغف ، وانعقدت أكثر من جلسة مع السادة المشرفين على عملية التطوير من أكثر من محاضر ، كانت الكلمات جميلة والآفاق رائعة ومبشرة في الحديث والأوراق والمذكرات ، وفاض كل منهم برؤيته .

ولأول مرة في حياتي أتقاضى مبلغاً يفوق الألف جنيه من التربية والتعليم ... بدلات ، وأضف على ذلك أسبوعاً كاملاً في ضيافة الوزارة ومدينة مبارك التعليمية بالسادس من أكتوبر ، أما الشركة المنظمة للمؤتمر الأول الذي أحضره ، فقد أغدقت علينا حتى في الزيارات الترفيهية ، وأجملها بطبيعة الحال كانت ليلة في أحد المراكب النيلية ، والعشاء الرائع الغريب الشكل ، والمضمون على معدتي على أنغام الفرقة الموسيقية والمطربة الراقصة الجميلة ، وتنوعت مباهج الليلة ، وما ألقي في الأكياس السوداء من طعام يكفي بلداً فقيراً لثلاثة أيام ... هكذا خيالاتي تقول ، فاض السيد نائب الوزير في حديثه ، وآمال الغد المرتقب ، تحدث أكثر من مسئول بالتناوب مع السادة المسئولين في الشركة الأمريكية ، وفي نهاية الليلة وزع على كل مدير تطوير مظروفين بكل منهما مبلغ ، فاق الألف جنيه هدية من الشركة الأم ، الأول لمدير التطوير ، والثاني لمعالي وكيل الوزارة .

كانت أول معالم طريق التطوير يوم اتصلوا بي ، وأخبروني بوصول دفعة من أجهزة الحاسب الخاصة بالمدارس ، حددت مَن يتولى الاستلام ، والكشف عنها ، واللجنة الخاصة بالتوزيع ، ومَن ينهي الأوراق من المدارس ، أو الإدارة ، أو المديرية ، وفي اليوم التالي مباشرة دخلوا ، وبان فوق وجوههم الضيق ، ولم يمهلوني لكي أسألهم عن السبب ، ففاضوا في الحديث بأن الأجهزة أغلبها غير صالح ، وعلى الفور اتصلت بمسئول الوزارة الذي كان يشغل سابقاً مركزاً مرموقاً في القوات المسلحة .

وبكل هدوء طلب مني الرجل أن أستلم الأجهزة ، وأوزعها على المدارس وفق الخطة الوزارية ، أردت أن أعيد عليه أن الأجهزة غير صالحة ، فلم أكمل كلمتي حتى انفجر بركان في أذني بأن الواجب علي التنفيذ وحسب ، ناهيك عن مجموعة الأوامر الصادرة ، وتحدثت إليهم ، فهم تعاملوا مع هذه الشركات .

قال أحدهم إن هذه الشركة تسمى شركة ... العامة ، ولا أحد يستطيع مراجعتها فيما تقول ، وتقريباً القائمون على إدارتها هم نفس السادة المشرفين على مركز التطوير في الوزارة ، وتوالت الهزائم تباعاً ، فشعرت بأنه من الواجب عليَّ أن أصمت ، ولكني تحدثت سراً إلى السيد وكيل الوزارة ، وكان خبيراً بطرق الوصول مع السادة فنصحني بالصمت ، والتوقيع بالاستلام ، مَن يتحمل تصليح هذه الأجهزة ؟ الموظف الصغير العامل بالمدرسة ، في زيارتي التالية للوزارة تحدثت ، وسمعت ما لا يرضي أحداً ، ومحاولات لتبرير هذه الصفقات ، ولصالح مَن ...

سحبني أحدهم من يدي ، وفي مكتب يفوق مكتب السيد وكيل الوزارة ، طلب لي فنجاناً من القهوة المضبوطة ، وعبث ببعض الأوراق في درج مكتبه العلوي ، وأخرج مظروفاً ، وطالبني بفتحه ، فوجدت ورقة مكتوبة بخط جميل ، فلم أشأ أن أقرأ ما بها ، ونظرت إليه منتظراً ما تسفر عنه أوامره ، فطالبني بالقراءة .

لأول مرة أراه مبتسماً وعازفاً بأصابعه فوق سطح الطاولة التي أمامنا ، ومغنياً ... مقلداً الفنان الشعبي شعبولا ... ومستطرداً ... ولكن في احترام يتناسب وقدره في الوزارة ...

من غير كلام كتير ... هنطبق المعايير ... وهيه ... هيه ... هيه

كبير ولا صغير ، هاشرحلك المعايير ... لأجل خير ولادنا وشيوخنا ، والحريم ... نعمل اللي يفيدنا ، ونهتم بالتعليم ... هيه ... هيه ... هيه ...

يعني المدرس يشرح بذمة وضمير ... واوعي الطالب يسرح ، أو يهرب ، أو يطير ... هيه ... هيه ... هيه ...

كتب هذه الأغنية الخبير التربوي ... !!! مساهمة منه في تطوير التعليم ، ورفع درجة الجودة ، وغناها ... يقولون المطرب المحبوب شعبان عبد الرحيم ، ابتسمت ودفعت ما تبقى من فنجان القهوة في جوفي ، وأسرعت بالخروج ، فقد شرعت بميل غريب أن أفرغ ما في معدتي ، شعبان عبد الرحيم يطور التعليم ، ويبحث عن جودته ، ويدفع المدرسين ليبذلوا قصارى جهدهم ، لعنت تسرعي ، فقد كان الأولى بي أن أسأل معاليه عما سيتقاضاه الفنان والملحن والمؤلف للأغنية .

المصيبة الكبرى عندما يتحدث أحدهم وخاصة ممن تربعوا في المناصب الكبرى ، فيصف أن كل ما يتم صرفه من المعونات الأمريكية ، يطالبني ألا أخاف على أموال وميزانية التربية والتعليم ، فهي بعيدة عنها ، وهي بعيدة أيضاً عن ميزانية الدولة ، فكلها تبرعات من مؤسسات عالمية أمريكية وأوروبية ، مَن أنا حتى أتدخل في ميزانية التربية والتعليم ؟ أنا كل ما يهمني استغلال الإمكانيات المتاحة في النهوض أو تطوير .

أذكر جيداً عندما سئل "جون ماكين" عضو مجلس الشيوخ الأمريكي عن المعونة الأمريكية لمصر ، قال بالحرف الواحد : "إن على الشعب المصري أن يعلم أنه لا يوجد نقود دون مقابل ، وأن كل دولار تدفعه أمريكا أو الغرب ، لابد أن يكون له مردود لمصلحة أمريكا والغرب" ، وسألت نفسي كثيراً ... كيف يستردون أموالهم ، أنا لا أعرف الإجابة ... تطوع كثيرون ، وأفادوني بكيفية استرداد الأموال ، فقال أحدهم ضاحكاً يكفي جزء مما يسرقه حكام دول العالم الثالث ، ويضعونه في بنوك أمريكا والغرب وتجميد هذه الأموال ، ويحرقون البلاد بأموال أهلها ... قالها ، وضحك ومضى ... أما أنا ، فجلست أحسبها ... كيف تتم ؟!

عندما دخلت عليَّ المكتب لم أتخيل أنها بالتربية والتعليم ، فجدير بها مركز إعلامي من خلاله تطل بوجهها الصبوح على المشاهدين ،

فتمنحهم الطمأنينة والسلام ، حتى عطرها من تلك الأنواع الباريسية المتعالية المتأججة بأسلحة الغزو النسائي ، مجرد أن عرفتني بنفسها سألتها مباشرة ... لماذا تسجن نفسها في التربية والتعليم ؟

ما قلته على الملأ ، وأمام زميلاتها اللائي يعملن معي ، وهن بدورهن أفصحن عما يداخلهن بابتسامة ، أو كلمة مقتضبة ، فقابلتها بكلمات تقطر مرحاً وجمالاً ، ما لبثت كثيراً ، وقدمت إليَّ طلباً خاصاً وشفعته بنظرة جميلة ، وابتسامة تفيض بهاءً ، قرأت طلبها ورددته إليها ، فهذا خطأ بيِّن .

ويوم أوافق على هذا الخطأ ... فهناك أكثر من خمسين زميلة يطلبن نفس الطلب ... تغيرت سحنتها ، وراحت تطرق أبواباً لا أدركها ، وأشارت أن هذا حقها ، وبكل هدوء أخرجت من بين الأوراق نشرة وزارية ترفض طلبها وفق قرار وزاري صادر ، لم تهتم بما أقول ، وأشارت بين كلماتها إلى أن هناك أخوات مسلمات وافق لهن المدير السابق ، ضحكت من كلمتها التي تعمدت أن تكون خافتة ، وكأنها همس ، ورددت أن له كل الحق مثل أي شخص أياً كان ... سواء مسلماً أو مسيحياً ، فلا فرق بينهما .

مضت وبدا جلياً على وجهها أنها سيجاب طلبها ، ساعة واحدة وتتابعت عليَّ التليفونات بدءاً من السيدة مديرة عام الشئون التنفيذية لمدير الشئون القانونية ، وفي النهاية معالي وكيل الوزارة ، كان الرد واحداً لم يتغير ... طبقاً للقرار الوزاري رقم ... لسنة ... لا يجوز لي الموافقة ، بعضهم كان يتسلل بكلمات غريبة ، والقانون وروح القانون ، والغريب أن أياً منهم يرفض التوقيع على طلبه ، أما المفاجأة ، فكانت من الرجل الثاني في الجهاز الرقابي الذي أبدى أن هذا الموضوع لا يستحق كل هذه الجلبة ، وطلب مني سرعة إنهائه .

لم أفعل ذلك بطبيعة الحال ، فقد علمت أن الرجل الثاني يسكن في عمارة والد زوجها ، وهذا السبب الحقيقي وراء كلماته ، لم تمضِ أيام

قليلة حتى وجدت تليفوناً من أمن الدولة يطالبني بالمثول بين يدي مسئول التربية والتعليم ، وبالطبع ذهبت على الفور ... لا أنكر تخوفت بعض الشيء ، ولم أفصح لأحد من أسرتي ، أو ممن يعملون معي بهذه الدعوة ، فالجميع يدركون المعنى والمقصود خلفها ، دعوت الله سراً وعلانية ، وقدماي لا أحس بهما ، وأنا أكتب بياناتي كما طلب مني ، وكنت أنتظر حتى يدعونني للمثول بين يدي الباشا .

أكثر من ساعتين ، وعقلي وقلبي وأفكاري وكياني في مهب الريح ، قادني الجندي لحجرة وثيرة ، ولا أنكر أنه استقبلني مقابلة لم أحلم بها ، وفاجأني بطلبه لكأس من الليمون البارد لي ، وتأمل اسمي وبياناتي ، وأكمل بدوره أشياء لم أكتبها عن محل ميلادي ، وعدد أولادي وإخوتي وأبي رحمه الله ، وماذا كان يعمل بقريتنا ، قدَّم إليَّ تلغرافاً مرسلاً لرياسة الجمهورية من صاحبة الوجه الصبوح مكتوب فيه "أنقذوني من الاضطهاد الديني الذي يمارسه ضدي ..." ، وطبعاً اسمي "منور" ، أنا لست ...

لم أكمل عبارتي ، وكانت كلمته النهائية بأنهم يعرفون كل شيء وودعني ، وهو يشد على يدي ، وحضر لمكتبي معالي وكيل الوزارة ، والأخت الفاضلة وأبيها وزوجها ، وأبدوا جميعاً اعتذارهم بصورة غريبة ، وصمم أبو الفتاة على زيارتي في المنزل ، ولكنني اعتذرت عن الزيارة لأسباب متعددة ، فقد علمت أنهم من أثرياء المدينة التي أعيش فيها ، ولا أعرف عنها شيئاً ، المصيبة أنه بعد حوالي شهرين يصدر قرار من مكتب السيد الوزير بأحقية الأخت الفاضلة في طلبها ، وفي هذه الحالة لا يحق لي إعادة العرض ، ولكن أرفقت بموجبها طلبات لتنفيذ كل من لهنَّ الحق .

تنهد الرجل ، ورجع للخلف بكرسيه قائلاً : "سمير نجيب صديقي المسيحي –رحمه الله– وكنا في رمضان ، وكثيراً ما كان يجهز لنا طعام الإفطار في بيته ، ونحن طلبة في الجامعة ، وكان يضحك قائلاً ... "أمي دبحت الفراخ وفق الشريعة ، والست أم أحمد جارتنا سمت عليها

ودبحتها ... يعني صيامك مقبول ..." ، وامتلأت عيناه بالدموع وهو يذكر صاحبه ، وعلاقاته بأصدقائه المسيحيين ، وأنه لم يشعر يوماً بفروق بينهما ، وما لبث أن استرد بشاشته ، أو قل ضحكته ، أو ابتسامته الحزينة .

أما ما يؤسف عليه حقاً ... ما حدث في المدينة الجديدة ، ومركز التطوير المقترح أسفل مجمع سكني ، وغير مجهز بأي إمكانيات تذكر ومطلوب سرعة تجهيزه ، الفضل الحقيقي لمجموعة الشباب العاملين بالمركز الذين تفاعلوا مع المكان ومحاولة تجهيزه ، وكأنهم في بيوتهم حتى إنهم كانوا يحملون الأجهزة فوق أكتافهم ، وكثيراً ما كانوا يسهرون للساعات الأولى للصباح يعملون ، وحتى تتم منظومة العمل لابد من تجهيز القاعات الخاصة بتدريبات ICDL ، فيجب موافقة اليونسكو ، وعليه يجب أن تكون القاعات مكيفة .

مطلوب ما يزيد عن خمسة أجهزة تكييف ، والمديرية تنفض يديها ، فلا ميزانية لديها ، وبالمثل ترد الوزارة بضعف الميزانية ، وعدم استطاعتها ، ماذا أفعل ... أعود لمعالي وكيل الوزارة ، ويرد بالردود السابقة نفسها ، لم أجد مفراً من التفكير في نظام الخدمة المجتمعية ، ذهبت لمن أعرفهم ، أو يمتون إليَّ بصلة القرابة ، ودفعتهم للتبرع ، وكان أولهم قريب تبرع بجهازي تكييف ، وفي النهاية ...

وصل عدد التكييفات لسبعة أجهزة ، في وجود معالي وكيل الوزارة طلب مني السيد وكيل المديرية جهاز تكييف لمكتبه ، ونظراً لما تحملته من ألم السؤال ، لم أدرِ بنفسي ، وكان ردي عليه إلى حد ما قاسياً وطلبت منه أن يتقي الله فيما يقول ، بعدها أصبح وكيلاً للوزارة وبالطبع لم ينسَ ذلك الموقف ، وتحملت على نفقتي الخاصة توصيل خط الإنترنت لمدة تجاوزت ستة شهور ، يتكلف الشهر الواحد ما يقارب ثلاثمائة جنيهاً دفعتها من جيبي الخاص ، وبعلم معالي وكيل الوزارة على أن أستردها فيما بعد .

تمت التركيبات وبسرعة كبيرة ، وأصبحت القاعات جاهزة لاستقبال المتدربين ، وبعد استضافة السادة مسئولي اليونسكو ، وإقرارهم بالموافقة علي بدء التشغيل ، زار المركز العديد من زوار الوزارة صباحاً أو مساءً ، وأشادوا بما تم ، وكتبوا هذا تحريرياً ، وأخذوا صورة منه للعرض على الوزارة .

وفي العام نفسه تم تكريمي في عيد العلم ، وأمام السيد المحافظ أفصح معالي وكيل الوزارة عما قمت به ، وأشاد بمجهودي في الفترة السابقة ، انتهزت فرصة زيارة وفد من الوزارة ، وأحد المسئولين عن شركة أمريكية تمول أحد التدريبات القائمة ، وكان هذا الحدث في شهر رمضان المبارك ، وعلى نفقة الشركة الأمريكية وممثليها أقيم حفل إفطار ، ودُعي كلٌ من المحافظ وأغلب القيادات السياسية يومها .

كان من المفروض تقديم واجب الشكر لمن ساهموا بتمويل المركز ، وقدموا له يد المساعدة في صورة هدايا عبارة عن أجهزة تكييف ، واقترحت على الزملاء بدعوتهم للحفل ، ووافقوا جميعاً ، بل دفع كل منهم مبلغاً في مقابل أن نشتري لهم هدايا تليق بمكانتهم ، لم يحضر أحدهم وهو قريب لي ، وفي نهاية الحفل ذهبنا إليه في مصنعه وقدمنا له الهدية والشكر ، كان بطبيعة الحال واجب تكريم كل القادمين ، وبعدها بأيام أرسلت الشركة نفسها ، وعن طريق المركز الرئيسي بالوزارة مكافآت كانت متأخرة بالأسماء ، وبشيك باسمي شخصياً على أحد البنوك .

والمصيبة أنهم أرسلوا بعدها مبلغاً آخر استلمه مسئول التدريب باليد كعادتهم دائماً بلا توقيع استلام ، تم الصرف وفقاً لما جاء عن طريق المسئول المالي للمركز ، لكن الخطأ الحقيقي الذي لا أنكره وقعت فيه بسبب حرصي أن يأخذ العاملون حقهم ، فكانت تدريبات أخرى قد تمت قبل أن ألتحق بالمركز ، فرفعت الموضوع لوكيل الوزارة والحسابات ، وطبعاً لا توجد أي أوراق عن هذه التدريبات ، فأحسست بأنه لن يتم الصرف إلا بوجود نصيب في المكافأة لكل القيادات بالتربية والتعليم ،

ولم أوافق في البداية ، وبمجرد أن ذهبت للوزارة عرضت الموضوع على المسئول الأول للتطوير التكنولوجي في الوزارة ، وأقسم بالله وبالحرف الواحد قال :

"هنا في الوزارة ، وعند صرف أي مبالغ مالية لن توقع عليها مسئولية الشئون المالية والإدارية إلا بعد تحديد المبلغ الذي تأخذه إدارتها ، وهي أولاً وأنت عليك أن تتصرف وترضي كل الناس" ... ساعتها أتذكر جيداً أنه ضرب مثلاً بأن جملة المبالغ الخاصة بهذا التدريب جاوزت المليون والنصف من الجنيهات ، كان نصيب تلك السيدة وإدارتها ما يزيد عن خمسين ألف جنيه ، وطالبني ألا أتشبث برؤيتي ، وليس عيباً أن نقسم اللقمة سوياً ...

كلمات جميلة ، وآفاق تحسها رحبة ، عندما عدت أعدنا كتابة الأسماء ، وتوزيع المبالغ ، وعدد الدورات ، ولكن اتفقنا مع بعض الزملاء بأن يوقع على ثلاث دورات ، ولكن نصيبه الحقيقي دورتان ، المهم أن الجميع وافق على ذلك ، ووقعوا بصحة ما لهم ، وكذلك مدير المركز السابق وقع بصحة ما جاء في الأوراق ، وتم الصرف ، وذهبنا لمعالي وكيل الوزارة بالفروق المتفق عليها ، ووزعها وفق ما اتفق عليه ، ولكل السادة المسئولين نصيبه ، ومسئولي الحسابات والماليات وغيرهم .

طبعاً كان لي نصيب ولا أنكر ذلك ، وسارت الأمور بشكل جيد ، والعمل يمضي على قدم وساق ، والجميع يشيد بما كان ، وما سيكون في المستقبل ، وعلامات الرضا ظاهرة على وجوه الجميع ، ما عدا السيد وكيل المديرية الذي لم يأخذ نصيباً مما كان وفقاً لرؤية معالي وكيل الوزارة ، على أساس أنه يستفيد بألوف مؤلفة من مشروع في المدرسة الثانوية الزراعية اسمه تقريباً تدوير رأس المال .

وتسير الأيام وتدريبات متنوعة ومعونات بأجهزة حديثة تأتي ، وتأتي هدية السيد رئيس الوزراء بجهاز حاسب آلي لكل تلميذ من أوائل الشهادة الابتدائية ، ويمكن أن يأخذ الأول والثاني جهاز حسب كثافة المدارس ،

وتم تجهيز كل الأوراق الخاصة بعملية التوزيع بمشاركة التعليم الابتدائي ، وتم العرض على معالي وكيل الوزارة الذي بادرني بفكرة غريبة أن يتم التوزيع وفق ما هو مكتوب على أساس أن نأخذ جهاز التلميذ الثاني للمديرية .

فهمت ما يرمي إليه ، وتصنعت الغباء ، وجد أن عدد الأجهزة التي يمكن توفيرها بهذه الطريقة يقترب من ثلاثين جهازاً يتم توزيعها على الأقسام المختلفة بالمديرية ، لم أستطع الصمت ، وأبديت اعتراضي وقلت إن مسئوليتي أن أسلم كل الأجهزة للتلاميذ ، فضحك وبين ضحكاته كان يؤكد أن كل الأوراق ستقول ذلك ، فرفضت وخرجت من جنة معاليه ، وتم تكوين لجنة للتوزيع بعيداً عن التطوير التكنولوجي ، وتوالت شكاوي أولياء الأمور أولاً من الأعطال بالأجهزة ، وكلها تصب فوق رأسي ، وتعددت الدعوات من جهاز النيابة الإدارية للسؤال عما حدث في توزيعات الأجهزة ، وكل الأوراق تقول أنني لم أستلم الأجهزة أو مَن يعملون معي .

زاد تذمر السيد وكيل الوزارة مني ، ولكنه من النوع الخبير في التواصل مع القيادات ، وخاصة الرقابية ، وأكثر ما أصابني بالذهول أن ما دفعته لتوصيل خطوط الإنترنت للمركز ولمدة تجاوزت الستة شهور وبمعرفته شخصياً أنكرها تماماً ، وكما يقولون "ضاعت فلوسك يا صابر" .

لم أهتم كثيراً ، فقد سار العمل بصورة جيدة جداً ، وأصبحت التدريبات والاختبارات تتم في مركز التطوير ، ويمنح اليونسكو الشهادات لكل مَن يجتاز الاختبار من المركز ، وكانت الطامة الكبرى التي لا أدركها حتى اليوم عبارة عن وصول إشارة رسمية من الوزارة موقَّعة من أكبر رأس في التطوير بتفويض شركتين بأعمال الصيانة لأجهزة التطوير المهداة من الاتحاد الأوروبي ، قرأت اسم الشركتين مراراً وتكراراً ، فهما باسم زميلين يعملان معي في التطوير ، لكنهما ليسا بحجم أن يقوما

بصيانة أجهزة التطوير الكثيرة ، ولا تقتصر الصيانة على محافظتنا فحسب ، ولكنها تشمل ثلاث محافظات .

فالاتحاد الأوروبي (تحسين التعليم) يصرف بالعملة الأجنبية ، وغالباً باليورو عملة أوروبا الموحدة ، وكثيراً ما يكون فيها بزخ كبير بالنسبة لمستوانا العام ، لا أنكر فرحت أن يصل هذان الزميلان لهذه المرحلة ، وتمنيت لهما المزيد من الرزق ، فكلاهما وبحق يستحقان ، لكن هناك مسئولية تقع على عاتقهما ، فكل منهما يعمل في المجال نفسه ، وحصولهما على تفويض بأعمال الصيانة يثير أقاويل حولهما .

لم أجد مفراً من مصارحتهما بما جاء في الفاكس القادم من الوزارة ، وما يحمله من الخير لهما ، ومن تخوفي عليهما ، كلاهما مشهود له بالصدق في الفعل والقول ، ضحكا ولم يصدقا حتى بعد أن قرأ كل منهما ما جاء في النشرة الوزارية ، وأفصحا أن أياً منهما يتمنى أن يحظى بهذا العمل ، ففيه خير كثير لهما ، لكن كيف يتم إسناد العمل إليهما ، وكلاهما لا يعلمان عن الأمر شيئاً ؟!!

استغربا الأمر ، أما أنا فكررت سؤالي لهما بصورة أعتقد أنها سيئة أو ربما فسراها بذلك ، وليرحمني ربي ... ما قصدت تكذيبهما ، أقسما بالله العلي العظيم بأنهما لا يعلمان عن هذا الموضوع شيئاً ، كيف يتم هذا وبموجب خطاب رسمي من الوزارة ، وها هما أمامي صاحبا الشركتين ، ولا يعلمان عن هذا الموضوع ، ومن المفروض أن هناك عقداً مبرماً بين الوزارة وأصحاب الشركتين ، فأين هذا العقد ؟

لم أجد مفراً ، وبعد تردد طلبت منهما أن يكتبا ذلك تحريرياً ، أسرع كل منهما ، وكتب بأنه ليس هناك أي تعاقد بينه وبين الوزارة بشأن صيانة أجهزة التطوير الخاصة بالاتحاد الأوروبي ، وسواس غريب سيطر على فكري المضطرب ... ما الدوافع وراء هذا الفاكس الغريب والموقع من كبار رجال الوزارة ؟ هل مجرد أوراق يستكملونها أم إن الفاكس وصل بطريق الخطأ ، مع من أتكلم ؟

لقد ذقت الأمرين ودفعت تكاليف من جيبي الخاص ، ولم تنصفني حتى أجهزة الرقابة ، ووقفت بصف السيد وكيل الوزارة ، وعلمت فيما بعد أن مَن قام بالتحقيق معي له مصالح مشتركة مع السيد وكيل الوزارة ، لقد رضيت بالجزاء السابق ، ولكن الموضوع أكبر من وكيل الوزارة ، سألت وتصنعت عدم المعرفة ، واحتفظت بالأوراق بعيداً عن المركز ، وعلمت بصورة غير مباشرة أن هذا الفاكس وصل بطريق الخطأ ، فهو من الأوراق التي تكتب بين الكبراء ، ولا يعرف بها صغار الموظفين ، هناك شبه اتفاق بين الكبراء بأن مبلغ الصيانة أيضاً يدفعه الاتحاد الأوروبي لهذه الشركات التي لا يعلم أصحابها بالأمر ، ويتم التحصيل ، ويتم التوزيع وفق منظومة عنكبوتية ومسئول وحيد بالمديرية هو مَن يعلم بالأمر ، تأكدت أنه ليس له دور في هذا الموضوع ، وهو يقتصر على واحد فقط من المديرية متعاوناً مع الوزارة ، لكنها مبالغ كبيرة جداً ، وخاصة أنها تشمل ثلاث محافظات ، صممت أن أقوم بعملي ، وأغض الطرف عما يحدث ، فليس هذا شأني وإن ما يحدث هو لعب بين كبار القوم ، وأنا لا أنتمي إليهم .

ومضت أيام هادئة ، وأنا أباشر عملي وفق المنظومة التي آمنت بها "اربط الحمار مطرح ما يحب صاحبه ، الحمار يرفس برجله ويضرب بديله هو حر ، وما عليا سوى الابتعاد عنه" ، حضر إليَّ أحد رؤساء الأقسام شاكياً أن أجهزة اللاب توب المهداة من الوزارة للمدارس وفقاً لمساعدات البنك الدولي استولى عليها السادة العاملون في جودة التعليم طبقاً لتعليمات السيدة مديرة الشئون التنفيذية بالمديرية ، كيف هذا ؟ لكل مدرسة ثلاثة من الأجهزة يستخدمها المعلمون داخل الفصول الدراسية وفق تدريبات دربوا عليها ، وقرار السيد الوزير ممنوع منعاً باتاً خروج هذه الأجهزة من المدرسة نهائياً ، وأنها عهدة خاصة بمعامل التطوير .

توجهت إلى مكتب السيدة الفاضلة صاحبة القرار ، وفي يدي القرار الوزاري الذي يمنع مجرد استعارة هذه الأجهزة ، لم تهتم كثيراً ، وهي لا

تعلم أي شيء عن العملية التعليمية في المدارس ؛ لأنها ممن يهبطون على كراسي السلطة بالتربية والتعليم وفق معايير خاصة جداً ، لم تعر الموضوع اهتماماً يذكر ، والمصيبة أنها طلبت مني أن أنقل أجهزة مدرستين لمدرسة بالقرب من المدينة ، وهي مدرسة حديثة ؛ لأن معالي الوزير سيزورها في جولته القادمة الأسبوع القادم ، حاولت أن أقول لها أن المدرسة تحت التأثيث ، ولم تدرج وفق الخطط الوزارية ، وممنوع نقل الأجهزة من مدرسة لأخرى ، حولت الموضوع للسيد وكيل الوزارة ، ونظراً لكونها وزوجها ممن ينتمون لأصحاب القرار ، وممن يساعدون السيد وكيل الوزارة في الاستمرار في مقعده ، فطالبني معاليه بتنفيذ تعليماتها ، وبصوت يقترب من الهمس ... طلبت منه أن يوقع على قرار بذلك ، ورفض كعادته .

ماذا أفعل ؟ وأي القرارات المفروض عليَّ كموظف اتباعها ؟ قررت أن أتبع التعليمات الوزارية ، وما يكون يكون ، وقررت التخلي عن تلك المسئولية التي لا أدرك حتى اللحظة ما هو المفروض من ورائها ... لم أستسلم ، ولم أنقل أجهزة للمدرسة التي سيزورها الوزير ، وانتظرت تحويلي للشئون القانونية ؛ لأدلي بأقوالي ، ومحاسبتي تحت مسمى الإخلال بمهام وظيفتي وعدم طاعة الأمر ، لكن لم يتم استدعائي ولا تحويلي للتحقيق ...

حدث غريب لم أتوقعه ... مسئول بأحد الشركات الكبرى التي تستعين بها الوزارة ؛ لتنفذ مشروعات التنمية التكنولوجية والتابعة للمعونة الأمريكية والاتحاد الأوروبي ، ويمتلكها أحد كبراء البلد ، عرفني بنفسه ، وتبادلنا الحديث في شتى الموضوعات ، والتي من خلالها يمكن تقديم المعونة لرفع مستوى المركز ، لم ينتهِ من شرب قهوته ، وأذن لصلاة الظهر ، فاستأذنني الرجل لأداء الفرض .

كان حديث الرجل يشع بالأمل والإمكانيات المتاحة التي يمكن تقديمها للمركز ، حضر أحد رؤساء الأقسام ، وهمس في أذني بحديث غريب

وبما يحمل إمكانية استغلال الرجل في هدايا لنا ، ابتسمت ونظرت إليه معاتباً ، فهو من أكثر العارفين بأني لم أتقبل يوماً أي هدايا تحت أي مسمى ، أحسست بأنه يشعر بخطأ أرتكبه ، وأشدت بالرجل القادم ، ولم أعقب على حديثه بكلمة واحدة فانصرف ، وبمجرد أن جلس الضيف استدعيت العامل ؛ لأطلب له مشروباً جديداً ، فأسرع بتحديد ما جاء من أجله ، وأخرج خطاباً بموعد انتهى ومطلوب مني أن أغير هذا الموعد الخاص باستلام الأجهزة .

في الحقيقة لم أفهم الموضوع ، فصمت وكان صمتي محاولة لإدراك ما يعنيه تغيير الخطاب ، فهذا لا يؤثر بأي حال من الأحوال ، وخاصة أنه في الموعد الأول كان المركز يقوم بعملية النقل من مكان لآخر ، ليس هناك ثمة ما يتخوف منه ، وقبل أن أوافقه الرأي ... أسرع قائلاً : "الشركة تعرف ما تقومون به من مجهودات طيبة للارتقاء بمستوى المركز ، وقررت مد يد المساعدة لك شخصياً بمبلغ بسيط" ، مع ابتسامته الجميلة امتدت يده بمظروف إليَّ .

لم أدرِ بنفسي ... وأحاط بي برود غريب ، وسألته عن مقدار المبلغ ، فأجابني بأنه ثلاثة آلاف جنيه ، تأكدت ثانية بأنه يقصد أن المبلغ خاص بي شخصياً مرتين متتاليتين ، هو يحدثني ويشيد ، وأنا ذاهب فكري لأشياء كثيرة ، لعمري ما امتدت يدي لقرش حرام ، ولم أتلقَّ رشوة أبداً ، وحالتي كما يقولون لا بأس بها ، وأنا طوال عمري راضٍ ، عدتُ إليه وابتسامة فوق وجهي ، وطلبت منه أن يرفع المبلغ ويزيده ، فأقسم أن ما معه لا يزيد عن أربعة آلاف جنيه ، هززت رأسي موافقاً ، وعموماً لا بأس بأربعة آلاف ، وأخذ المظروف وفتحه ، واستكمل المبلغ ووضعه في المظروف ، ووضعه على المكتب .

استدعيت العامل ، وطلبت منه حضور رئيس القسم المالي والإداري من المكتب المجاور ، فأتى على الفور ، وسحبت المظروف من أمام الزائر الكريم ، ومددت يدي للزميل ، فنظر إليَّ مستفسراً ، فطلبت منه أن

يحصي المبلغ الموجود ، عدها وقال أربعة آلاف ، وحاول الزائر أن يتحدث ، فأسرعت بالحديث بأن هذا المبلغ من شركة ... مقابل تغيير هذا الخطاب ، وهو عبارة عن مساعدة للمركز لاستكمال متطلبات المعامل ، وضيفنا العزيز سيصل بالمبلغ لخمسة آلاف .

أقسم الضيف بأنه لا يملك سوى ثلاثمائة دولار ، وأخرجها فطلبت منه أن يعطيها للمسئول المالي والإداري ، وأخبرته بأن المركز في أمس الحاجة أيضاً لجهازي تكييف ، فوافق الرجل على الفور ، وأرسلت مستدعياً كل رؤساء الأقسام ، وأمامهم جميع كتب الأستاذ رئيس القسم المالي والإداري بقيمة التبرع القادم من الضيف ، ورهنت الخطاب المطلوب بالوفاء بالوعد ، كان الذهول يسيطر على كل الزملاء .

بلغتُ معالي وكيل الوزارة بما حدث ، فثارت ثائرته ، ولم أدرك ساعتها السبب ، فطلب مني أن أضع المبلغ بحسابات المديرية ، ولكنني رفضت ، فأنا أعلم أنهم سيدخرونه لحسابات تسمى فائض الميزانية يوزع بعدها على "المحاسيب والهباشين إياهم" ، استدعاني معالي وكيل الوزارة ، ولم تأتِ الرياح بما اشتهت سفن أي منا ، فقد تطاول في الحديث ، وخرجت عن المعتاد ، فلم أصمت ، وأشرت إلى كم الأخطاء والأفعال السيئة التي تمت ، وأخرجت صورة الفاكس الخاص بالصيانة وتوقيع الزملاء بأنه لا يوجد تعاقد بينهما .

وقلت له أن الوزارة أحست بتغير لهجته ، والغريب أنه طلب لي مشروباً مثلجاً ، ولا أنكر ذكاءه بعد محاورة ، ومداورة وابتسامة ثعلبية ... اقترح لي مكاناً أفضل في المديرية ... كمدير لإدارة التعليم الخاص ، مشيراً إلى مجموعة الامتيازات التي سأحصل عليها مادياً ومعنوياً ، لم أوافق على مقترحه ، بل طلبت منه تحويلي للتحقيق في أي جهة أياً كانت ، ومعي ردودي جاهزة لأي أسئلة ، لقد دخلت عش الدبابير بإرادتي .

وكان التحقيق الأول ، وفيه منسوب لي أخذ أجهزة تكييف من أفراد دون الرجوع للمديرية ، وعدم إضافتها لعهدة المركز ، ضحكت ، فالجميع يعلم أنني تسولت للحصول على هذه الأجهزة لتشغيل معامل التطوير ، وهي تعمل بالمركز ، وتم تركيبها وأشادت حتى الوزارة ، ومن زاروا المركز بمجهودي ، وسبب التأخير أعمال إدارية ، والغريب أنه تم التحقيق أيضاً في دفعي مبلغ التعاقد مع شركة الإنترنت لاستكمال العمل ، ومَن يسألني مسئول أحد الجهات الرقابية التي تهتز له مفاصل الرجال ، والأغرب أنه قال :

"هل تصرف على الحكومة ؟" .

ابتسمت وأخرجت له طلباً للسيد وكيل الوزارة بمبلغ التعاقد ، ووقع عليه بالموافقة ، وتحويله للميزانية ، وهناك أخبروني بأنه لا يوجد رصيد في المديرية ، وعدت لسيادته ، وطلب مني أن أدفعها ؛ لأستكمل العمل على أن أستردها بمجرد أن يأتي الرصيد ، وعموماً أنا حولت للنيابة الإدارية ، ولم تأخذ بحديثي الذي أنكره معالي وكيل الوزارة ، وهو الصادق طبعاً ، وتم مجازاتي ، ولم أسترد ما دفعته .

طاف الرجل بأرجاء المركز ، وهو ينقب عن المخالفات التي يستطيع أن يحررها في محضره وتحقيقه ، في الحقيقة لم أنتظر كثيراً ، فأخرجت له عقود الصيانة الوهمية ، وأشرت لما يمكن أن يحدث من وراء ذلك ، فسحبت منه الأوراق ثانية رغم أنه أراد أن يأخذها ، وأظهرت له مجموعة المخالفات من كيفية توزيع أجهزة الحاسب الخاصة بالتلاميذ لأجهزة اللاب التي يستلمها السادة القائمون على جودة التعليم ، ونقل الأجهزة من مكان لآخر ... رغم أن هذا ممنوع وفقاً للقرارات الوزارية ، وأخرجت له بعض صور من القرارات الوزارية التي استلمتها ...

كيف تتم توزيع المكافآت ، وماذا يقولون في الوزارة عن كيفية التوزيع ... أحسست أن الرجل مصدق لما قلت ، ولكنه قادم لإثبات مخالفات فحسب ، وتم له ما أراد ، أما لجنة التحقيق الوزارية ، فقد رصدت مجموعة من المخالفات لم تحدث مطلقاً ، ووصل الأمر برئيس

اللجنة أن يهدد ويتوعد ، أحسست أن الرجل يطالبني بين تهديده بكيفية إجراء مصالحة ، وأنني السبب في كل ما حدث ، عندما أنهى أسئلته ، قال هل لديك أقوال أخرى ؟

– نعم ... لديَّ ... أولاً سؤال كم عدد سيارات التطوير التكنولوجي الموزعة من قبل الوزارة على مراكز التطوير ؟ لم يجب ، فقلت يجب أن تعلم سيارتين لكل مركز ... سيارة للمركز ، وأخرى خاصة للسيد وكيل الوزارة وأسرته وباقي أفراد حاشيته ، كانت التدريبات القادمة من المنح الأجنبية والمبالغ المتفق عليها قد وزعت بلا ضوابط ، وبدون توقيعات ... أجهزة اللاب توب الخاصة بالمدارس ، والتي يأخذها أعضاء الجودة من المدارس .

طالبني بالصمت ، وكتب تقريره ، ومعه اللجنة ، وبالطبع كان جزاء آخر ، وكان آخر أنواع الجزاءات خمسة عشر يوماً من قبل النيابة الإدارية ، لم أسكت وتوجهت بشكواي لمفوض الدولة ، وأرفقت جملة الأوراق التي بحوزتي ، وبعد فترة رفع هذا الجزاء ، هل هزمت قرارات النيابة الإدارية ووكيل الوزارة !!!

أسرعوا بتحويل الموضوع للمحكمة التأديبية ... جزاهم الله خيراً ، استمعت إليه في البداية مرغماً ، وفي النهاية متأسياً ، ولكن ما يدريني بصدق حديثه ، ربما من بنات أفكاره ، ولكنه أقسم بالله أنه صادق ... لا أدري ... أصدقه أم أكذبه ، ماذا يريد مني ؟ أخرجني من فكري ... أنا لا أقص عليك لتكتب ، أو لتأتيني بحقي ، لقد ذهب كل شيء ، وما فعلته ابتغيت من ورائه وجه الله ، وأنت تعلم اليوم كيف تتم منظومة التعليم ...

أنا ممن شاركوا في تلك المهزلة التي تحدث ، وأستحق العقاب ... لكنني أتمنى في ظل الأيام التالية أن تسير المراكب لبر الأمان ، فالتعليم أساس رقي البلاد عموماً ... لم أنظر في ساعتي تذمراً ، ولكنني لا إرادياً فعلت ذلك .

ابتسم الرجل ، واستأذنني في الانصراف معتذراً عن الوقت الذي ضاع مني ، فأخذتني حكاياته ، وفكرت به ، لكني نسيت بعد ذلك ، في مقر

الصحيفة حضر إليَّ وابتسامته فوق وجهه ، أسرع يفتح حقيبة صغيرة ؛ ليثبت صدق حديثه بأوراق وفاكسات وأوامر إدارية وخلافه ، وسلمني نسخة منها ، واحتفظ بالأصل ومضى ، لم يستغرق الأمر نصف ساعة ، حاولت أن ينتظر حتى أقوم بواجب الضيافة ... فابتسم وقال :

إنه ملف خطير ومهم ، وأنتم عليكم مسئولية وأمانة .

***